تأملات حول :
المسرح ... والمرأة

عبد الله شقرون(*)

إثباتات :

يكاد يكون من المؤكد أن المسرح، أدبا وفنا، ما اكتمل كيانه، وأصبح متين الدعائم، شامخ الصرح، ثابت الأركان، وجيه المقام... وما غدت الجماهير تؤمن بمقولته صادق الأيمان، وتقدر رسالته جملة وتفصيلا، وتقبل على مشاهدة عروضه الاقبال الذي يلفه الوعي المعمق، ويغلفه التنبه الحصيف... إلا عندما أخذت المرأة، على قدم المساواة مع الرجل، تعتلي ركحه الاعتلاء المكين، وتؤدي أدواره الأداء الصائب، وتتقمص مشاعر شخصياته كأتم ما يكون عليه التقمص، وتتغلغل، بكل يقظة وإحساس، في نفسية هذه الشخصيات، وتعمل على تجليتها من خلال الحركة والحوار.

وليس مفهوم هذا أن المسرح العتيق، إذ لم يحظ في جملة منشطيه بوجود المرأة، كان في حكم العدم أو كان الاقبال عليه غير موفور... لا، أبدا، ولكن مسحة « **الواقعية** » ومسحة « **المصداقية** »،

(*) كاتب مبدع وناقد مسرحي، الأمين العام سابقا لاتحاد إذاعات الدول العربية، مدير ديوان وزير الشؤون الثقافية.

كثيرا ما كانتا معا غير ملموستين في نطاقه. فمهما كانت براعة الرجل في أداء دور المرأة على خشبة المسرح، ومهما علت كفاءته في التقمص، يبقى المتفرج مؤمنا في قرارة نفسه بأن هذا «**الممثل**» ليس امرأة، وإنما هو مقلد لها، وما يأتيه من الحركات والأقوال والأفعال أمام الناس هو مجرد تزوير في تزوير عليها. وهذا الواقع هو الذي ساد الكثير من المجتمعات البشرية التي عرفت، مبكرا، المسرح خلال عصوره الأولى - عند الإغريق والرومان ومن كانوا قبلهم - وأثناء القرون الوسطى عند المسيحيين وسواهم. إن تلك المجتمعات قد عرفته ظاهرة «**رجالية**» طاقمها التشخيصي، استمرارا، شبان وكهول من الذكور.

ولنا أن نستبشر بالزمن الحاضر الذي كتب الله لنا أن نحياه وقد أصبحت الدنيا قسمة سوية بين الرجل والمرأة، وأضحى التمثيل مشاعا بين آدم وحواء، فعمت من خلاله نوعية من المصداقية، مظهرا ومخبرا: على المسرح كما في السينما، وعبر الاذاعة كما في التلفزيون. ولنا أن نتمعن، ولو تمعنا عابرا؛ فيما عرفته غير ما بقعة من البقاع التي انتشر المسرح فيها قبل عصرنا هذا، لا سيما وقد حدث تقلد الرجال لأدوار النساء على المسرح حتى في أعظم عصور هذا الفن ازدهارا، بانجلترا مثلا، وعلى عهد عبقري المسرح الذي لم يجد الدهر بمثيل أو شبيه لما خلده، ونعني الشاعر الكبير **وليم شكسبير** (1564-1616).

ونحن العرب الذين لم نهتد فعليا إلى المسرح فنا وأدبا إلا انطلاقا من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، أي منذ نحو قرن

ونصف قرن، قد سلكنا نفس ذلك المسلك قبل الآن. وما كان حظنا في المغرب بأفضل مما عرفته بلدان مشرقية شقيقة، وما ينبئك في هذا الصدد مثل من خبر هذا الواقع، وعايشه، وقاسى بكل تواضع ومحبة جانبا من متاعبه في مطلع عودة السلام إلى المعمور على إثر الحرب العالمية الثانية... في أوائل الخمسينات من هذا القرن وحتى سنة أو سنتين قبلها...

خلفيات :

لكي يكون كلامنا مرتكزا على أساس ملحوظ، ومادمنا قد ألمحنا إلى العصر «**الشكسبيري**»، وهو أوجُ مُذَهّب في هذا المجال، تجدر الاشارة إلى أن الممثلين - الذكور - الذين كانوا متخصصين في القيام بأدوار الفتيات والسيدات على المسرح قد تميزوا شعبيا بمقام معلوم، ولا ندري بالتدقيق ماذا كان الجمهور يرى فيهم، لكن، كيفما كان شأنهم إذ ذاك، فقد أشير إليهم بالبنات. كان هناك، على سبيل المثال، ممثل مقتدر - ومستهتر ماجن في نفس الوقت - يسمى «**نيد فيلد**» امتاز في وقته امتيازا مرموقا في أداء أدوار الفتيات على المسرح الانجليزي، وكان الناس يتقاطرون من كل حدب وصوب على مشاهدته، علما بأنهم كانوا محيطين كل الإحاطة بأنه ولد وليس أنثى، ولكنه من بين معاصريه الممثلين كان مجرد مقلد، لكن بإتقان، لأدوار الفتاة في أشهر المسرحيات. وقد عاش عمر الزهور، من 1587 إلى 1620 م.

إن السعي - سواء في عهد وليم شكسبير أو بعد وفاته - قد ظل جادا في المسرح الانجليزي لتوفير النساء الممثلات، وظل البحث

قائما عنهن. ولكن، ومع كل الجهود المبذولة، بقي العنصر النسوي في ذلك المسرح أعز من بيض الأنوق... حتى قيل إن التاريخ لا يستذكر من أسماء ممثلات النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي - بانجلترا - إلا إثنتين، إحداهما كان اسمها «ماري كنيب» متوفاة سنة 1677 م - أما الثانية فقد فتنت بجمالها أهل عصرها، من القاعدة حتى الذروة، واسمها «نيل كويين» وقد عاشت من 1650 إلى 1687 م[1].

وتلك الظاهرة كانت بخلاف ما كان عليه شأن المسرح الفرنسي في نفس الفترة الزمنية على وجه التقريب، إن المسرح الفرنسي كان أسعد حظا وأوفر زادا، وازدهى بأعلى الكفاءات النسوية وأسماها قدرا وشهرة... وإن كان عبقري المسرح الفرنسي في كل الأجيال - **موليير** (1622-1673م) - قد دون عن بعضهن مستملحات ممتعة، مثلما قال عن أحداهن «**إنها كانت تحتفظ بوجه مشرق ضاحك حتى في تمثيلها أشد المواقف حزنا وألما، ومع ذلك كان الجمهور يحبها حبا جما، وظلت تشخص أدوار الفتاة الأولى حتى وهي في سن متقدمة من عمرها**»[2]. في تلك الفترة الزمنية بالذات - القرن السابع عشر الميلادي - تميز المسرح الكلاسيكي الفرنسي - وكان شعريا - بتألق ممثلات «**تراجيديات**» على أعلى الكفاءة الفنية والموهبة في أداء أدوار مسرح الشاعر راسين، ومسرح الشاعر **كورناي**، وغدون من الشهيرات في سجل المسرح، وأسماؤهن معروفة حتى الآن. وقد تخلدت بخلودهن الأدوار النسوية «**البطلة**» أو الشخصيات النسوية «**البطلة**» التي أدينها

على الركح بمقدرة تثير نشوة الإعجاب، ومن بينها شخصيات **«هرميون»**، و«**بيرينيس**» و«**روكسان**»، و«**أندروماك**»، و«**فيدر**» في مسرح **راسين**، فضلا عن شخصيات مسرح الشاعر **كورناي** النسوية: «**شيمين**»، و«**كاميى**»، و«**إيميلي**»، و«**بولين**»... فيما يرجع، في كلتا الحالتين، إلى الأدوار النسوية التراجيدية الكبرى، وفضلا، من جهة أخرى، عن مسرح **موليير**، ومنها: أدوار مسرحية «**المتحذلقات السخيفات**»، ومسرحية «**مدرسة النساء**»، وشخصية «**إيلمير**» في مسرحية «**طرتوف**» وشخصية «**ماريان**» في مسرحية «**البخيل**»... وأدوار مسرحية «**النساء العالمات**»... وما إلى هذه الشخصيات التمثيلية التي من خلالها - وبصفة مبكرة وفي الحالات جميعها - رسخت قدم المرأة في الأداء المسرحي، وبالتالي في المجتمع.

وفي المراجع المتوافرة في هذا الميدان ومن خلال المذكرات النقدية نجد متعة وأية متعة عما قدمته المرأة، بقطع النظر عن جنسيتها، إلى المسرح الانساني في شتى الأمصار والعصور، كما هو الأمر مثلا، بالنسبة للمسرح الألماني الذي ظل حتى اليوم يفتخر باسم السيدة «**كارولين**» التي عاشت سنة 1697 إلى سنة 1760 م، وكانت في مجاله أول مديرة لفرقة مسرحية كبرى وأعظم ممثلة في وقتها... وليست المتفردة بالذكر في ألمانيا، بل لها شبيهات...

ومن المعلوم من جهة أخرى، أن العصر الذهبي للمسرح الايطالي هو الفترة المتخللة بين أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن

السابع عشر للميلاد... وهو عصر له حظوة مميزة في تاريخ المسرح الأوروبي - **اللاتيني** - إلى درجة اعتباره مدرسة ونهجا لما آل إليه مسرح الكوميديا في فرنسا... وقد ازدهى بممثلات مقتدرات إتصفن في غالبيتهن بأنهن كن زوجات لأزواج هم أيضا كانوا ممثلين إلى جانبهن...

والملاحظ في المسرح الانجليزي أن القرن الثامن عشر الميلادي قد زخر زخورا ملحوظا بنوابغ الممثلات. واعتبارا لطابع المحافظة الذي يميز بصفة تقليدية المجتمع الانجليزي فقد شاع القيل والقال حينئذ حول النساء المشتغلات في المسرح على قلة عددهن حينئذ وهكذا مال الشعب ميلا شديدا، بالمحبة والعطف والتقدير، نحو ممثلة ظهرت أواخر القرن السابع عشر الميلادي اسمها « آن براصجيردل »، ليس فحسب بالنظر إلى عبقريتها وتدفق موهبتها، ولكن أيضا تقديرا لسيرتها الخلقية الحسنة وسلوكها السليم، وكانت حديث المجالس بهذا الخصوص. ولذلك فإنها لما اعتزلت المسرح مبكرا - « التزمت » كما يقال الآن - تألم الجمهور لغيابها، وتأسف القاصي والداني لانسحابها من ساحة الفن التمثيلي (توفيت سنة 1748 م)، لكن سرعان ما خلفتها ممثلة متميزة أخرى اسمها « آنا أولد فيلد » تجلت موهبتها في الملهاة والمأساة على حد سواء... ولم يعرف نجاحها توقفا ولا حدا، وتميزت بفصاحة اللسان وجمال القوام، وبالحزم والسلطان... وفي الفصل الذي خصصه كتاب « الممثلون الكبار » حول الممثلين الانجليز في القرن الثامن عشر الميلادي، رجالا ونساء[3]، نعثر على بيانات قيمة عن الممثلات النوابغ اللواتي خلفن، بوفرة عددهن وسمو عبقريتهن، ما عرفته الأعوام الخوالي من الشح في هذا المجال...

وذلك ما أفرغ على المسرح الموروث عن الشاعر وليام شكسبير حلة جديدة ورونقا أصيلا، وحببه أكثر فأكثر إلى الشعب الانجليزي الذي أمكنه، بفضل تفوق المرأة في الميدان المسرحي، أن يكتشف أجمل الروائع المسرحية الانسانية وأغناها.

ويروق للفرنسيين كثيرا التحدث عن ماضي نوابغهم من سيدات المسرح ـ وهن، والحق يقال، مرموقات فعلا ـ ولا يملون أبدا من ذكر الممثلتين الخالدتين **راشيل وساره بيرنارد** (القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للميلاد) لاسيما والنظام الاجتماعي والسياسي الذي تولد عن الثورة الفرنسية كان في واقعه نعمة على المسرح وعلى قيام «**الكوميدي فرانسيز**» (بإرادة الامبراطور **نابليون الأول**)، وعلى انتشار المسرح الشعبي الذي دعي «**مسرح البولفار**».

ولا نقول إن العشرات من الممثلات الفرنسيات المتميزات قد تألقن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، أو كان لهن جميعا صيت بعيد، ولكننا نقول، والواقع يؤيد، إن ما لا يقل عن عشر ممثلات مقتدرات قد سطع نجمهن إذ ذاك ـ فضلا عن النكرات والثانويات اللواتي لا يخلو زمان ولا مكان من وجودهن إلى جانب أمثالهن من الذكور ـ وقد تميز العطاء النسوي في المسرح الفرنسي بالخصوص على عهد ملك المسرح دون منازع ولا خلاف: الممثل الكبير والفنان المبدع «**طالما**» الذي عاش في فترة 1763-1826، وكان ذا حظوة واعتبار ومحبة لدى الامبراطور **نابليون الأول**... لقد كان شاغل الناس، وغطى وجوده أو كاد على كل من سواه من الممثلين والممثلات.

كان الفنان «طالما» نصير المسرح الكلاسيكي الرفيع، ممثلا ومخرجا وذواقة... وبذهابه خمدت جذوة هذا المسرح، وانتظر الناس منقذا لأمد محدود... وجاء ذلك المنقذ المنتظر، وظهر في شخص الممثلة الشابة «راشيل»، التي لم تعمر طويلا (1820-1858م)... وسرعان ما غدت الممثلة المتخصصة في أداء روائع الشاعرين : **راسين وكورناي.** وقد كتب الشاعر الرومانسي المبدع **ألفريد دي موسي** وصفا دقيقا حلل فيه «**التقنية**» الأصيلة التي اتبعتها هذه الفنانة بكل تلقائية، وبها أدركت، من حيث تدري أو لا تدري، نجاحها الباهر. (ومرارا وتكرارا عدت إلى ذلك الوصف الدقيق أقرأه وأعيد قراءته لأنه في عمقه «قاعدة» من أمتن القواعد في التعليم المسرحي والإلقاء التمثيلي بل في الالقاء بوجه عام وكيفما كانت اللغة المستعملة). وبفضل عبقرية الممثلة **راشيل** هذه، أمكن إذ ذاك، عرض مسرحية «**فيدر**» أربعا وسبعين مرة تباعا دون توقف، وهو أمر كان غير مألوف ففرضه فنها ونبوغها.

وهكذا أمكن امرأة أن تعلي في مجتمعها من شأن المسرح، كما أمكن المسرح أن يعلي من مقام امرأة.

وقد لا نكون في حاجة ماسة إلى الإستشهاد بالمرأة الممثلة المسرحية الفنانة الأخرى التي هي أرفع منزلة وشهرة، وسارت بذكرها الركبان، وظلت أعواما متتالية شاغلة الرأي العام داخل بلادها وخارجها وخضعت لفنها وعبقريتها «**الرقاب**»، واستقبلها الملوك والأمراء ورؤساء الدول استقبال الفاتحين الأبطال : إنها **ساره برنارد.**

... ولقد حظيت المرأة باعتبار وجيه في المسرح، وظهرت كفاءات نسوية متفوقة فيما بينها، وذلك في وقت لم تكن للناس فرجة أو وسيلة للفرجة إلا المسرح... لم تكن هناك سينما أو تلفزة ولا حتى إذاعة، فكان الفن المسرحي الوسيلة المتفردة لامتاع الناس والتسلية عنهم، وتجلت المرأة في المسرح وتجلى المسرح بفضلها. ومن حسن حظ أهل البلدان الأوروبية في القرون المتأخرة - كما كان الاغريق والرومان وقبلهم فئات من أهل آسيا في القرون المتقدمة - أنهم استمتعوا بهذا الفن الأدبي أو هذا الأدب الفني... وكان للمرأة دور وأي دور لابراز أدواره... فلم تكن البلدان الأوروبية التي أومأنا إليها المتميزة وحدها... ولم تكن **ساره برنارد** هي النجمة التي أضاءت وحدها سماء المسرح الفرنسي في وقتها (1844-1923)، ولكنها من حيث شخصيتها أكسبت المرأة الممثلة صفة لم تكن لصيقة بها، صفة الفنانة المتمردة على شتى الأوضاع التي كانت سائدة مجتمعيا إذ ذاك...إلى درجة يمكن معها القول إن المسرح في القرن التاسع عشر وجزء ملحوظ ومحدود من القرن العشرين للميلاد كان، في بلدان من أوروبا، مسرح نساء، ولولا المرأة ماكان صداه يتجاوز محيطه... فلقد انشغل الرأي العام الباريسي، مثلا، بنجمات المسرح المتجليات، سواء بمسرح «**الكوميدي فرانسيز**» أوبقاعات «**مسرح البولفار**».

المرأة في المسرح العربي :

من المعروف في المسرح، عند نشأته في أي من البلدان العربية، أن المرأة المسلمة قد أبطأت، نسبيا، في خوض غمار

ممارسته وتعاطيه، فكان **الذكور**، كما سبق القول، يقومون بأدوار **الاناث**. جرى هذا في بلدان المشرق (مصر، وسوريا، العراق، إلخ)، كما جرى في بلدان المغرب (تونس، الجزائر، والمغرب إلخ). ولما بدت الحركة المسرحية الناشئة هنا وهناك، وأخذت تجذب بعض العناصر النسوية إلى حلبتها، حدث أن الممثلات لم يكن جميعهن من المسلمات. لقد كانت المسيحيات وحتى بعض اليهوديات في طليعة من بادرن إلى اعتلاء الخشبة مع الرجال. وقيل إن الشاميات (من سوريا ولاسيما من لبنان) أقبلن على المسرح إقبالا ملحوظا لما أتيحت لهن فرص الظهور على ركحه.

والذين يحيطون علما بوضع نساء بلدان المشرق والمغرب عبر العصور التاريخية يعلمون جيدا تلك القيود المتعددة التي كانت تقيدهن اجتماعيا وتقليديا. ولما ظهر المسرح في المشرق، قبل المغرب، كن في وضع لا يسمح بتوفير العناصر النسوية التي من شأنها ولوج هذا الميدان.

لكن شاءت المقادير أن قيام الحركة المسرحية العربية اقترن فعلا بقيام الحركة التحريرية للمرأة في المشرق أولا وبالذات. وكان بعض الرجال الواعين عند منبلج القرن العشرين الميلادي، وحتى قبيله قد أخذوا يدعون إلى تعليم المرأة، و إكسابها حقوقا جديدة، وإفساح المجال الذي تستحقه في المجتمع (رفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك... ثم قاسم أمين، ومصطفى كامل). وسرعان ما التحقت بهذه الحركة بعض النساء الواعيات (صفية زغلول مثلا). وكان هذا النضال مشتد الأوار حتى قبل نشأة الاتحاد النسائي بمصر في العشرينات. وقبل تجليات هدى شعراوي ومثيلاتها مشرقا ومغربا.

ومما لاشك فيه أن الحركة النسوية، ولاسيما من حيث إلحاق المرأة بصفوف التعليم ـ بما فيه التعليم العالي ـ كان لها أثر وجيه في تطور النهضة الثقافية، والمسرح في مقدمتها، علما مؤكدا بأن الممثلات «الرائدات» في مصر كما في سواها من البلدان العربية لم يكن جميعهن من حاملات المؤهلات والدرجات العلمية. وقد ظل المستوى التعليمي المتواضع ملتصقا بزمرة كبيرة منهن أمدا مديدا، لأن المقياس في اختيارهن قد ظل لأعوام عديدة، مرتكزا على مايلي :

- **البحث عن المرأة – فتاة كانت أو سيدة – التي يمكن أن تقبل – أو تقبل أسرتها – عملها بالمسرح ، وكان هذا بمثابة توفير العملة الصعبة زمن الحرب!**
- **الانتباه فقط إلى إجادتها أو عدم إجادتها القراءة والكتابة... وبعض الممثلات العربيات الأوائل كن شبيهات بالأميات كما كان الشأن حتى في أوروبا من قبل (وراشيل المشار إليها آنفا مثال في هذا الصدد).**

وليس ولوج المرأة ميدان المسرح وحده هو الذي لقي اعتراضا من طرف قدماء المحافظين والمتشددين، بل إن ولوجها التعليم وجوانب من الحياة الاجتماعية المتحررة كان مثار غضبهم. وقد قيل إنهم في دمشق مثلا، لم يتقبلوا بالرضى حتى ظهور شخصيات تاريخية على المسرح، مثل شخصية الخليفة «**هارون الرشيد**»، والظرف كان إذ ذاك ظرف الحكم العثماني على بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين)، والمسرحية كانت هي القصة المسلية المعروفة في قصص «ألف ليلة وليلة» : «**أبو الحسن المغفل وهارون الرشيد**»... وحدث، من جهة أخرى، على إثر تشخيص موقف مسرحي ـ غرامي ـ بين رجل وامرأة (وهما معا كانا رجلين) أن اشتد غضب فئة من

المتفرجين، فسافر واحد منهم إلى العاصمة العثمانية الأستانة (استنبول)، وفي أعقاب صلاة الجمعة، والخليفة عبد الحميد هناك، صاح الرجل بأعلى صوته : «**أدركنا يا أمير المؤمنين، فإن الفجور قد تفشى في الشام، فتهتكت الأعراض، وديست الفضيلة، ووئد الشرف، واختلط النساء بالرجال!**»[4] فكان أن أمر عبد الحميد بمنع التمثيل في جميع الأقطار العثمانية. ومعلوم أن هذا الخليفة عاش من سنة 1842 إلى 1918. وكان حكمه قد انتهى في سنة 1908.

وهكذا فإن اختلاط النساء بالرجال، حتى في مكان الفرجة، لقي اعتراضا شديدا بالنظر إلى تقاليد ذلك الزمن، وهذا مع العلم بأن المحاولات المسرحية، الأولى للمسرح بالشام انطلقت في سنة 1847، كما أن القاهرة احتضنت أول **قاعة للمسرح** ـ بالأزبكية ـ سنة 1868،و أول دار للاوبرا خلال السنة الموالية أي في سنة 1869 وتخصصت هذه الدار في المسرح الغنائي الأجنبي أعواما متوالية.

أما الحركة المسرحية الرائدة بمصر فهي تلك التي حملها إليها الرجل النابغة المسمى يعقوب صنوع (1839-1913) ـ والذي عرف باسم «أبو نظارة». فقد كون فرقته في سنة 1870 من فتيان كان بعضهم يقومون بأدوار النساء قبل أن يعثر أبو نظارة على فتاتين فقيرتين فعلمهما الكتابة والقراءة بنفسه، وكان ظهورهما على المسرح «ثورة في الحياة الشرقية قوبلت بالسخط من المتزمتين، وبالتشجيع والحماس من المثقفين»[5]. والغريب أن المسرحية التي مثلها بعنوان : «**الضرتان**» حول تعدد الزوجات كانت سببا في

غضب الخديوي اسماعيل عليه" إذ رأى فيها خروجا على ما أباحته الشريعة...

وظهر، بمصر، رواد للمسرح العربي - أواخر القرن التاسع عشر للميلاد - كانت لهم **محاولات بدائية في** المسرح وأغلبهم كانوا من سوريا ولبنان... ويحتفظ التاريخ بأسماء بعضهم **(سليم النقاش، ويوسف الخياط، وسليمان القرداحي وأبو خليل القباني...)** أما ما تميزوا به فهو أنهم قد تمكنوا من البحث عن ممثلات كن من غير المصريات، وكن لاسيما من بلاد الشام لكنهن كن أقل من المبتدئات، إلا من رحم ربنا...

وشيئا فشيئا أخذت قواعد المسرح ترتكز على الصلب وتتقوى، وقيل إن الفترة التي شغلها في مصر الممثل المغني الرائد الشيخ **سلامة حجازي،** خاصة فيما بين 1905 و1912، كانت زاخرة بالمسرحيات القيمة. ولكن الفتيات والسيدات اللواتي تولين التمثيل والغناء على المسرح خلالها كن - **جميعهن** - من الواردات على مصر، من بلدان عربية أخرى، ومن غير المسلمات، وكن موهوبات فعلا وإن لم يتلقين مبادئ الفن مسبقا. وهذه أسماء بعضهن قد ندرك من خلالها انتماءاتهن : **المز استاتي، ووردة ميلان، ومريم سماط، وماثيل نجار، وابريز استاتي، ونطلي مزراحي، وصالحة قاصين،... ولبيبة مانيللي.**

وفيما يخص الأجنحة أو الجهة التي كانت محجوزة للنساء والباب الذي كان مخصصا لدخولهن يجدر التلميح إلى اهتمام الرأي العام حينئذ بهذه الظاهرة حفاظا على العرض والشرف.

وقد أوردت جريدة لذلك العهد، هي جريدة «**المؤيد**» ليوم الأحد 14 أكتوبر 1906 ـ بحسب ما أثبته صاحب «**تاريخ المسرح العربي**» ـ ملاحظة بشأن موقع الباب الذي كان مخصصا للسيدات فقالت هذه الجريدة من غير اللائق أن «**تدخل منه المخدرات من النساء، نظرا لما حوله من الحانات وبيوت الفجر**»، كما لاحظت الجريدة أن «**الخدم الذين يقومون بخدمة النساء هم من الرجال، وهذا لا يليق أبدا**»... وكل ذلك يؤكد لنا مدى «المحافظة» التي كان عليها المجتمع المصري إزاء مشاهدة الفن والتردد على قاعاته.

وقد سجل تاريخ المسرح العربي تقديرا وإشادة نحو الممثلة **مريم سماط**، لأنها كانت هي ساره برنارد بالنسبة للمشرق... وقامت بأقوى الشخصيات في المسرح العربي الرائد ومنها أدوار قيمة من المسرح التراجيدي العالمي مثل شخصية: «**ماري تيودور**» وشخصية «**مسيا**»، وشخصية «**الملكة أم هملت**»... ومثلت مع جورج أبيض مسرحية «**أوديب الملك**»... ومثلت دور «الساحرة» الذي مثلته «**ساره برنارد**»... وكانت مثقفة ثقافة متينة، وكتبت مذكراتها بنفسها ونشرتها لها جريدة «**الأهرام**» مسلسلة في سنة 1915 وتشكل هذه المذكرات وحدها تاريخ ربع قرن من الحركة المسرحية العربية... وتتحدث **مريم سماط** في بعضها عن «**غيرة الممثلات**» بعضهن من بعض، كما تشير إلى «إفراط الأوانس في تبرجهن ومغالاتهن في سفورهن و زينتهن مما كان يلقي الشك والريب في خلد الصالحين من الأدباء، ويوقع البشر والسرور في أفئدة ذوي القلوب المريضة من عشاق الغزل وفساق النظر!»(6)... وقد تبين من مذكراتها هذه سلامة طويتها ورفعة نفسيتها عندما

تتحدث عن إحدى منافستها وهي السيدة ميليا «فقد ظهرت مظهر الممثلة الأولى بعد أن علمها الأستاذ الشيخ سلامة سرا وعين لها مدرسا يعلمها على نفقته الخاصة، فأثمر فيها التمثيل، وكانت زهرة المسارح العربية، أقول ذلك، وإن كثر بيني وبينها الخلاف والتنافس»[7].

وتطور المسرح العربي الاول تدريجيا، وإنفتحت دار الاوبرا لبعض فرقه المحلية الرائدة، علما بأن المسرح المشرقي - بعكس المسرح المغربي - قد بدأ **احترافيا** بالرغم من فجاجة نشأته، فكان الممثلون و الممثلات منقطعين للعمل فيه والتعيش من دخله.

ثم تجلت في تلك الفترة المتخللة بين 1914 و1920، أي في زمن الحرب العالمية الاولى، ممثلات موهوبات كانت من بينهن **سارينا إبراهيم**، و**ماري كافوري** فضلا عن **ابريز استاتي** سالفة الذكر... ولعل المطربة المغنية الشهيرة «**منيرة المهدية**» كانت أول مصرية دما ولحما تعاطت اعتلاء المسرح في كثير من الشذو والطرب والمواويل، وقليل جدا من التمثيل والتشخيص،ولكنها اعتبرت أول ممثلة... أو هكذا قيل.

ومعلوم أن المرحلة المتقدمة للمسرح العربي، ولاسيما في مصر، انطلاقا من العشرينات، قد زخرت بالممثلات المقتدرات. إن المرأة العربية قد أثبتت مقدرتها وكفاءتها. ولم تذهب عبثا جهود عزيز عيد، ونجيب الريحاني، ويوسف وهبي، وزكي طليمات... ومن لف لفهم... لقد أنشأوا هرما جديدا إلى جانب أهرامات الكنانة

الفرعونية. وهذا واقع لا ينكر أبدا كيفما كانت مواقفنا من التجارب الميلودرامية والشبيهة بالعتيقة التي اقتفاها المشرق وتشبث بأذيالها أمدا مديدا.

وفي كتاب : «**ذكريات**» للمناضلة الشهيرة في دنيا المسرح وعالم الصحافة السيدة **فاطمة اليوسف**، والدة الصحافي الأديب **إحسان عبد القدوس** ومنشئة مجلة «**روز اليوسف**» على اسمها[8]، نعثر علي إشارات وتلميحات قيمة عن دور المرأة في المسرح العربي، وموقف هذا المسرح ورجاله من المرأة...

وإلى الآن يذكر الذاكرون مهارة **فاطمة اليوسف، وزينب صدقي، وفاطمة رشدي... وأمينة رزق!!**

على أن موقف المتشددين حتى من بين الحكام والوزراء ظل غير رحيم إزاء المسرح والمرأة في المسرح. وظهر هذا الموقف حتى في مطلع الثلاثينات وليس فقط في أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين للميلاد كما قد يظن. ففي سنة 1930، على سبيل المثال، أنشأت وزارة المعارف المصرية «**معهد التمثيل**» لتكوين الممثلين والممثلات وتدريبهم وتخريجهم. إلا أن أحد الوزراء - واسمه حلمي عيسى - سرعان ما أغلق هذا المعهد معللا قراره هذا بأنه «**يبيح الاختلاط، ويبذر بذور الفساد بين الجنسين**»[9]، فظل مغلقا حتى سنة 1944. وهذا الاجراء وحده كان مؤشرا ذا دلالات شتى!

لكن المسرح العربي، في مصر كما في سوريا ولبنان، وفي العراق كما في فلسطين والأردن، وفي العديد من البلدان العربية الشقيقة، خليجا ومغربا، قد استقطب النساء، متفرجات وممثلات استقطابا تاما في الأربعينات والخمسينات والستينات وما بعدها، وهذا الواقع ما زادته السينما والاذاعة والتلفزة إلا تألقا وبروزا وتمكينا.

المرأة في المغرب المسرحي :

نعم هكذا : «**في المغرب المسرحي**»، وليس فقط «**في المسرح المغربي**»، لأن الحركة المسرحية المغربية - وكذلك التونسية - هي في نظرنا امتداد أصيل للمسرح العربي، وامتداد متأصل عن المسرح العربي، وذلك قبل أن تستقل هذه الحركة وتصبح هي ذلك المسرح المغربي الابداعي المتطور الذي نهض في وقت من الأوقات نهضة سعيدة ملحوظة، وأخلد خلال فترات متقطعة إلى ما يشبه راحة اليقظان العليل أو العليل المستيقظ. والمرأة في المغرب المسرحي اليوم هي كائن موجود، وعنصر فعال، وأساس مكين، أخذا في العلم أن المظاهر التمثيلية الشعبية التي عرفها المغرب القديم - مثل فرجة «البساط» ومشتقاتها - كانت موقوفة على المبسطين الرجال.

وفي أواخر العشرينات وخلال الثلاثينات من القرن العشرين الميلادي تعرف المغاربة على المسرح العربي الحديث :

أولا : وافدا إليهم مع بعض الفنانين المصريين.

ثانيا : ممارسة فعلية من طرف الشبان المغاربة أبناء المدارس والواعين في مدن وجيهة مثل : الرباط، وسلا، وفاس، والدار

البيضاء وما إليها. ويبدو أن سنة 1927 قد سجلت انطلاقة صحيحة وجيدة للمسرح العربي بالمغرب وعلى يد الشبان المغاربة[10].

وإذا كان المسرحيون في محاولاتهم المبكرة القيمة والجادة، قد أسندوا إلى **الذكور** تشخيص الأدوار النسوية، فإن المغاربة عموما كانوا في المغرب شاهدوا، ويشاهدون، المرأة العربية على المسرح، وكثيرا ما أشادوا عالي الإشادة بكفاءتها في مسرحيات الفرق العربية الوافدة من المشرق. ولن ينس التاريخ الحفاوة التي أحاط المغاربة بها الفنانة المصرية **فاطمة رشدي** التي تخلد قدومها في سجل تاريخ الوعي الأدبي والفني للحركة الوطنية التحررية[11].

وكان المتفرجون المغاربة، أوائل الثلاثينات، قد ملوا من مشاهدة **الأولاد** في أدوار **البنات** على المسرح، حتى أن صحافيا في جريدة «**السعادة**» التي كانت تصدر بالرباط قال في مقال بتاريخ السبت 11 يونيو 1932 تعليقا على حفلات مسرحية مع فرقة **عزيز عيد وفاطمة رشدي** إن من مميزات مسرحهما وجود المرأة على المسرح «**حيث لا يستطيع أن يقوم بدور الأنوثة من الأدوار إلا الأنوثة نفسها بما وهب الله الفتاة من خصائص الرقة والدماثة والمرح والخفة والعذوبة والمقبولية**». إلا أن هذا الصحافي ـ المسكين ـ قد خاف على نفسه، دون شك، من ردة المتشددين إذ ذاك، فزاد قائلا، ومتناقضا مع نفسه، مرغما : «نحن لا ندعو إلى تشريك الأنثى في تمثيلنا...».

ومع كل ذلك، فإن دوام الحال كان أمرا محالا. نعم، إن بعض الممثلين المغاربة ـ الذكور ـ قد عرفوا في الثلاثينات وقبلها وبعدها

بنوع من الإجادة والإتقان في أداء الأدوار النسوية. وقد عرفت المرحوم **البشير العلج** - الصديق العزيز - فعرفت أنه من قبل - أي من قبل أن أعرفه - متخصصا متفوقا في تقمص الأدوار النسوية... وكذلك كان **التسولي**، و**إدريس بن مسعود** وآخرون هنا وهناك من المدن والحواضر المغربية : نفس الشأن كان في فاس وسلا وسواهما. وعندما اندمجت في الحركة المسرحية الوطنية بالرباط (سنة 1948) أذكر أن اثنين من أصدقائي فيها كان يجيدان أداء الأدوار النسوية على خشبة المسرح إجادة مثلى، وكان الجمهور - المتعود على المسرح - يجد متعة وأية متعة في التصفيق الحار لهما[12].

وإذا كان البشير العلج - قبل تعرفه على بوشعيب البيضاوي أكبر فنان تفوق في تقمص أدوار المرأة الشعبية في الدار البيضاء - وإذا كان الصديق الراحل الآخر الفنان عبد الواحد الشاوي قد تعبا معا، كل من جهته، تعبا شديدا - كما تعب غيرهما - في التمكن من إسناد الأدوار النسوية إلى نساء حقيقيات، فإن عذرهما في هذا الصدد، بوصفهما فنانين رائدين في ميدان الاحتراف كان عذرا مفهوما ومقبولا. وقد توفقا تارة، في ذلك المسعى، ولم يتوفقا تارة أخرى، إذ كان لابد حينئذ من مسايرة المجتمع، ولابد من انتظار نضج ثمار التعليم النسوي لاقتطافها... كانت المهمة صعبة... وقد واجهها كاتب هذا العرض في مطلع حياته المهنية وواجهته، وما كان بالامكان تخضيد أشواكها تدريجيا إلا بمساعدة وطنية صادقة، تحديا فعليا لظروف الحجر والحماية. وكان التوفيق من الله تعالى رغم اليفاعة وتواضع الحنكة... فكان منذ ذلك الوقت العزم الذي لا رجعة عنه سعيا إلى جعل المرأة المغربية تحترف العمل التمثيلي

في الوقت الذي كانت فيه الحركة المسرحية المغربية الهاوية قد عرفت نوعا من التوقف أو التردد على إثر ظروف الحرب العالمية الثانية.

لقد كان العزم في سنة 1949 على ذلك القرار، وكان أن أخذ المتحدث في مزاولة مسؤوليات إنشاء قسم البرامج التمثيلية للإذاعة المغربية وتشكيل فرقة التمثيل العربي للاذاعة والمسرح - وفيما بعد للتلفزيون كذلك - فقر ذلك العزم على أن تسند أدوار المرأة - دائما وأبدا - إلى المرأة، ولا تساهل في هذا المبدأ مهما كانت المصاعب، وبالتالي كان لابد من البحث عن فتيات مغربيات وتكوينهن وتدريبهن في وقت لم تكن في البلاد جهة متخصصة في هذا النوع من التعليم... وما كان يسيرا العثور على تلك العناصر النسوية، وكان أصعب من اكتشافهن إقناع ذويهن بالعمل في ميدان التمثيل ومعاشرة الرجال مهْنيا ولو من وراء المذياع، ولو متحجِّبات!!.

ويمكن سرد شتى الذكريات المغريات التي قد لا يصدقها أحد من القراء. فمن غير الممكن أن يتصوروا، فأحرى أن يصدقوا، أن هناك من الفتيات - المجلوبات إلى ميدان التمثيل الاذاعي - **من كن يمثلن أدوارهن أمام المذياع محجبات** بينما مهندس الصوت في «الكابين» يصيح محتجا على تشويه الصوت الوارد إليه عبر القماش «المغربل»... وكانت الواحدة تتمرن في الأستوديو أو تشخص مباشرة على الهواء بينما غير بعيد عنها يوجد «**ذو محرم**» : أبوها أو أخوها... وذلك كان شرطا مقبولا. إلا أن هذه

الحال لم تدم، وشيئا فشيئا أمكن جعل حد لذلك التخوف إن لم نقل لذلك التهور.

والآن، مع تباعد السنين، يبدو أن التدرب على تلوين الصوت، والارتخاء، وعدم الانقباض، والتدرب على التقمص وإجادة التنفس، فضلا عن التدرب على إجادة الالقاء في قراءة النصوص وتشخيصها، وفضلا كذلك عن التدرب على معرفة المزيد من قواعد اللغة العربية والتبحر فيها : أمر كان في التمثيل الاذاعي تمهيدا وأساسا للعمل المسرحي مع فارق مقايسة الصوت بين الوضعين والاحاطة بتقنيات التقمص المسرحي... فما أن مضت ثلاث سنوات بعد تشكيل فرقة التمثيل العربي بالرباط حتى غدا العمل المسرحي على الخشبة نشاطا مألوفا لدى سيداتها دون خدر ولا حجاب، وإنما في نطاق التحرر التام، فاكتسب المغرب عن هذا النهج المتأني أولى ممثلاته المحترفات، المنقطعات لهذا المجال.

وهنا تجدر الإشادة، للذكرى والتدبر، بالتعليم وحركته الوطنية ودعم الوطنيين والواعين بكل جديد في المجتمع. فنحن لم نجيء إلى فن التمثيل بالعناصر النسوية من الشارع، أو من بين غير الواعيات. فلقد أتينا بهن من التعليم العمومي ومن التعليم الوطني الحر على حد سواء... في الرباط كما في سلا... وفي الدار البيضاء كما في فاس وسواها... وكان التمسك بحسن السلوك مشجعا في هذا السبيل.

وعمليات انتقاء الممثلات - وحتى المذيعات - لم تكن سهلة من حيث المحافظة والإبقاء على من يقع عليهن الاختيار الأولي بعد

الجهود التي تصرف في البحث عنهن وفي إقناع ذويهن. فقد كان يحدث أن الفتاة التي تحظى مبدئيا بعونها يتبين، من خلال الممارسة، أنها غير متوافرة على الموهبة الفنية اللازمة، وليست لها المعدات الجبلية التي لابد منها مثل : الصوت المبلغ، والشعور النفاذ، والفهم السريع، والذكاء المناسب، والجرأة المسرحية، والقوة على مواجهة الجمهور، وبالتالي يتبين أنها عبء ثقيل حمله و«**متاع**» غير صالح! فكان السبيل إلى التخلص منها والحالة هذه عملية لا تقل جسامة عن عملية الاهتداء إليها... وكم من «**مطبات**» وقعنا فيها بهذا الخصوص، لاسيما والغيرة بين الفتيات والملامة التي قد تصدر عن بعض العائلات كلاهما مصدر عداء ما أحرى «**فاعل الخير**» بالبعاد عنه وتجنبه لاسيما في «**سوق النساء**»... ولكن الله سلمنا من كل وبال بهذا الصدد طيلة القيام بهذا «المشوار» على مدى نحو خمس عشرة سنة من تسيير الممثلين والممثلات والعمل على رأس فرقة التمثيل العربي للإذاعة والمسرح ثم التلفزيون، وهي فترة أمكن العبد لله أن يساهم خلالها، ما وسعته المساهمة، وبكل تواضع، في اكتشاف مواهب مسرحية نسوية وتدريبها، وتكوين جيل محبوب من سيدات الفن المسرحي المغربي، والعمل مع بعضهن والتعرف إلى أخريات... وإذا كان لابد في هذا العرض عن «المسرح... والمرأة» من الاشارة إلى أسماء، فإن الذاكرة «خوانة» ولا تستأمن. فتحية التقدير والإجلال إلى السيدات الفنانات اللواتي أثرين بعطائهن المسرح المغربي أعواما متوالية، وكثيرات منهن مستمرات في هذا العطاء بكل كفاءة ومقدرة وإبهار حتى اليوم، ولا إحصاء حصري في هذا المقام، ولا ترتيب في ذكر الأسماء، فما منهن إلا النجمات الساطعات : **حبيبة**

المذكوري، وأمينة رشيد، والثلاث اللواتي اسأثر المذياع بمواهبهن : **لطيفة الفاسي، وبديعة ريان، ولطيفة القاضي، ثم وفاء الهراوي، وفاطمة بن مزيان، وصفية بلعيد الزياني**... وقد كان من حظي أستاذا في مركز البحوث المسرحية بالرباط أن كانت **فاطمة الركراكي، ومليكة العماري** من بين تلميذاتي، كما أن الفنانة **نعيمة المشرقي** ظلت على الدوام قريبة قربا حميما من ميدان عملي ولاسيما لما أتيح لي في الستينات والسبعينات أن أكون مسؤولا عن إدارة التلفزة الوطنية حيث التعامل مع رجال الفن ونسائه أساسي ولا محيد عنه، وحيث لا يمكن التغافل مطلقا عن ذكر أسماء الفنانات : **الشعيبية العذراوي، وثريا جبران، وزهور المعمري، والباتول السباطي، وخديجة أسد، ولطيفة الصقلي، ورشيدة الحراق، ونزهة الركراكي، ونعيمة إلياس، وعائشة ساجد، وسعاد صابر، وزهور فليفلة، وأمينة بركات، وأمل التمار، ورشيدة مشنوع، وسلوى الجوهري، وماجدة بدر الدين، وماريا صادق...**

وفي ربيع سنة 1993 زارتني في مكتبي ممثلة مغربية كانت قد صالت على مسارح المغرب وجالت قديما، لكن إسمها، منذ زمن بعيد، قد غاب عن الساحة : خديجة جمال... فعادت بي الذاكرة، من خلال زيارتها، إلى ثلاثين سنة قد خلت في ميدان الحركة المسرحية يوم أن كانت فرقة المعمورة في أوج نشاطها... وتذكرت حتى فترة مطلع الخمسينات حينما اكتشف أخونا الأستاذ محمد التازي - السفير - ممثلة موفقة لفرقته الوطنية بالدار البيضاء. فرقة المنار. ولعل اسمها إذا لم تخني الذاكرة هو ربيعة بن عبد الله، بل وتذكرت أيضا لنفس الفترة تقريبا فرقة مسرح مدينة سلا مع

نجميها أحمد السفياني ومحمد بن عياد وممثلتهما موفورة الموهبة إذ ذاك، زهور الادريسي، وكذا فرقة التجديد المسرحي لمدينة الرباط مع نجميهما محمد الدغمي وعبد القادر بن سليمان وممثلتيهما. إلا أن التمييز لابد منه في هذا الصدد. فالهواية هي مثار هذه الذكرى الاستطرادية بينما ما يعنينا حقا هو المسرح المحترف، واللواتي أشرنا إليهن قبلا هن البعض فقط من سيداته. وإلا فإن ميدان الهواية فسيح عريض وبحر لا ساحل له.

وختاما، إن المغرب المسرحي معتز أيما اعتزاز بأولئك الممثلات المحترفات المقتدرات، فما منهن إلا نجمة تضيء أختها، وأملنا جميعا أن تتحقق النهضة المرجوة للحركة المسرحية بالمغرب حتى تكون الاستفادة منهن أوفر، فإن الكثيرين من أبناء الجيل الحالي وبناته لا يعرفونهن حق المعرفة.

(1) «الممثلون الكبار» تاليف فيليب فان تييغم، باريس 1960 ص 15.
(2) يعني الأنسة بوشاطو التي عاشت من 1615 حتى 1683 م أي بعده بعشرة أعوام... المصدر السابق ص 18.
(3) الفصل الثامن، ص 8، المصدر السابق.
(4) «تاريخ المسرح العربي» تاليف فؤاد رشيد القاهرة 1960 ص 16.
(5) المرجع السابق، ص 21.
(6) جريدة «الأهرام» الخميس أغسطس 1915 والمرجع السابق ص 47.
(7) جريدة «الأهرام» 12 سبتمبر 1915 والمرجع السابق ص 52.
(8) «ذكريات» فاطمة اليوسف ـ كتاب روز اليوسف ـ القاهرة 1953.
(9) «ازدهار وسقوط المسرح المصري»، فاروق عبدالقادر، دمشق 1983 (منشورات وزارة الشؤون الثقافية) ص 54 بالهامش.
(10) كتاب «فجر المسرح العربي بالمغرب»، من تاليف عبد الله شقرون، والصادر سنة 1988 بتونس، يؤرخ للحركة المسرحية بالمغرب من ميلادها ومنبعها حتى سنة 1956.
(11) انظر تفصيلا مدققا من ص 93 إلى 111 لكتاب «المسرح العربي بالمغرب» المومأ إليه.
(12) يرحم الله أخي عبد الحميد حساني، أحدهما، وأطال عمر أخي ادريس الزياني ثانيهما.

صورة المرأة في الخطاب المسرحي التقريري

فاطمة شبشوب(*)

I ـ مميزات الخطاب المسرحي التقريري :

يقول ابن منظور عن الاعرابي «القَرُّ: ترديدك الكلام في **أذن الابكم**(**) حتى يفهمه»(1) وعن شمر يقول: «قَرَرْتُ الكلام في أذنه أقُرُّه قَرّاً وهو أن تضع فاك على أذنه **فتجهر بكلامك كما يُفعل بالأصم**»(2).

نلاحظ في هذا التعريف التركيز على أربعة عناصر يتم بها التواصل بين مرسل ومرسل إليه متميزين :

مرسل	فم	أذن	مرسل إليه
متكلم كالأصم	كلام	قرار	مستمع كالأبكم

وإذا ما اعتبرنا أن القرار هو «ماقر فيه الماء»، «ومن الأرض : المطمئن المستقر»(3) فإن الفعل الذي يتم في عملية التواصل بين المرسل والمرسل إليه هو فعل «التقرير بالشيء : جعله في قراره»(4) حيث يقر ويطمئن. من هنا تأخذ عملية التقرير معنيين:
ـ معنى فزيولوجي يتمثل في التقرير بالكلام عن طريق ذبذبات قوية توصله إلى الأذن.

(*) أستاذة بكلية الآداب مكناس.

– ومعنى أيديولوجي يتمثل في التقرير بالصورة عن طريق العبارات الجاهزة والتلوينات المألوفة في الحركة وفي الكلام توصلها إلى الذهن. وبعبارة أخرى إن عملية التقرير تصبح ذات طابع صاخب لا تحتمل الهمس ولا الصمت، كما أنها لا تحتمل بلاغة جديدة ولا تصويرا غريبا. لذا يمكن اعتبار أهم مميزات الخطاب المسرحي التقريري هي :

1) اعتبار المتفرج أبكما (محذوف النطق) ولذلك فهو لا ينتظر منه سؤال ولا تساؤل ولا تعليق. إنه مجرد أذن يقر فيها الكلام الذي يصاغ في هيأة نص خطابي حين يبتغي التأثير الأيديلوجي أو نص تهريجي حين يروم التأثير النفسي (كالإضحاك أو إثارة الشفقة).

2) وما دام المتفرج في اعتبار هذا الخطاب أبكما، فإن جميع حواسه تعتبر معوقة بالأساس. لذلك تكون فرجة هذا المسرح عبارة عن برنامج تمثيلي إذاعي يختزل كل جمالياته في الإلقاء الصوتي (الذي قد يتلون هو أيضا بالرتابة والجفاف). وهكذا يظل المخرج والممثل حائرين بين شتى التيارات الفنية دون القدرة على هضمها والإستفادة منها.

3) انطلاقه من صورة رسمية يتخذها قرارا له في عملية التقرير من حيث هي عملية تواصلية وحيدة لدى أصحابه. لذلك يصبح الخطاب المسرحي التقريري عبارة عن مرآة تعكس واقعا معينا يعشش في ثنايا المنطق الرسمي المحدد للصورة المجردة للأشياء وللانسان بدل أن يعكس الواقع الذي يعيشه المجتمع فعلا ولا يفتأ يفعل في تصوره ويغيره.

ولقد اتخذ هذا الخطاب لنفسه شكلين : تقريري وصفي وتقريري رومانسي.

فأما الخطاب المسرحي التقريري الوصفي فإنه يكاد يشبه الرسوم البدائية التي تعرف عند الشعيبية وأمثالها من الرسامين الذين يتميزون بحفاظهم على الألوان في شكلها الخام وعلى الرموز المألوفة جدا لدى مجتمع معين، مما يضفي على رسومهم غرابة مزعجة. ويدخل ضمن هذا الخطاب جل تمثيليات البدوي، وكل تمثيليات الخلفي، والزروالي، وموهوب، والبصري، وعبد الرؤوف وكثير من أعمال عبد السلام الشرايبي الذي اخترنا له تمثيلية الحراز.

وأما الخطاب المسرحي التقريري الرومانسي فإنه يتميز عن الأول بكون المؤلف يحاول التعامل مع التلوينات النفسية، خاصة، تعاملا فنيا شاعريا يضفي على التمثيلية طابعا رومانسيا لاحتدام المشاعر واصطدام الأهداف وتوهج العواطف وقساوة القرارات وهذا ما يلاحظ في معظم تمثيليات عبد الله شقرون، وابراهيم الوزاني وكثير من أعمال أحمد الطيب العلج وكل أعمال علال الهاشمي الخياري الذي اخترنا له تمثيلية : ربة شاعر.

II ـ صورة المرأة في الخطاب التقريري

تمثيلية «الحراز» لعبد السلام الشرايبي

1) قصة التمثيلية :

«الحراز» تمثيلية من تاليف عبد السلام الشرايبي المراكشي أصلا، البيضاوي دارا. ألفها في غضون سنة 1963 مباشرة بعد أن

أخذت ضجة تمثيلية «الشرع عطانا ربعة»[5] تخمد لتصمت بالمرة.
ولقد استقى الشرايبي موضوع تمثيليته من قصيدة الحراز للشاعر ابن علي وهي حسب تصريح الكاتب «أضعف القصائد التي نظمت في الحراز»[6] وتحكي القصيدة قصة عاشق تعلق بامرأة جميلة حجبها عنه رجل كهل طمع فيها لنفسه، فحاول العاشق حيلا كثيرة للقاء حبيبته متنكرا مرة في هيأة ولي صالح، ومرة في هيأة قاض، ومرات في هيآت مختلفة. ولكن الحراز كان يكشف عن كل تنكراته، ويطرده شر طردة، وفي الأخير تتظاهر الحبيبة بمرض شديد، فيأتيه العاشق في هيأة فقيه حكيم، وتنطلي الحيلة على الحراز، ويتم اللقاء في بيته حيث يغنم العاشق لذة الوصال.

ولقد لقيت التمثيلية إقبالا كبيرا بفضل التقنيات التي أدخلها عليها الطيب الصديقي عندما أعدها للعرض. فكانت بذلك قد جمعت بين كتابة نصية تقليدية، وكتابة ركحية حديثة. ولسنا ندري كم كان عدد عروضها داخل المغرب وخارجه، ولكن المؤكد، أنها قدمت في التلفزة المغربية وحصلت على إعجاب نظارتها. وطبعت سنة 1981 بدار الستوكي بالرباط.

وعندما سألنا الشرايبي عن سر اختياره لموضوع قصيدة الحراز في تلك الفترة بالضبط، أجاب: «لقد ألفت مسرحية الحراز سنة 1968، وفي تلك الفترة كان الانسان العربي قد أصبح يطرح حول نفسه تساؤلات عديدة لما واجهته أحداث سياسية وإجتماعية مختلفة. في تلك الفترة إذن كتبت الحراز وضمنتها أحداثا كثيرة تبدو لنا حيلا باسم المسرحية. ولقد بينت كيف ان الرجل حاول

طرقا ووسائل متعددة ومع ذالك لم يفلح حتى تدخلت المرأةبتعقلها وثباتها »(7).

الظاهر إذن، أن الشرايبي يربط التمثيلية بالاحداث العربية، ويعطيها أبعادا سياسية، فتصبح عويشة في رأيه «ذلك الشيء الذي يحلم كل عربي بالوصول إليه : الحرية » وفي الوقت نفسه ترمز إلى« الأمة العربية المحاصرة التي لايمكن أن يفك الحصار عنها إلا إذا هي قامت بتدبير شؤونها بنفسها وبالرجوع إلى العقل والأصالة العربية ».ولما تعجبنا من تجمع كل هذه الرموز ـ على اختلاف مادتها وتركيبها ـ في شخصية « عويشة » أجاب الشرايبي :« هذا شرف للمرأة في نظري أن تجتمع فيها كل هذه « الاوصاف » على عكس الرجل. إن المرأة في حد ذاتها سر رباني لها قوة لايشعر بها إلا الرجل، ولكن المرأة تجهلها فتحط من قيمة ذاتها بنفسها »(8).

إن التمثيلية إذن – حسب قول صاحبها – تستجيب لظروف تاريخية سياسية معينة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكاتب لم يربط خلال حواره معنا بين التمثيلية وظروف المرأة المغربية ولا حتى العربية . ربما لأنه يعلم جيدا أن مسألة الحجبة و« التحراز » قد تجووزت بعقود كثيرة (على الأقل في المدن الكبرى، وبعض المدن الصغرى أو القرى المجاورة لها وأن القصيدة الملحونية في حالها الراهن لم تعد تعبيرا عن الواقع بقدر ما أصبحت نوعا من التراث الفني المغربي القديم. فكيف قدم الشرايبي صورة المرأة في هذه التمثيلية ؟

2) ملخص التمثيلية :

تحكي التمثيلية قصة عويشة ومحمود اللذين تحابا منذ الصغر، ويوم مات أب عويشة، فوجيء عمها عثمان بوصية أخيه التي يشترط فيها أن لا يتم توزيع الارث إلا بعد زواج عويشة. لذلك، حاول عثمان التخلص من عويشة بتزويجها من الحراز مقابل أن يتنازل هذا عن الارث . وتنتقل من بيت أبيها مع خادمتها فاطمة إلى بيت الحراز الكهل الذي يجهل الوصية ، لكن محموداً وأصدقاءه ، وعلى رأسهم عبد الله، يصممون على انتزاع عويشة من بين يدي الحراز الذي كان يقف بالمرصاد لكل حيلة . ورغم مساعدة فاطمة لعاشقها عبد الله في مهمته ، باءت كل المحاولات بالفشل .لذلك .قرر عبد اللّه عزل الحراز عن أصدقائه بما فيه عثمان حتى يصبح أسهل للاقتناص .لكن ذلك لم يزد الحراز إلا تعلقا بعويشة إلى حد التعجيل بالزواج منها. عندها اشتدت مصيبة محمود. ورغم انضمام عثمان إلى صفه،لم يزد إلا يأسا، فصار لا يدري كيف ينقذ حبيبته .غيرأن عويشة استطاعت في تلك الأثناء إيجاد الحيلة الناجحة :هي أن تهرب فاطمة لتشغل الحراز بالبحث عنها. وما أن يغيب الحراز حتى يأتي عبد اللّه متنكرا في زيه ليأمر الحارسين بالذهاب ـ عوضه ـ للبحث عنها. فيخلو الجو، ويختطف محمود حبيبته. وحين عاد الحراز مرة أخرى اكتشف اللعبة، ثم ظل يناجي نفسه حول الغدر والثقة.

3) البنيات المكونة لشخصية المرأة في التمثيلية :

أ ـ البنية الخارجية : لقد اختار الشرايبي للتمثيلية جوا غنائيا يساعده كثيرا على وصف شخصياته النسوية بدقة وتفصيل.

ـ **عويشة** : فتاة يتيمة الأبوين، رهينة وصاية عم طماع. ويبدو من تصرف هذا معها أنها ماتزال صغيرة السن (مراهقة)، وهي تتمتع بجمال يجعلها «زينة البدور» ويجعل الحراز يناديها : «طلي علي يا عويشة بسود شفارك وسكريني بدون مدام، ما فاز حد بزينك يا بنت الكرام ولا نظر خوه حتى فمنامه». إنها مثال «الزين العربي»: شهية مثل «البطيخ البلدي»، ولذيذة كـ«اللحمة بين السنان» (!). ذات جلال وهيبة مثل «اللبية»، ومنورة كـ«القمر». وبكلمة، إنها «راحة القلب» بالنسبة إلى محمود ،و«راحة العقل» بالنسبة إلى الحراز.

ـ **فاطمة** : خادمة عويشة .يقدم لها الكاتب صورتين مختلفتين :فهي في نظر عاشقها عبد الله «الريم فاطمة» و«الغزال الشارد»، بحيث «مللي نظرت جمالها طار عقلي وتغير حالي».وهي أيضاً ترى نفسها «زوينة» و«صغيورة ،قسيبر فسليلة ».لكنها في جانب آخر قليلة الحياء «وهي عندها بعده الوجه علاش تحشم ؟ »، كما أنها كثيرة الحيل و الشيطنة «هديك الجنية ديال فاطمة »، وكثيرة الدهاء «وطرني ماسهالة أفاطمة ،ضبعت جوج تالرجال كل واحد منهم يصارع سبع» إلى درجة مخيفة جعلت عبد الله ، رغم حبه يتخوف منها :«بحركم ما ليه قياس ، حارت فيه الناس، شحال غرق من ناس... ياك ما يغرق بي ؟ فاذا كان هذا حال عبد الله الداهية الماكر، فلا عجب أن تعتبر فاطمة عقابا لزحروق الخادم «أنا أسيدي إلى باقي نعست زوجني كاع بفاطمة». لهذا فهي تبدو للخائف منها دميمة مثيرة للسخرية «فاطمة تبارك الله مجردة والسر عليها، شعرها ما غطى حتى ودنيها».

ب ـ البنية الفعلية : لم يزد الكاتب في هذه التمثيلية عن أنه أفرغ قصة بسيطة الحدث في قالب بسيط الهندسة. لذلك جاءت الحركات الدرامية في التمثيلية قليلة الأبعاد وسطحية إلى حد الافتعال، بحيث يمكن حصر كل أفعال الشخصيات (ذكورية ونسوية) في خانتين : خانة الحب وما يتعلق به من شكوى، وحنين ومغازلة، ولقد خصص لها الكاتب بدايات الفصول الخمسة، ونهاية الفصل الخامس (خاص بالحراز)، وخانة الحيل وما يدخل فيها من تخطيط، وتدبير، وتنفيذ من أجل تحقيق غاية واحدة : سعادة محمود بعويشة.

وعند النظر في هذه التمثيلية نجد المرأة قد ساهمت بقدر كبير في الخانتين معا إلى جانب الشخصيات الأخرى. وحتى يبرز ذلك بوضوح، سنخصص علامة 0 لخانة الحب وعلامة x لخانة الحيل لنرى حظ الشخصيات من كل خانة في هذا الجدول.

الفصل / الشخصية	I	II	III	IV	V
التهامي والعربي	x	x	x	x	
عبد الله		x-0		x	x
محمود	0	x	x-0	x-0	x-0
فاطمة		x	x	x	x
عويشة	0			x	x
الحراز				x	0

فكيف تتجلى البنية الفعلية لعويشة وفاطمة انطلاقا من هذا الجدول؟ إنها على ما يبدو واحدة في خطها الرئيسي سواء من حيث الإرسال أو من حيث التلقي. ليس هناك إلا بعض اختلافات وليدة التمييز الطبقي الذي يميز عويشة عن خادمتها فاطمة.

ولهذا، يمكن تقسيم إرسالهما إلى أفعال «طبيعية» تعود إلى طبيعة المرأة بصفتها أنثى، وأفعال مكتسبة من الوضع المجتمعي الذي تعيشه الشخصية. كما يمكن تقسيم تلقيهما إلى معاملات «منطقية»، وأخرى مبالغ فيها حسب نوع المتلقية ومصدر الفعل.

■ مادة الارسال :

+ الأفعال «الطبيعية» : وتنحصر في فعل التحايل، ذلك لأن من طبيعة المرأة حسب تفكير الشرايبي «عدم المواجهة بالقوة والعنف»[9] فلقد خلقت «ضعيفة من ضلع أعوج»[10]. لذلك، فهي «لا تحسن إلا التلوي كالأفعى والتلون كالحرباء». وسواء كانت مراهقة أو مسنة، سيدة أو خادمة، محجوبة أو لا، فإنها تنجح دائما في حيلها على عكس الرجل الذي لا يعرف كيف يسدد ضرباته، فتأتي حيله مكشوفة سخيفة. ولقد رأينا كيف وزعت الحيل على الشخصيات، بحيث لم تقم عويشة إلا بحيلتين : عندما تظاهرت بصد عمها وتعلقها بالحراز، وعندما تمارضت بدعوى أن عمها وتر أعصابها باقتراحه عليها الهروب من دار الحراز .. أما فاطمة فقد قامت بخمس حيل :

1 - حين كانت تحدث عبد الله المتنكر في زي عثمان لتشكيك الحراز في صداقته.

2 - وحين توصلت برسالة محمود.

3 - ثم وهي ترد الجواب أمام مرأى ومسمع من الخادمين اللذين كانا يحرسانها،

4 - وحين أقنعت زحروق ومحروق برغبة الحراز في عدم تزويجهما حتى يظلا في خدمته.

5 - وأخيرا حين اقترحت عليهما الهروب مبتدئة بنفسها.

وهكذا قامت المرأتان بسبع حيل فقط كانت أكثر فعالية من حيل المجموعة الذكورية، لأنها كانت في حاجة إلى الإتقان، والروية، والتنسيق، إذ يبدو أن المجموعة لم تكن تنسق فيها بينها مثل ما حدث لما سقطت عويشة «صريعة» نوبة عصبية مفتعلة، وكان الحراز في أمس الحاجة لمن «يصرع جنها» فأتى العربي والتهامي في هيأة فقيهين قادرين على الصرع قبل أن يرسل الحراز في طلب أي فقيه حتى إنه تعجب من سرعة الاستجابة : العجب ! اشكون علم هادو بللي عويشة طايحة بلرياح؟ ». وقد كادت الحيلة أن تنطلي عليه لولا التحاق محمود وباقي جماعته في فرقة كناوية.

إن فشل حيل محمود (وهي أربع) وحيل التهامي والعربي (وهي أربع كذلك) وحيل عبد الله ليس طعنا في ذكاء الرجل ولا في فحولته، بقدر ماهو تأكيد لقدرة المرأة على النجاح حيث يفشل الرجل، أي النجاح في ميدان الخبث، والتمويه، والتمثيل، وهو ميدان لا يفلح فيه من تعود الصدق، والاعتماد على النفس. وبعبارة أخرى أنه ميدان «خاص» بالمرأة التي «جبلت على الكذب، والتلون، والتخابث» لأنها أنثى.

+ الأفعال المكتسبة : وتنقسم إلى أفعال سادة وأفعال خدم.

ـ فأفعال السادة تنحصر في التخطيط وتوزيع الأوامر، وقد مارستها عويشة على فاطمة والحراز، كما مارستها فاطمة على الخادمين زحروق ومحروق. وهكذا تبدو عويشة هي المخطط الرئيسي لتحركات الشخصيات الأخرى حيث كانت حاضرة رغم اختفائها.

- افعال الخدم التي اختصت بها فاطمة لوحدها : وتتجلى في تفهم سيدتها ومواساتها : «مالك ألالا غير مكدرة؟ وحاملة هم الدنيا؟... من نهار جابنا عمي عثمان لهذا المكان وأنت عقلك مخطوف... فرجي على قلبك، ولوحي عنك لهموم، ولحمل اللي تقال عليك... ضربيه لراسي»[11] انها، لشدة تفهمها لسيدتها، أصبحت دراعها الأيمن ومساعدها الوحيد، بل اصبحت «هي ساروت القفل باش مسدود قلب عويشة»[12] تتحكم فيه وفي عواطف سيدتها. وهذا ما يعلل قيمة فاطمة في الحدث. إنها تشبه تماما الخادمة المولييرية في «الدجال» وفي «ولي الله»، حيث تكون كل خيوط الحدث بين أصابعها تحركها حسب رغباتها التي هي أصلا رغبات الأسياد وان ابدوا معارضة أو تصلبا في البداية. غير أن هذا الوضع لم يكن كافيا لكي تشعر فاطمة بالاطمئنان، لذلك، كانت متوثبة في كل لحظة للدفاع عن نفسها بكل ما أوتيت من ذكاء وسلاطة لسان.

انها في موقف ضعف (خادمة) رغم ما تبديه من قوة (تدبير). والذي يكون في موقف ضعف يكون عادة شديد الحساسية. متأهبا للرد على ما يستوجبه من عنف وضرر. لذلك، نجد فاطمة لا تتوانى عن ترديد جمل مثل : «يشوين فيك» أو «فاطمة غير شايطة ليكم» أو «ايو زوينة!» أو «اشنا هو؟ هذا هو الجزاء ديالي؟» وقد تعلن عن غضبها مهددة باضرابها عن التعامل الطيب (فصل III).

■ مادة التلقي :

+ المعاملات المنطقية : لقد بينت التمثيلية بوضوح بأن المرأة، عموما، تكون في حاجة دائمة إلى من يتغزل بها. ولذلك، كانت

معظم الشخصيات الذكورية لا تكل من التغزل بعويشة وبفاطمة سواء كان الغرض الخلفي وصالا أو مجرد «تلطف» ومجاملة تقتضيها الأعراف البرجوازية في المغرب. والغريب، أن جميع من تغزلوا بالمرأتين (محمود، الحراز، عبد الله، زحروق، محروق) اتفقوا على معجم خاص نصنفه كما يلي :

أعضاء جسدية	حيوان	نبات وفواكه	أطعمة	أشياء مادية	أشياء ذهنية
شفة قرفية سود لشفار سود لنجال سابغ سوالف نهود	لبية لغزال الشارد خناري الريم غزالي بودلال عوارم	البطيخ البلدي التفاح الحباري التفاحة الطايبة قزبير فسليلة	اللحمة بين السنان الدخيرة بين الضروس قشور الهندية : (طعام البقر) العضام : (طعام الكلاب)	القمر زينة البدور ضيا لصباح العنبر صوارم مراشف	راحة القلب راحة العقل الزين العربي بنت الكرام الباهية الداهية

نلاحظ إذن أن ريشة المتغزل تقف عند صدر المرأة، ووجهها، وشعرها[13] ليؤلف باقي جسدها من حيوانات[14] ونباتات وأشياء مادية مختلفة، ثم يضفي عليها من ذهنه نكهة أطعمة يعلمها أو يتخيلها، ليجعل الصورة في إطار هلامي من مقاييس جمالية عربية مائعة. من هنا ندرك سر تعامل الرجال مع المرأة في التمثيلية بـ «لطف» لأنها في اعتبارهم «تحفة». طيبة للاستهلاك، وقابلة للعبادة كالآلهة التي تصنع من الحلوى فتعبد نهارا وتؤكل ليلا.

ومن المعاملات المنطقية أيضا الحذر وعدم الثقة في المرأة لأنها «خبيثة بطبعها»، وشديدة الدهاء، كثيرة الحيل. لذلك، يجب

التعامل معها بحذر شديد. ولقد عبرت الشخصيات الذكورية عن هذا الحذر من المرأة عموما غير ما مرة. نذكر منها مثلا قول الحراز في عويشة :

- الحراز : هاك على حروب النسا... عاملة راسها ما سمعت والو وهي كانت مدلية ودنيها حتى لكعابها » (فصل I).

وقول عبد الله في فاطمة :

- عبد الله : وطرني ما ساهلة أفاطمة... ضبعتي جوج ترجال كل واحد منهم يصارع سبع. بحركم ماليه قياس، حارت فيه الرياس، شحال غرق من ناس... ياك ما يغرق بي؟ (فصل IV).

+ أما المعاملات المبالغ فيها، فإنها اختلفت باختلاف وضع المرأة المفعول. فالسيدة مثلا تعرضت لمعاملتين مشينتين تماما. الأولى حين استعملها عمها كمادة للمقايضة مع الحراز مقابل كل ما جاء في الوصية : « عثمان : ما كنطلبكشاي ا الحراز... كنشرط عليك، ما نزوجك بعويشة حتى تنازل لي على كل ما فلوصية » (فصل III). وهذه معاملة مبالغ فيها لأنها تريد التعبير عن طمع لا محدود، وجشع شديد لا يفرق بين حبيبين فقط، بل ويفرق بين سيدة ووضعيتها كما يعاملها معاملة الجواري.

والثانية، تتجلي في صراع الحراز ومحمود على تملكها والاستحواذ عليها. واللهفة، والغيرة، وكل ما يفرزه النسق البدوي من عواطف مريضة. والثاني، يحاول خطفها كالصقر (على طريقة الفرسان في القرون الغابرة) غير يائس في فشل محاولاته. أما

الخادمة، فإنها تعامل بسخرية وتهكم رغم قوة دفاعها وأهمية دورها. بل انها تتلقى كل التهكم الذي كان من المفروض أن تشاركها فيه سيدتها بصفتها امرأة. لكنها خادمة، وهذا يكفي لان تقي سيدتها كل الضرر. وينصب هذا التهكم بالخصوص على الجانب الجسدي لأنه ـ حسب الكاتب ـ هو أضعف نقطة تمس فيها المرأة. مع أننا منذ قليل رأينا الشخصيات الذكورية يتملقون المرأة بواسطة الجسد نفسه. إلى جانب هذا، تتلقى الخادمة أوامر كل من هو أعلى منها مرتبة كالحراز، وعويشة، وعبد الله صديق محمود، بل وحتى من زخروق ومحروق عندما يتكلمان باسم المجتمع الذي يمنع على المرأة الخروج من البيت. أما حينما يتكلمان بصوتهما، (صوت الخادم الذكر) فانهما يكونان أضعف منها وأكثر قابلية لأوامرها. إن الشرايبي في عرضه لهذا التمزق الذي يعيشه الخادم في مسرحيته لا يخرج عما هو شائع في المسرح المغربي، ولعل هذا يستحق وقفة تأمل جدية، ومسؤولية قد تساعد على فهم بنية العقل المغربي من خلال ابداع أصحابه، ومن خلال معاملاتهم اليومية.

ج ـ البنية النفسية: ماذا بامكان شخصية نمطية موضوعة في اطار تقليدي بسيط أن تعاني، خصوصا إذا كانت تمثل فتاة مراهقة معزولة عن الحياة؟ ان عويشة لا تعاني من المقايضة التي مارسها عمها عليها بقدر ما تعاني من فراق حبيبها الذي ألفته منذ الصغر فهي تزداد سقما وتحولا ليس من الغضب لكرامتها كانسانة تختزل في عملة تجارية، ولكن من الحزن والأسى لفراقها عن محبوبها الذي يفشل في اختطافها.

أما فاطمة، فانها لا تعاني بالمرة. انها لا تعاني من الحب الا بما يسمح لها وضع الخادمة، ولا تعاني من الفراق ما دام حبيبها عبد الله (الذي يقوم هنا بدور الخادم الموليـيري) قريبا منها يتلون واياها في تدبير الحيل، ولا تعاني من «أي ظلم» لأنها في النهاية تستطيع الدفاع عن نفسها وأخذ حقها بالكامل.

وخلاصة القول، ان الشرايبي قد أمدنا بصورتين متكاملتين للمرأة : المراهقة الجميلة التي تستحق الحب لجمالها، ولأصلها الكريم، وثرائها الكبير. والمرأة الشابة المليحة التي تستحق الحب، والمداعبة، بل والاعجاب أحيانا لذكائها وقوتها وشطارتها. غير أن المرأتين معا لا تخرجان من صنف الأنثى الخبيثة، ذات ألف وجه ولون، والتي لا تفي بوعد إلا للذي تريده هي. وهذا حسب ما يستشف من التمثيلية يبدو عيبا لأن الذي يجب أن يريد ويحقق إرادته هو الرجل لا المرأة.

III ـ صورة المرأة في الخطاب الرومانسي.

تمثيلية «ربة شاعر»[15] لعلال الهاشمي الخياري :

1) قصة التمثيلية :

إنه من المرجح جدا أن هذه التمثيلية التي ألفت سنة 1952 سابقة لتمثيلية «حسناء الأندلس» التي ألفها ابراهيم الوزاني، لأن هذا كان قد بدأ بالاقتباس، ولم يتعاط التأليف الا بعد التحاقه بالاذاعة (1959) مخرجا ومنتجا. ودليلنا في ذلك إشارات الاخراج التي تدل على أن التمثيلية وضعت أساسا للتمثيل الاذاعي، إذ نجد الموسيقى

الانتقالية والأصوات تعوض حركات التغيير التي تساعد المستمع على الانتقال من مشهد إلى آخر ومن جو إلى جو آخر[16].

وقد يلاحظ المطلع في التمثيليتين وجود اختلاف بينهما سواء في عدد الشخصيات (14 عند الوزاني و19 عند الخياري)، أو في نوعها (فعائشة المغربية تختلف تماما في تكوينها ونوعها وأهدافها عن نائلة الدمشقية)، أو في نهاية التمثيلية، بحيث تقف تمثيلية الخياري عند نبإ وفاة العميد، وتعويض ابنه له خلال هروب ابن زيدون من السجن، بينما تتجاوز تمثيلية الوزاني ذلك إلى لقاء جديد بين ابن زيدون وولادة التي تفضل أن تتخلى عن حبها من أجل إنقاذ قرطبة مادام «القلب الواحد لا يستطيع تحمل حبين : ولادة وقرطبة»[17] غير أن هذه الاختلافات وأخرى ناتجة عنها لم تغير من جوهر الرسالة.

ولما سألنا الدكتور الخياري عن سبب اختياره لموضوع حياة ابن زيدون كمادة لتمثيليته أجاب : «لا تنسى أن سنة 1952 كانت سابقة لفترة الاستقلال، وأننا كمغاربة كنا نعاني كثيرا من الضغط الاستعماري. وفي تلك الفترة كانت فورة الشباب تجعلنا نميل أكثر إلى المطالبة بالحلول السريعة من أجل تخليص المجتمع المغربي وقد طال به الانتظار. فكان لابد من إيجاد قالب عربي يتسع لوضعية مجتمعنا آنذاك. فلم نجد خيرا من قصة ابن زيدون يوم كانت الأندلس تعاني من الزلازل السياسية وكان المغاربة يمهدون لقدوم ابن تاشفين. لذلك بالضبط اخترت شخصية عائشة وعبد الله المغربيين لتمثيل الوفد المغربي الذي مهد للحكم

المرابطي في الأندلس. فشخصية عائشة خيالية، لا وجود لها في التاريخ بالمفهوم الذي وجدت به ولادة مثلا والجارية الاسبانية أو سارة أم الشاعر ابن زيدون. فأنا اخترت قصة ابن زيدون من الماضي لأسقطها على الحاضر لعل القارئ والمشاهد يتعظ بها ويحاول صدع الشرخ الذي أصبح المغرب متعرضا له بسبب الاستعمار. هذا واني اخترت قصة ابن زيدون أيضا لأنه شاعر. ولقد كتبت المسرحية شعرا ـ وهي أول مسرحية شعرية في المغرب- حتى لا يتنافر شعر ابن زيدون مع باقي الحوار، وحتى يظل الجو شاعريا جميلا ومؤثرا »[18].

لكن هذا الكلام يبدو مردودا عليه في معظمه إذا أخذنا بعين الاعتبار ما جاء في رسالة حسن الطريبق حول «الشعر المسرحي في المغرب حدوده وآفاقه »[19] حيث قال : «ان علال الخياري عندما يثير قضية ابن زيدون بهذه الصورة، إنما يثير قضية أدبية تاريخية لا تحمل خلفيات معينة إلا في نطاق خافت محدود الومض والإيحاء. فهو ذكر الشعب، والإسلام، والإتحاد، والعروبة في كثير من الأبيات، ولكن ذلك لم يكن فيه تذفق فني محبوك التواصل والافصاح(...) ان قيد الترابط منفلت من يد الشاعر الشيء الذي لا يعطي لمثل هذه المعاني دلالات خاصة في إطار وحدة الموضوع حتى كأنها مجرد خواطر ومشاعر صادقة تتدفق في بساطة تعبير يعتوره النقص في الأداء الدرامي »[20].

ومهما يكن، فان التمثيلية لقيت تجاوبا هاما من قبل الجمهور سواء كعرض أو كنص ظل مخطوطا حتى سنة 1985 ثم نشره صاحبه في طبعة أنيقة.

2) ملخص التمثيلية :

يشعر ابن زيدون بالضيق في بيته المتواضع رغم مواساة أمه سارة له، ولكن، سرعان ما تزوره مجموعة من الأصدقاء (ابن عبدوس، وابن المكري، وابن الحناط، وأبو بكر القاضي). وبينما هم يتحدثون في الشعر، والحب، والسياسة، وجمال كل من ماري عشيقة ابن زيدون، وولادة أديبة العصر، تدخل عائشة لتبشر ابن زيدون بتعيين الأمير له وزيرا. وحينما تأتي ماري وتبدي حبها لابن زيدون تهينها الجماعة، فتغضب، وتخرج رغم دفاع ابن زيدون عنها. مما يجعل عائشة تقضي بالقطيعة بين ماري وابن زيدون بدعوى أنها جاسوسة الإسبان على العرب. وبعد حديث طويل بين ولادة وعائشة حول علاقتها بابن عبدوس، وطمعها في ولاية قرطبة، وتحسن وضع ابن زيدون، تبدي ولادة ماكانت تخفيه من حبها للأخير. عندئذ، تأتي ماري فتظهر لها عائشة عداوتها رغم دفاع ولادة عنها، وتفلح في إثارة غيرتها بالتلميح إلى علاقة ممكنة بين ابن زيدون وولادة، الأمر الذي أفقد ماري زمام غيرتها حتى أثارت غضب ولادة التي عجلت بدعوة ابن زيدون إلى ناديها حيث نوقش الشعر والسياسة ووحدة الأندلس، كما تقررت علاقة ولادة بابن زيدون. ونظرا لإنشغال هذا بمصير البلاد وبتحقيق طموحاته السياسية، ظل حريصا على إعجاب العميد رغم تحامل ابن ذكوان عليه، وكيد ابن عبدوس له إلى أن حظي بثقته ليصبح سفيرا له في بلاد العدو، وأستاذا لابنه أبي الوليد، ولقد عز على ماري وابن المكري وابن عبدوس نعمة الحب والجاه التي أسبغت على ابن زيدون، فكادوا له حتى زج به في السجن رغم توسل أبي الوليد. ولكن عائشة وولادة استطاعتا تدبير حيلة لتهريبه بمساعدة أبي الوليد قبل أن ينصب هذا أميرا عوض أبيه في ذلك اليوم بالذات.

3) البنيات المكونة للشخصيات النسوية في التمثيلية :

أ - البنية الخارجية : في البداية، يجب أن نلاحظ انعدام أية إشارة مميزة لثلاث شخصيات : سارة، ومنية، وصوفيا. كل ما نعرف عن هذه الشخصيات هو أصلهن ووضعهن. فسارة، أم الشاعر ابن زيدون، من أصل عربي ارستقراطي. ومنية من أصل مولد، لذا، فهي تحسن العربية ورواية الشعر ككل قينات ذلك العصر. وصوفيا بنت أمير السويد وسفيرته لدى العميد في بعثة ثقافية.

أما عائشة، فإن التمثيلية لم تزد عن وصفها ب «نجمة أفق»، غير أنها أفسح لها المجال لكي ترسم شخصيتها بنفسها من خلال أفعالها التي تدل على حنكتها وقوة شخصيتها وسعة نفوذها : الأمر الذي يوحي بأنها امرأة ارستقراطية في سن الكهولة ذات هيأة صارمة.

ورغم طول الحديث عن ولادة في مجالس مختلفة، فإننا لا نعرف عنها شيئا كثيرا. إنها امرأة جميلة ساحرة بعيونها، وصوتها ونبرة كلامها، ورقة شعرها. تؤثر في محدثها بحلاوة حديثها وجمال طبعها. وهي امرأة طموح تحلم بولاية قرطبة لاسترجاع عز أبيها المستكفي. لذلك، فهي تبحث عن الوسيلة الأنجع للوصول إلى غايتها بحث لا يهم في ذلك فتور عاطفة (خلال ارتباطها بالوزير ابن عبدوس)، ولا طول عذاب (خلال علاقتها بابن زيدون). ولعل هذا ما يجعلها منشغلة بجمالها وزينتها لأنها من أهم الوسائل التي تساعدها على تحقيق أمنيتها.

أما ماري، فإنها تظل الشخصية الوحيدة التي عرفت تلوينات هامة. فهي مرة «فاتنة النظرة»، و«قمر العاشقين» : جميلة إلى حد

وقوع ابن زيدون وابن المكري في حبها. ومرة أخرى تبدو امرأة مستعدة للغدر، وللفجور، والخيانة ككل بنات الغرب بسبب «دم القوط في عرقها»، ثم انها بالاضافة إلى كل هذا امرأة غريبة عن الحضارة العربية لا تفقه لغتها. وهي تشبه ولادة في استغلال جمالها لبلوغ مآربها. الا أن استغلال ولادة لجمالها كان مستحبا لانه كان من أجل هدف «سام»، بينما استغلته ماري من أجل الانتقام، وهو هدف منحط.

ب – البنية الفعلية : يتم حضور الشخصيات النسوية في كل فصول التمثيلية حسب الموضوع الذي حدد للفصل. وهكذا نجد شخصيات يحضرن في 5 مشاهد مثل ماري وعائشة اللتين حضرتا في الفصول الثلاثة الأولى. وهناك شخصيات يحضرن في 3 مشاهد مثل منية وولادة. الأولى وزعت مشاهدها على فصلين II وIII والثانية على فصلين أيضا II وIV. في حين لا تظهر سارة إلا في مشهدين من الفصل I وصوفيا في مشهد واحد من الفصل III وحتى نقف على نوع الأفعال التي قامت بها خلال حضورها اضطررنا إلى تقسيم مواضيع التمثيلية إلى : مقصودة مباشرة ومقصودة ضمنيا، كما ترد في الفصول الأربعة، فوجدنا ما يلي :

1) مواضيع مقصودة لذاتها في القول وفي الفعل : الشعر، والسياسة، وشخصية ابن زيدون.
2) مواضيع مقصودة في الفعل وإن كانت ثانوية في الكلام : المكر، والخداع، والغدر.
3) مواضيع مقصودة في القول وثانوية في الفعل : الجمال، حرية المرأة.

يبدو من التمثيلية أن الحدث يتمحور من حيث الموضوع حول علاقة ولادة وابن زيدون، ومع ذلك، نجد أن المحرك الرئيسي للأحداث في صف النساء يتمثل في شخصيتين : عائشة وماري. في حين، تبقى الشخصيات الأخرى رهينة الموضوع المهيمن على الفصل. لكن، عندما ننظر جيدا في ارسال وتلقي كل الشخصيات النسوية نلاحظ انهن يتوزعن على ثلاث فئات :

* فئة الشخصيات الثانوية جدا التي تكاد لسطحيتها تدخل في باب النماذج الفاعلية. وقد كلفت إما بخدمة (منية وصوفيا) أو بمواساة البطل (سارة).

* وفئة الشخصيات/المحور، التي يدور حولها الحدث، وتتمثل في ولادة وحدها التي كانت تقوم بأفعال مباشرة : كنظم الشعر، وتنظيم الندوات الشعرية والتباهي بجمالها وذكائها، والدفاع عن صداقتها، والجهر بحبها والتضحية من أجله. كما كانت تقوم بأفعال غير مباشرة مثل الغرور، والطموح السياسي في عودة عزها وحكمها على قرطبة. وفي المقابل، تتلقى الاعجاب من الذكور والإناث، كما تتلقى الحب والإطراء والغيرة أيضا إما لأنها السبب (من جهة ماري)، أو لأنها الموضوع (من جهة ابن عبدوس).

* وفئة الشخصيات/المحرك التي كانت توجه دفة الحدث حسب رغباتها وأهدافها. وتشمل ماري وعائشة. فكلاهما كانت تدافع عن هدف في نفسها. لكن ماري لم تكن ذات هدف ملح في البداية، كل غايتها كانت تنحصر في الاحتفاظ بحب ابن زيدون إلى أن جاءت عائشة بأمر القطيعة بينهما. إذ ذاك، أصبح هم ماري هو التفريق بين ولادة وابن زيدون لعل هذا يعود إليها. ولقد اتضح ذلك في كل تحركاتها بما فيها تماطلها في قبول ابن المكري زوجا لها. لقد كانت

دائما تعيش على أمل عودة ابن زيدون. أما عائشة، فأنها أتت إلى الأندلس محملة برسالة كان لابد من تبليغها : وهي توحيد كلمة العرب لانقاذ البلاد من العنصر الغربي الطامع فيها. وهكذا فرقت عائشة بين ماري الأجنبية (رمز الاستعمار) وبين ابن زيدون (رمز الوطن العربي) لتربط علاقة حب بين هذا وولادة فتصبح العلاقة في حد ذاتها رمزا للوحدة العربية. ويظهر من خلال حركات هذه الشخصية أنها كانت أقوى من أن يخيب لها مسعى، حتى ليظن أنها كانت السبب في اختيار العميد لابن زيدون. أو لم تكن أعلم بالخبر من ابن عبدوس الذي كان وزيرا؟!.

ولقد أثارت أفعال المرأتين ردود فعل مختلفة تماما. فبقدر ما كانت عائشة تعامل بالاحترام وبالتكريم، بل وبالاعجاب والاجلال (ربما لكونها خيالية) كانت ماري، على العكس من ذلك (وربما لأنها مستقاة من الواقع) هدفا للاهانات، والقذائف، والسخرية، والشهوة، والحب أيضا. إنهاحزمة من العواطف يصبها الكاتب في قوالب مختلفة، وأحيانا يجعلها كلها في قالب شخصية واحدة مما يضع الكاتب في موقف تناقض والتمثيلية في موقف ضعف. وفي هذا الصدد يقول حسن الطريبق «إن ما يدخل ضمن المعقول المقبول في التعامل والعلاقة، يتضاءل أحيانا لدى الشاعر في بعض الحوارات، ولعل ذلك واضح فيما حصل بين «ماري» وبين ابن المكري (...) فكيف يعقل أن نقبل احتقار ابن المكري لماري واتهامه لها بالفسق والمجون، وأمام الملأ، وفي ذات الوقت، تكون ذات حظوة تحضر الاجتماعات والمسامرات والمساجلات والمؤامرات التي تحاك ضد هذا وذاك؟ ثم إن المستوى الذي كان عليه ابن المكري كقاض

للمسلمين وكعالم دين، ما كان ليدفعه إلى الوقوع في الشطط المبالغ فيه مع من؟ مع ماري الجميلة والجذابة»[21].

ج ـ البنية النفسية : لن نتحدث عن فئة الشخصيات الثانوية لأنها، كما ذكرنا من قبل، سطحية لا تتكون الا من بعد واحد على أبعد تقدير. وعليه، تبقى مجموعة الشخصيات الثلاث الأخرى التي حاول الكاتب تقسيمها إلى فئتين : محورية (ولادة) ومحركة (ماري وعائشة). لكن تحليل البنيتين الخارجية الفعلية بين خطأ هذا التقسيم (وان فرض عدد المشاهد العكس)، لأنه انطلق من معيار سياسي جعل النساء الثلاث يكون ثلاثيا سياسيا تثمل فيه ولادة الهدف وماري وعائشة الخصمين المتصارعتين حولها : من يربح ولادة؟ لذلك رأينا الشخصيات الثلاث تتحولن إلى رموز : ولادة ترمز إلى البلاد العربية الجميلة التي يشتهيها كل انسان، وماري ترمز إلى العنصر العربي الدخيل الذي يعبث بالبلاد العربية و عائشة ترمز إلى الشعب المغربي الذي يسعى إلى تحرير البلاد العربية من الاستعمار. وبناء على هذا، سوف لن نحتاج إلى تحليل البنية النفسية لهذا الثلاثي ما دامت الرموز، كما يؤكد بريخت وأوجيستو بوال BRECHT, AUGUSTO BOAL، لا تعاني لأنها لا تملك أبعادا متناقضة تخول لها ذلك[22].

لكن، إذا عدنا إلى البنيتين الخارجية والفعلية نلاحظ أن هناك فئتين بالفعل ولكنها مقسمتين حسب معيار مرفلوجي، أي انطلاقا من الموجود وليس من المراد. والموجود يدل على أن الفئة الأولى تتكون من شخصية خيالية : عائشة المغربية التي حملها الكاتب كل

رغباته وإرادته، وجعلها ممثلته الرسمية بين الشخصيات الأخرى تناقش السياسة بصوته، وتحسم في أمور ابن زيدون حسب رغبته. ولقد رأينا كيف كانت هذه الشخصية صارمة قوية في قراراتها لا ترد كلمتها ولو أدى ذلك بشخصية ما إلى التناقض مثلما حصل لابن زيدون الذي برهن على سداد رأيه في الأمور السياسية، وطول باعه في العلم والأستاذية ومع ذلك فقد تصرف كرجل عديم الشخصية أمام أمر عائشة بكتابة رسالة القطيعة إلى ماري التي كان يدافع عنها منذ هنيهة. بل، وزاد أن قال فيها مالم يقله فيها من أهانوها أمامه. وهكذا تبدو شخصية عائشة صارمة حديدية كتلك التي توجد في أفلام الخيال العلمي حيث تكون شخصية ما قوية اما لأنها مصنوعة من آلات بطريقة تجعلها تشبه الانسان في أفعاله دون أن تشبهه في أبعاده الداخلية، أو لأنها من كوكب آخر غير الأرض، وبذلك تكون أقوى من الانسان، وأكثر تحكما فيه لخلوها من فضائله ونقائصه. فهي لا تملك سوى شيئين : هدف تسعى إليه، وذكاء تسخره في ذلك السعي.

أما الفئة الثانية، فتتكون من ماري وولادة اللتين كانتا تمثلان وجهين مختلفين لعملة واحدة. فمهما قيل عن تجسس ماري ضد العرب (وهذا يعني أنها تحمل هما سياسيا معينا)، ورغم تصريح ولادة بطموحها في ولاية قرطبة، فانهما معا حصرتا همهما في شخصية ابن زيدون : ولادة أحبته في صمت يوم كان هو عنها لاه بماري، وربما لذلك أطالت فترة خطبتها من ابن عبدوس، وماري أحبته جهرا، رادة بذلك الأيادي المعروضة عليها (ابن المكري). ولولا غيرة ماري من ولادة ماكانت هذه تعجل بلقاء ابن زيدون وهي

الواثقة من جمالها وفتنتها. هل هو التحدي؟ هل هو العناد؟ أم تراه غرور ولادة الذي يأبى الهزيمة؟ بل أنه الطمع، على الأرجح، مادام ابن زيدون سيصبح وزيرا، وأبواب الخير تفتح أمامه، ليس بعيدا أن يصبح واليا على قرطبة، وتصبح هي بموجب علاقتها معه حاكمة أيضا على المدينة. لكن هذا الحافز يظل فاترا غامضا بالمقارنة إلى حافز تحقيق الذات بواسطة الجسد الذي ستحدد قيمته بمقدار اقبال ابن زيدون عليه. هذا الرجل الذي يمثل الشاعر الفذ، والوزير الداهية، والعاشق الرقيق، والأستاذ المقتدر، والابن البار، والصديق الوفي، والعربي الفحل الغيور على عروبته وبلده. ورجل كهذا يصبح وحده المعيار الذي تقوم به الأخلاق والحكمة والجمال والفنون. لهذا، كان الصراع قائما ضمنيا بين ماري وولادة. وإن كان في الظاهر قائما بين ماري وعائشة.

انطلاقا من هذا المعيار إذن تصبح «ولادة» الجانب المقبول، وماري الجانب المرفوض من المرأة التي تريد اثبات وجودها في اطار علاقتها الجسدية بالرجل[23] ورغم انهما معا قادرتين على تبادل الحب والوفاء له، والتضحية من أجله، ترفض ماري لأن «دم القوط من عروقها». هذا الدم الذي يجعلها «تغني وترقص للمعجبين وابليس في شخصها قد تمثل»[24] في حين، لم تقذف ولادة في عرضها رغم تخليها عن ابن عبدوس، بدون أي سبب معقول، جريا وراء ابن زيدون. ولكأن العرق العربي كاف لمحو خيانتها لابن عبدوس. أم تراه اعجاب «مفرط» بابن زيدون[25] جعل شاعرنا الخياري لا يتنبه لمثل هذه المزالق؟ قد يكون هذا، سائدا في بعض المناطق، حيث تسود فكرة «العرق دساس» التي

عبرت عنها معظم التمثيليات اليونانية وكثير من الأعمال الغربية حتى عهد الطبيعيين[26] وهي فكرة تزعم أن الشخصية ترث خصال أجدادها الحميدة والقبيحة، كما ترث أفعالهم وسماتهم الجسدية. ونظرا لاعجاب كاتبنا بالأصل العربي وحقده على العنصر الغربي لما يحمله من اختلافات وتقاليد تنافي التقاليد العربية، فانه كان لابد أن يجعل ماري عرضة للقذف رغم وفائها، وأن ينزه ولادة من كل عيب وهي التي تجهر بمجونها. إنه المبدأ القبلي القديم: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»!

صورة المرأة في المسرح التقريري - استنتاجات:

من المؤكد أن الذي كان يقصد في تمثيلية «الحراز» وتمثيلية «ربة شاعر» هو بلورة قيمة الرجل في مواضيع حساسة كالفحولة التي ترجمت ابداعا في الحيلة والتعبير عن العواطف عند محمود، والسياسة التي ترجمت ابداعا في الشعر عند ابن زيدون. وحتى يتميز البطل عن الشخصيات الأخرى، كان لابد من احاطته بخصم أضعف منه في ميدانه. فكان ابن عبدوس لا يرقى إلى مكانة ابن زيدون في الرقة والابداع الشعري، ولذلك، كانت المطارحات الشعرية تنتهي دائما لصالح ابن زيدون. أما الحراز الذي لا نعرف عن شكله أو اسمه شيئا، نراه يكتفي بموقف دفاعي ضد حيل محمود وجماعته، ولا يبتكر أية حيلة مضادة. وفي خضم هذا الصراع كانت المرأة تمر عبر قناة الكلام من أقصى مراتب الصورة إلى أدناها. وأول ما يلاحظ على هاتين التمثيليتين:

1 ـ شخصية الخادمة التي لن تقدم في إطار صورتها الواقعية، سواء في «الحراز»، حيث تجاوزت واقع الخادمة المغربية في الفعل، وصارت تشبه بحركاتها الدرامية الخادمة الفرنسية كما صورتها تمثيليات القرن السابع عشر، أو في «ربة شاعر»، حيث ظلت أدنى من واقع الجارية الأندلسية التي كان لها شأن كبير في عهد ابن زيدون وولادة، وأرقى من الخادمة المغربية التي لا تحسن غير الطبخ والغسل، أما أن تغني وتضرب على العود(!).

2 ـ وهناك نماذج فاعلية استعملت كاطار خاص بالمرأة/التحفة مثل القصر في التمثيلية مع ما يتبعه من أبهة في الملابس والزينة التي تعتبر أيضا من النماذج الفاعلية، مادامت تحدد نوع الأيقونة التي ستمثل المرأة المعروضة. وقد تعرض الكاتبان لهذه النقطة بصريح العبارة. غير أن الشرايبي فضل الايجاز، فأشار إلى ذلك على لسان فاطمة.
ـ فاطمة: «بغات توريك التحليقة اللي عملت ليها.. وتشوف واش جات معها ولا تغيرها» (فصل V). أما الخياري فأنه أفرد خمسة حوارات بين ولادة وعائشة حول زينة ولادة وجمال ملابسها وفتنتها (اللوحة 1 من الفصل II).

3 ـ بالاضافة إلى هذا، نجد البطلتين معا ـ عويشة وولادة ـ تسبحان في جو من الغيرة التي تعني التملك، إذ كان صراع محمود والحراز حول عويشة، وصراع ابن زيدون وابن عبدوس حول ولادة، عبارة عن تنازع لملكية خاصة.

لن ننخدع بمسافة الكلام التي اعطيت لها في التمثيلية («الحراز» = 121 حوارا للنساء أي 11,8٪ من مجموع الحوارات، و«ربة شاعر» = 195 حوارا للنساء أي 19,9٪ من مجموع الحوارات). فرغم هذه المسافة التي استلزمت حضورا وحركات درامية معينة، لم تزد المرأة عن التفوه بما يلائم الجو السائد.

ففي «الحراز» نجد الحب لا يتحقق الا بين مراهقين (عويشة ومحمود) تطبيقا للفكرة السائدة التي تصنف الحب في باب الحماقات، ولذلك، فهو يمنع على «العاقل» وان جنح اليه. وهكذا كانت كل الحركات الدرامية لدى فاطمة وعويشة تصب في هذا الاتجاه مدعمة هذا الفكر بالاسطورة («لرياح»، والجن، والصرع، والسحر، والجذبة)، وبالتنفيس البدائي (الشيخات والمسايفة)، وبالاغراء الجنسي الذي يتخذ مطية إلى الأهداف الأساسية.

أما «ربة شاعر»، لم تكتف بتقديم نساء من وسط أرستقراطي حالم يعيش البذخ السياسي والترف الفكري - وهو جو بعيد عن واقع الأوساط المغربية بما فيها الأرستقراطي أيضا - ولكنها زادت على ذلك أن قدمت شخصية لا شيء فيها مؤنث غير الاسم (عائشة المغربية). أما حركاتها الدرامية، ومنطقها، وتصورها لعلاقة الناس، فإنها لا تبعدها عن صورة المرأة فقط، بل وعن صورة الانسان العادي عموما. انها مجرد قذيفة معبأة بإرادة المؤلف ومبادئه فجرت في علاقتي ولادة بابن عبدوس، وماري بابن زيدون لتكوين علاقة جديدة بين ولادة وابن زيدون. لهذا، كانت هذه الشخصية تمثل البوق الأول لأفكار الكاتب تليها ولادة ثم ماري.

وهذا ما يفسر تناقض ماري في معاملة ابن زيدون بعد أن أرسل إليها بالقطيعة. فعوض أن تظل وفية لشخصها وطبعها العنيد وتذهب إلى حبيبها لتسأله عن السبب مادامت تحبه دون أن ترى منه في حضورها ما يقلقها، وان كانت في الحقيقة لم ترتح كثيرا لدفاعه الفاتر عنها. فإنها انصاعت بكل بساطة لقرار ابن زيدون، كما صارت تكيد له بواسطة ابن عبدوس وابن المكري. والشيء نفسه يلاحظ على ولادة التي ما كادت تظفر بحب ابن زيدون حتى نسيت طموحها السياسي، لان طموح المرأة داخل الاطار الاقطاعي ينحصر فعلا في أن تظفر برجل يحبها و«يحميها» بزواجه منها. وهنا بالضبط يسقط الخياري في تناقض لا تفسره الا رومانسيته بصفته شاعرا. ويتجلى هذا التناقض في كونه لم يلمح، ولو بحوار واحد، الى طمع ماري أو ولادة في الزواج من ابن زيدون. في حين أكد غير ما مرة عزم ابن عبدوس على الزواج من ولادة وابن المكري من ماري، وهذا تناقض يثير أكثر من تساؤل، إذ كيف يعقل أن ينحصر هم المرأة في الزواج، وفي الوقت نفسه تفضل التفاني في حب غير مضمون على زواج مضمون؟ إن جمهور الخمسينات الذي وجه إليه هذا الخطاب، وهو لما يتخلص بعد من وطأة نمط من الفكر، ما كان ليستسيغ هذه الصورة لولا انها توافق بنيته العقلية.

والواقع أن هذه الصورة لا توافقه فقط، بل وتتملقه أيضا. لأنها تمثل نموذج المرأة المتفانية من أجل الرجل البطل. ان موقفي ماري وولادة لا تقفهما في المغرب الا عاهر عشقت رجلا حتى الجنون وانكار الذات، فلا تجرؤ على التفكير في الزواج منه حفاظا على

سمعته ومركزه، خاصة في تلك الفترة التي كانت المرأة فيها لا تعد إلا لوظيفة الزواج والإنجاب. وحتى في فترتنا الحالية قد توجد من بين المثقفات من تفضل التسري le concubinage على الزواج لما يتيحه لها من حياة حرة مليئة بالحب الرومانسي، المحفوف بالمغامرات. ولكنها ما ان تقتنع بالرجل الذي بين يديها حتى تشرع في التفكير في الارتباط به داخل اطار يضمن لها الاستقرار والطمأنينة.

وغالبا ما تختار مؤسسة الزواج كحل اضطراري يفرضه عليها المجتمع المغربي الاسلامي سواء في الشارع، أو في الفنادق، أو في الحياة الداخلية الحميمة. فالغرض المقصود من عرض صورة ولادة وماري بهذا الشكل، هو تصوير تفاني المرأة في حب الرجل إلى حد نكران الذات، وقبول كل المغامرات من أجله. أما فكرة التفاني هذه، فقد ألح عليها الكثير من أصحاب الخطاب المسرحي الرومانسي، ونذكر منهم على سبيل المثال فقط : ابراهيم الوزاني في تمثيلية «حسناء الأندلس»، وعبد الله شقرون في تمثيلية «طوق الحمامة» ومحمد الدحروش في تمثيلية «الوارثون والدار». ان إلحاح هؤلاء وأمثالهم على فكرة تفاني المرأة في خدمة الرجل دليل على رغبة أكيدة، واعية أو غير واعية، في تعميق بعض ملامح الصورة المجردة كملامح الصبر، والتضحية، والخضوع لارادة الرجل من أجل اسعاده، وانقاذه. ومعنى هذا أن الخطاب الرومانسي ليس فقط تقريرا وتكريسا للصورة المجردة، ولكنه أيضا تشويه وتوريم لما فيه من عيوب سابقة.

الهوامش :

(**) التشديد من عندنا.

(1) لسان العرب لابن منظور مادة قرر.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

(5) ألفها محمد أحمد البصري في أواخر الخمسينات وتحكي قصة رجل زوجه عمه بأربع نساء مع أجل أن يلدن له ولدا الذي هو شرط في وصية العم لابن أخيه. وقد اعتمد فيها الكاتب الافراط في مشاهد الضحك، بحيث كانت لا تخدم إلا هذه الغاية.

(6) هناك 32 قصيدة في الموضوع، انظر كتاب « معلمة الملحون » لمحمد الفاسي.

(7) حوار معه بالدار البيضاء في دجنبر 1984.

(8) حوار معه بالدار البيضاء في دجنبر 1984.

(9) حوار معه بالدار البيضاء في دجنبر 1984.

(10) هذه العبارة تنطلق من الأسطورة التي تقول : تكون المرأة من أقصر ضلع في جسد آدم. وهي أسطورة شائعة جدا في الأوساط المغربية على اختلافها. أما اقتران المرأة بالمية والحرباء فيمكن الرجوع إلى موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، لشوقي عبد الحكيم، دار العودة بيروت 1982 ـ ص 185-191.

(11) الحراز ـ الفصل I.

(12) الحراز ـ الفصل II.

(13) وهي الأعضاء التي يركز عليها عند تزيين العروس وتقيينها قبل جعلها في « الميدة » للطواف بها جالسة لا يظهر منها إلا وجهها وشعرها وصدرها وقد غيبت باقي الأعضاء في ملابس وحلي وأثواب فضفاضة جدا.

(14) أنظر تفصيل ذلك في بحث قيم جدا لمارينا ياجيللو Les Mots et les Femmes. Marina Yaguello, Paris - Payot: 1978.

(15) فضلنا هذه التمثيلية على غيرها من التمثيليات ذات الخطاب التصحيحي القومي لكونها تحتوي على شروط متعددة تفرقت في غيرها كتنوع الشخصيات النسوية ووفرة عددها، والدعوة إلى تحرير المرأة وإلى الثورة على المستعمر، واستعمال الأسلوب الرومانسي سواء في التعامل مع الشخصيات أو في أفعالها. هذا علاوة على استعمالها للفصول والمشاهد واللوحات وهو خليط من

تقنيات كلاسيكية وحديثة توجد متفرقة، أو مجتمعة في مثيلاتها من التمثيليات التي كانت وما تزال تعد طليعية.

(16) أنظر ثبت التمثيليات في مجلة «الفنون» عدد خاص رقم 3-4، سنة 1976.

(17) مجلة الفنون عدد خاص 3-4 أكتوبر 1976، ص 169.

(18) حوار معه بمكناس يوم 1986/12/6.

(19) «الشعر المسرحي في المغرب حدوده وآفاقه» (رسالة جامعية أعدت تحت إشراف الدكتور عباس الجراري وذلك لنيل شهادة الدراسات الجامعية العليا بكلية الآداب فاس) سنة 1979-1980.

(20) المصدر نفسه، ص 143-144.

(21) الطريبق حسن «الشعر المسرحي في المغرب، حدوده، وآفاقه» رسالة السلك الثالث كلية. الآداب فاس، سنة 79-1980، ص 156-157.

(22) Augusto Boal : Le théâtre de l'Opprime. ed Maspero - Paris .

(23) يقول الطريبق حسن في هذا الصدد : «لقد اورد الخياري في رسمه لشخصيات مسرحيته أربع شريحات : الشريحة الأولى قيادية (...) أما الشريحة الثانية، فإنها شريحة من نساء الأندلس والمغرب وتتمثل في ولادة وماري وعائشة. ولقد ركز الشاعر على إظهار اقتصار اهتمامها بعواطفها المنغلقة وتكييف مواقفها بما تمليه هذه العواطف، على العادة الغالبة عند النساء في كل الأزمان، باعتبار ما للمرأة من اهتمام متصل بعالم نفسها» ـ الشعر المسرحي في المغرب، حدوده وآفاقه ـ كلية الآداب والعلوم الانسانية فاس 1980/ 79، ص 153-154.

(24) ربة شاعر، الفصل 1، اللوحة 2، ص 40 مطبعة النجاح الجديدة 1985.

(25) انظر رسالة حسن الطريبق المذكورة أعلاه، ص 143.

(26) نجد هذه الفكرة واردة بكثرة ووضوح في تمثيلية أوديب لصفوكل، وفيدرا لراسين. وقد تبناها طبيعيون في القرن التاسع عشر وعلى رأسهم اميل زولا الذي أبرزها في روايته «الصراعة» L'Assomoire عن طريق شخصيته جرفيز : Gervaise.

تشكلات الخطاب التخيلي في كتابة الأدب النسائي : الإشكال، التصور، الوظائف

(تحليل نماذج وقراءة لنصوص مغربية)

بشير القمري(*)

مداخل عامة : في التصور والمفاهيم والمتن.

1.0. ماذا نقصد بالتشكلات ؟

إذا انطلقنا عموما من تصور لغوي – معجمي يبحث في معنى مفهوم «التشكل» (التشكلات)، فإننا قد نقربه من عدة حقول معرفية ومفاهيم إجرائية رائجة في مجال الدراسات الانسانية عامة، وفي مجال الدراسات الخاصة بالأدب والأدبية. وفي مقدمة ذلك مفهوم «التكون» (La genèse) الذي يعني تارة ـ من منظور مقولة التطور ـ النشأة والأصول والامتدادات؛ ويعني في حالة أخرى ما نسميه عادة المكونات الأساسية، أو البنيات الرمزية في إشتغال الظاهرة الأدبية وغيرها. وتلتقي هذه المعاني في فرضية المراهنة على دراسة «الشكل» فيراد بالتشكل حينئذ «ماكان من الهيئات [...] كالاستدارة والاستقامة والاعوجاج»، كما يراد به «التنظيم» و«الترتيب» و«البناء» و«المعمارية».

أما إذا حصرنا التشكل في إطار مقاربة تهم الخطاب الأدبي وحده، فإن التشكل يعني طبيعة تمظهر المحكي (السرد من خلال

(*) أستاذ بكلية الآداب بالقنيطرة

ثنائية القصة والخطاب) كملفوظ لغوي ـ أسلوبي ذي هيكلية خاصة. ومن ثم يرتبط التشكل بتصورات أخرى لا تقف عند حدود الاشتغال، وإنما تراهن على مظاهر التحفيز التيمي (الموضوعاتي) والايديولوجي والرؤيوي بكل ما يتضمنه هذا التحفيز من أطر مرجعية تحيل إلى خلفية الخطاب. ويترتب عن هذا الانخراط في شبكة مظاهر التحفيز اعتبار المظهر السردي وسيطا في نقل (حمل) بنيات أخرى، بعضها أصلي يعود إلى الجذور، وبعضها فرعي (تابع) يرتبط في بنياته الخفية (العميقة) بأطر جمالية (استطيقية). وحينئذ لا يمكن رصد التشكل إلا في إطار «ثوابت» و «متغيرات» و «بدائل» تحل محل النمادج الأصلية أو تنبتق في إطار سيرورة مستقلة نسبيا عنها.

ويقتضي مثل هذا التصور كما يقول (غريماس) و(كرتيس). 1979، ص 59/ ص 60، تصور نحو سردي ذي اجراءات تربط اللغة بالتلفظ والملفوظ، واقتراح سيميائية تشخيصية متطورة عن السيمسائيات الشكلية والسردية؛ ثم الاسترشاد بسيمائية الخطاب. كما يقتضي الفصل ـ حسب (غريماس) و(كورتيس) دائما ـ بين نوعين من القضايا : قضايا البناء، وقضايا الاندماج داخل سياقات قولية أخرى. ثم الفصل في النهاية بين التشكل الموضوعاتي والتشكل الرمزي.

2.0. ماذا نقصد بالخطاب التخيلي؟

لا نجد تصورا نظريا جاهزا لمفهوم «الخطاب التخيلي»، غير أننا إذا استلهمنا نموذج (تودوروف 1972)؛ سنكتشف أن المقصود بهذا

المفهوم هو تلك العلاقة التي يشيدها الخطاب مع المرجع، بحيث لا يحيل عليه مباشرة وإنما يتخذ لذلك نوعا من «التخييل» Fiction وليس «مرجعا فعليا» («المعجم الموسوعي...»، ص 333).

ويستدعي هذا التصور التمييز بين «الحقيقة» و«الواقع»، كما يستدعي الحفر في ما قد نسميه عامة «المظهر التصويري» أو «التشخيص» الذي يعقد مواثيق مرجعية متساوقة مع ما هو خارج أدبي دون أن يكون لحفور هذه المرجعية صورة فعلية. بعبارة أخرى: إن الخطاب التخييلي خطاب مواز للواقع المادي، لكن دون أن تبقى لهذا الواقع وظيفة توثيقية.

إذا تركنا هذه التحديدات جانبا إلى حين، وحاولنا تقريبها من خطاب تمثيلي نقصد من ورائه تقديم ملحوظات حول تشكلات الخطاب التخييلي انطلاقا من نماذج محددة : ما هو الاشكال الذي يفرض نفسه عند ممارسة التحليل وفعل القراءة؟ وما هو التصور الشمولي الذي يمكن تبنيه؟ وما هي الوظائف التي يمكن استخلاصها؟.

3.0. اخترت لمحاولة الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها النصوص التالية :

أ ـ نص «غدا تتبدل الأرض» للكاتبة المغربية (فاطمة الراوي)، وهو نص سردي صدر سنة 1967 عن دار «امبريجيما» بالدار البيضاء.

ب ـ نص «الصمت الناطق» للكاتبة المغربية (خناثة بنونة). وهو عبارة عن مجموعة قصصية تتكون من اثنتي عشرة قصة. وقد صدرت هذه المجموعة سنة 1987 عن دار «عيون المقالات» بالدار البيضاء.

ج ـ نص «كتابات خارج أسوار العالم»، ونص «أصوات حنجرة ميتة»، وهما للشاعرة المغربية (مليكة العاصمي) : النص الأول ديوان شعر، يتكون من ثلاث وحدات مستقلة، تحتوي الوحدة الأولى على ست قصائد، وتحتوي الوحدة الثانية أربعة نصوص شعرية، وتحتوي الوحدة الثالثة نصين شعريين. وقد صدر هذا الديوان في طبعته الأولى عن «دار الشؤون الثقافية»، بغداد، سنة 1987 . أما النص الثاني فهو بدوره ديوان شعر، ويحتوي وحدتين : الأولى تتضمن سبعة نصوص شعرية، والثانية تتضمن ستة نصوص شعرية. وقد صدر هذا النص / الديوان عن دار «الرسالة» (كتاب العلم)، سنة 1988 بالرباط.

1 – في التحليل و«قراءة» المتن المقترح.

1.1. قبل ممارسة تحليل هذا المتن المشار إليه قبل قليل تستدعي الضرورة إثارة الانتباه إلى ملحوظة مركزية هي أن اختيار هذا المتن ليس مقصودا في حد ذاته ومن أجل ذاته، وإنما هو مجرد متن «تمثيلي» عام، لأن هناك نصوصا أخرى كان من الممكن الانطلاق منها، خاصة بالنسبة إلى الكاتبة (خناثة بنونة) التي تمتلك تراكما متنوعا بين القصة والرواية وغير ذلك. غير أن هذه الملحوظة لا تمنع من الاعتراف بأن اختيار هذا المتن ـ من جانب آخر ـ يحتوي على بعض القصدية، ومن ذلك التنوع والاختلاف : تنوع الكتابة واختلاف «الجنس الأدبي» الذي تؤول إليه النصوص المختارة المذكورة نقديا على مستوى التلقي والتصنيف والنمذجة. يضاف إلى ذلك البعد الدياكروني عند محاولة تطوير الاشكال الخاص

بالتشكلات، وهو البعد الذي يجعلنا وظيفيا ـ متى ألحت نزعة المقارنة ـ نطرح أسئلة تكوينية حول مدى التحول الحايث الذي طبع (يطبع) سيرورة «الكتابة النسائية» في المغرب، خاصة عندما ننطلق من نص سردي شبه منسي مثل «غدا تتبدل الأرض» مقابل نصوص لاحقة كنصوص الكاتبة (خناثة بنونة) وسواها في مجال السرد القصصي والسرد الروائي. ثم ـ من جهة ثانية ـ عندما ننطلق من رغبة الكشف عن طبيعة نبرة «الخطاب التخيلي» (من منظور الفرضية البنيوية) لمعاينة طبيعة تمظهر «اللغة السريدية» مقابل «اللغة الشعرية»، كما تمثل ذلك الشاعرة (مليكة العاصمي). بل إن هذا البعد الدياكروني ـ أحيانا ـ قد يوفر لنا إمكانات تعدد القراءات التفكيكية لسلط الخطاب الأدبي التخيلي في علاقته (علائقه) بخطابات و/أو «لغات متعددة ليس أقلها «الخطاب الايديولوجي» و«الخطاب التعليمي» و«الخطاب الأطروحي» وسوى ذلك من الخطابات المتقاطعة في نسغ الخطاب الأدبي حول الذات والمجتمع والهوية وما إلى ذلك.

2.1. سعيا وراء استراتيجية مثل هاته نقترح في مايلي تقديم المتن (النصوص المقترحة للتحليل) على مستوى الشكل والمورفولوجيا : أولا كمبنى ومتن حكائيين بالنسبة إلى نص «غدا تتبدل الأرض»، ونصوص «الصمت الناطق». وثانيا : كمعمار «استطيقي» بالنسبة إلى ديواني الشاعرة (مليكة العاصمي).

أ ـ يستند نص «غدا تتبدل الأرض» إلى هيكلية قد ننعتها منذ البداية بـ«البناء الكلاسيكي» لأن القصة فيه تحتكم إلى تنام

عمودي (خطي) تروي من خلاله فتاة مغربية هي (أمنة) قصتها الذاتية منذ أن كانت في «الرابعة عشرة» من عمرها (ص 9) وفقدت أمها، لتنتقل بعد ذلك إلى مدينة (الرباط) للدراسة قادمة من (أغادير) في جنوب المغرب. ثم تروي بعد ذلك حياتها في (الرباط)، وتعرفها في الثانوية على صديقتها (لطيفة) التي ستصبح زوجة أبيها، ثم تعرفها على (عبد الله) الذي أحبته والذي سيتحول إلى مناضل نقابي بعد أن طرد من المدرسة نتيجة تزعمه لاضراب الطلبة في «الداخلي» فيرحل إلى (أغادير) - مسقط رأسه بدوره، وعندما يحدث زلزال (أغادير) تعود (آمنة) لتبحث عنه، وعن أبيها وزوجته اللذين ماتا تحت الانقاض، فلا تجد أحدا، وتقضي حياتها مع امرأة مسنة، وصارت بدورها مناضلة نقابية.

إن هذا النص - رغم بساطته الظاهرة في نمط البناء الذي يظل محكوما على امتداد خمس وثمانية و مائة صفحة بمنطق «التسلسل» (Enchaînement) - يستعمل آليات أخرى نسيجه السردي. ومن ذلك ما نسميه نظريا «المحكيات الصغرى»(Les micro-récits) إلى حد أننا قد نراهن على فرضية وجود ما هو قريب من نمط «التضمين» (L'enchâssement) أو «التوليف» (L'enfilage)، أي وجود محكي مصغر (أو عدة محكيات) داخل المحكي - البؤرة أو المحكي - النواة الذي هو «محكي» (آمنة) المسرود والمعروض بشكل «مذوت» (Subjectif) منسوب إلى معين ضمير المتكلم منذ بداية النص : «كانت سني لا تتجاوز الرابعة عشرة، ولكن مشاعري مع ذلك لا تقل عن مشاعر فتاة في العشرين أتأنق في اختيار ملابسي، وأقضي الساعات أحيانا في ترتيب شعري،

وأحرص أن أظهر بمظهر المرأة الرزينة... (إلخ) (ص 9). ونمثل لهذا النمط من ورود المحكيات الصغرى بمايلي:

أ ـ محكي (عبد الله) الذي يكسر السرد العمودي لقصة (آمنة) كساردة ذاتية الحكي (homodiégétique) بسرد ذاتي بدوره تصبح معيناته بمثابة «تبئير» (Focalisation) تمارسه هذه الشخصية بعد أن قدمتها «الساردة» دون تحديد فيما سلف من خلال المقطع السردي التالي: «... فسارعت إلى الوقوف في صف طويل كان يتقدمني فيه طالب من مدرستنا سبق لي أن درست معه في أحد الأقسام الابتدائية بأكادير، وهو معي الآن في نفس المدرسة التي أدرس بها، فتشجعت بوجوده أمامي... (إلخ)» (ص 34). ويتخذ هذا المحكي صيغة «ارجاع ذاتي» نستطيع اعتباره «ارجاعا موازيا» بالنسبة إلى محكي (آمنة) الأصلي، لأنه بدوره يبدأ من بؤرة سردية أولى، ثم يلجأ بعد ذلك إلى «الايجاز». ويمتد هذا المحكي من صفحة (116)، حيث تقول الشخصية (عبد الله): «انتظري يا آمنة سوف أقول لك كل شيء عن حياتي، سوف تعرفين الحقيقة التي لم أحكها لأحد يوما ما...» (ص116) إلى صفحة (119) حيث ينغلق بتعليق آمنة / الساردة: «لقد أصبح حبي لعبد الله يملأ كل قلبي».

ب ـ محكي (أحمد)، وهو صديق (آمنة) و(عبد الله)، وطالب يدرس مثلهم بنفس المدرسة. وهو محكي متعدد البؤر السردية لأنه يتقدم في البداية كخطاب معروض، ويتحول بعد ذلك إلى ارجاع مبأر: في الحالة الأولى يقول (أحمد): «انه أبي معدم فقير لا يملك شيئا في الحياة وأنا ابنه» (ص 124)، وفي الحالة الثانية يقول

(أحمد) : «لقد كان أبي خماسا عند أحد أكبر الفلاحين المعمرين» (ص 125)، ويستمر الارجاع في شكل «موجز» : و«اعتقل أبي وسيق إلى السجن [...]، وقضى في السجن عشر سنوات [...] كفلني عمي [...] اختفت أمي [...] سهر على دراستي ... (إلخ)» (ص 126) وهو الارجاع الذي يتحول إلى «استباق» عندما نقارنه بإرجاع لاحق له، لكنه يسبقه حسب منطق «خطاب القصة»، حيث يقول لـ(أحمد) في نفس السياق : «لقد ولدت في البادية وتفتحت عيناي على جمال الطبيعة... (إلخ)» (نفس الصفحة).

ج ـ محكي أب (آمنة). ويأتي تقريبا في الخمس الأخير من النص، وفيه يستعيد الأب حياته في (باريس)، ويستعيد عدة مواقف من حياته، قبل أن يوافق على علاقة ابنته مع عبد الله. ويمتد هذا المحكي من صفحة (153) عندما يقول الأب : «انهيت دراستي في باريس سنة 1940». وينغلق بقوله في صفحة (155): «تيقني أن أية معارضة لن تصدر مني عندما تقررين ربط مصيرك به».

د ـ محكي أحد أصدقاء (عبد الله) بعد أن وقع زلزال (أغادير)، ويرد بدوره في نهاية النص ابتداء من صفحة (165) عندما يقول هذا الصديق : «سوف أحكي لك كل شيء، كنت مع (عبد الله) نتجول في المدينة، ووجدنا والدك أمام السينما وهو يغادر السيارة مع زوجته وأخيك خالد». وينتهي هذا المحكي بقول هذا الصديق : «لا تبكي يا آمنة ـ إن أي واحد لم يتصور يوما ما أن المدينة الجميلة أكادير سوف لا يصبح لها وجود وتنمحي» (ص 166).

وإذا كانت هذه المحكيات الصغرى بنيويا ظاهرة سردية ترتبط بخطاب شخصيات تتركها الساردة تتحدث عن نفسها بنفسها، دون وساطة من ذات أخرى، عن طريق مؤشرات خطابية قولية تتلون بتلون صيغة الخطاب وتحيينها من حالة إلى أخرى، وبالتالي تصبح محكيات وظيفية تندرج ضمن متوالية المحكي ـ النواة (؟؟ محكي (أمنة) كسارد مركزي ذاتي الحكي)، باستثناء المحكي الرابع ـ محكي الصديق (سعيد)، ص 166 الذي يقوم بوظيفة مساندة لما قد نسميه «المشهد» عندما يصف هذا الصديق زلزال (أكادير) قائلا : «وبرهة قفزت الأرض من مكانها في رقصة غريبة... بقيت أتدحرج معها في الشارع وانطفأت الأنوار، وانتشرت زوبعة مطبقة من الغبار ...] ودون أن أعي ماذا يحدث حولي كنت أجري بسرعة مذهلة كما يجري باقي الناس، وعدت إلى بيت عبد الله فوجدت أن العمارة تهاوى نصفها ووقفت أصيح عبد الله... عبد الله... (إلخ)» (ص 166) ـ فإننا نجد داخل نص «غدا تتبدل الأرض» ظاهرة سردية أخرى تقوم بوظائف معادلة لوظائف المحكيات الصغرى المذكورة إلى حدما. وهي ظاهرة «النص الموازي» (المُنَاصّ ـ Le paratexte). ونقصد بهذه الظاهرة ورود «نصوص» مستقلة نسبيا من حيث التمظهر التركيبي، ولكنها مضمنة في سيرورة النسيج السردي. ورغم اختلافها «الشكلي»؛ فإنها تشترك كلها في صفة «رسائل» تبعثها الشخصيات إلى بعضها البعض. ويتعلق الأمر بأربع رسائل تتلاحق داخل النص على الشكل التالي :

أ ـ رسالة (علي) إلى (فريدة) إحدى صديقات (أمنة) اللواتي يدرسن معها (ص 64/63)[1].

ب ـ رسالة (عبد الله) إلى (أمنة) بوصفه نائبا عن كاتبة عامة لنقابة مصابر السمك، يدعوها فيها إلى الحضور لاجتماع المسيرات (ص 89)[2].

ج ـ رسالة (عبد الله) إلى (آمنة) بعد طرده من المدرسة، ورحيله من (الرباط) (ص 135)(3).

د ـ رسالة (عبد الله) إلى (آمنة) مرة ثالثة، وفيها يتحول الخطاب من نبرة المرارة واليأس، إلى نبرة توحي بالأمل حيث تقول الرسالة: «عزيزتي آمنة. أكتب لك اليوم لأعبر لك عن مدى سروري وفرحتي بانتظار قدومك في عطلة العيد... كل شيء يسير على ما يرام... إن آمالي تتجدد في كل لحظة وكم أشعر الآن بجمال المدينة... مدينة أغادير... بطبيعتها الخلابة... سوف لا أطيل عليك وإلى اللقاء يا عزيزتي (ص 168/167).

3.1. ليست هذه الآليات وحدها هي التي تطبع اشتغال الخطاب السردي في نص «غدا تتبدل الأرض»، وإنما تسندها ـ من منظور التحليل التلفظي ـ مظاهر أخرى لا تندرج ضمن ما قد نسميه «تشكل الخطاب التخييلي» في تحبيك قرائن القصة بقرائن الخطاب، ولكنها تنتظم ضمن إشكال آخر هو طبيعة الملفوظ السردي من حيث هو خطاب متراكب السمات الدالة على الحكي الخالص؛ وهو تضمين «خطابات» (أو لغات) أخرى ـ بالمفهوم الباختيني ـ في نفس الوقت وحينئذ (قد) نراهن على مقولة «التهجين» التلفظي الذي يعني في حد ذاته «ملفوظا» ينتمي، حسب مؤشراته النحوية التركيبية والتوليفية، إلى متكلم واحد، لكن يمتزج فيه عمليا، ملفوظان، وطريقتان في الكلام، وأسلوبان، و«لغتان»، ومنظوران دلاليان وإجتماعيان (م. باختين، «الخطاب الروائي»، ترجمة: محمد برادة 1987، ص 66).

عموما : يتخذ نص «غدا تتبدل الأرض» صفة ملفوظ مسند إلى ضمير المتكلم («أنا») الذي يؤطر عمليات الترهين السردي منذ المقاطع الأولى في النص؛ ونادرا ما يتحول هذا الاسناد إلى ضمير المتكلم («نحن») كما في صفحتي (11/10)، عندما تقول الساردة : «لكن ما دور المدرسة في حياتنا نحن الفتيات، فتيات مجتمعنا بالأخص، إن هناك طريقا رسمها لنا الأجداد... (إلخ)». غير أن هذا لا يعني الثبات عند «نبرة» أو «لغة» واحدة، ومن ثم قد يراهن هذا الملفوظ على الوعي بالذات و/أو الوعي بالعالم الخارجي. ونمثل لذلك بمقاطع سردية مختلفة تجعلنا نحس بالفعل بورود هذه الهجانة هذا التعدد نسبيا رغم غلبة الطابع المونولوجي الذي يسم «الصوت السردي» :

- ص 11/10 : «لقد غادرت منذ لحظات البيت، وكيف هو البيت؟. إن عائلتي التي تسكنه يترأسها أبي وهو الرأس المدبر للصغيرة والكبيرة ولا كلمة إلا كلمته ولا رأي فوق رأيه فهو يفرض سلطته علي وعلى المجموعة الخاضعة لارادته. وعندما يدخل البيت ينكمش الجميع... (إلخ)».

- ص 12 : «إن الانسان يمتاز بخواصه الذاتية التي يحملها معه، وإذا كانت ملايير أشجار العالم لا تتشابه وتختلف، فإن الناس كذلك. كل إنسان يمتاز بمحاسن وتعيبه نقائص، لكن دادة عوضتني من الكل الذي فقدته في والدتي».

- ص 16 : «وقالت (سعاد) : لقد كانت المسكينة خالتي في منتهى اللطف والنبل. وفكرت في كلمة كانت... انها تعني الماضي المنقرض. فهل انقرضت أمي فعلا؟ هل ماتت حقيقة؟ أم أنني أعيش خيالا... إنني أشعر بفقدان صوابي، فأنا لا أكاد أفرق بين

الحقيقة والخيال... لقد أصبحت الآن نوعا من الحيوانات الهائمة التي لا تدرك واقعها».

- ص 21 : «بقي أن أعرف من أين لأبي بهاته النفسية المتحجرة، وكيف يحلل المواقف الدقيقة في وجود الناس بطريقة حسابية جامدة... الأمر واضح. إنها لغة الرياضيات التي درسها قبل أن يصبح مهندسا معماريا، والذين يحاولون دراسة الرياضيات، على حساب نفسياتهم يتحولون مع الأيام إلى قطع غيار في محركات كبيرة».

- ص 23 : »... ووجدت أن أبي ينافق صديقه الحارس العام، ألم ينس أمي بسرعة؟ ألم تكن أفكاره ملخصة في ترك العاطفة جانبا وتحكم الأرقام، إذ بالأرقام وحدها يمكن بناء مدينة كما قال غير مامرة، لكن الأرقام لن تعمر مدينة والانسان مجبور على العاطفة والمعاملة الطيبة حتى ولو نافق».

- ص 26 : « ... ولم أجدما أدفع به الحرج عني سوى الحقائب ففتحتها جميعا وبدأت أخرج بذلاتي وفساتيني الفاخرة فستانا بعد الآخر [...] وكأنني أصبحت عارضة أزياء».

- ص 29/28 : «ولاحظت من خلال خريطة العالم أن أفريقيا هي الأخرى تحتوي على قواعد عسكرية عالمية كما تشير بعض النقط الزرقاء في الخريطة فقلت مع نفسي أن هناك أشياء كثيرة تهم حياتنا بالدرجة الأولى ولا نوليها الاهتمام الذي تستحقه..».

- ص 32 : « ...إن النفسية الكبيرة هي التي تتألم عندما ترى الحياة لا تسير في مجراها الطبيعي ...»

- ص 40 : « ... ورجعت توا إلى غرفتي، ووقفت أمام المرآة أصلح شعري بينما انشغلت لطيفة في رفع ذراعيها إلى أعلى وإلى أسفل

متجهة نحو النافذة وفكرت في نفسي من تكون هذه المرأة؟ لن تستطيع أن تفرض وجودها على شخصيتي مهما كانت الظروف...».

- ص 46 : «وتوقفت السيارة. كنا قد وصلنا وزوجة أبي لم تنبس بنصف كلمة خلال الطريق، فالغضب أكل صدرها [...] بدأت تتحدث باسهاب عن أفكار راشية وقديمة في دماغها، فجمعت نفسي لمواجهتها».

إن هذه الأمثلة وغيرها(4) تؤكد فرضية استقطاب الصوت السردي ذي اللغة الواحدة فيما يبدو لعدة «لغات» واعية بذاتها وتصدر عنها «الذات المتكلمة». ولعل أول «لغة» يمكن الاهتداء إليها في ثنايا الملفوظ لغة إدانة المجتمع الأبيسي (أو الذكوري) كما نجد في النموذج الأول (ص 11/10) بصدد تيمة الأب. وهو النموذج الذي تلحق به نماذج أخرى (نموذج صفحة 21؛ نموذج ص 23)، غير أن هذه النماذج سرعان ما تتحول إلى «وجهة نظر أخرى تقترن بالذات مرة أخرى، وتأتي مقترنة بنبرة «متعالمة» (Savante) إلى حد أننا قد نراهن على امتزاج لغة السرد (السارد) مع لغة المؤلفة (الكاتبة). تضاف إلى هذه «اللغة» لغة «الوعي بالعالم» التي تتحول إلى لغة «ذات متعالية»، ومن ذلك ما يرد في نموذج (صفحة 29). وليست مثل هذه اللغة المذوتة وحدها هي التي تعبر إلى «لغة» النص، و إنما نجد في تنايا هذه الأخيرة لغات أخرى مترسبة، منها «لغة الجدل» حول «الذات» و«المجتمع» و«الوطن» و«الآخر». وإذا كنا نَنْسِبُ كلية لغة النص إلى الصنف الأول - لغة الجدل حول الذات - وإلى الصنف الثاني أحيانا - حول المجتمع، فإن مقاطع أخرى داخل النص تحيل إلى لغة الجدل حول «الوطن». ونقدم نموذجا لذلك من

مناقشة (لطيفة) - صديقة (آمنة) قبل أن تصبح زوجة أبيها - مع أب (آمنة) :

- ص 51 : «أوه... لا يمكن أن نعرف أن الهولانديين سعيدون بوطنهم في ظل خوف أو غير سعيدين، ورغم أنهم يشعرون بلذة الكفاح ضد البحر، فإن هذا يجعلهم يحسون بالضعف الممزوج بالقوة فالذي يحاول أن يحدثك ويسهب في حديده عن البطولة هو جبان في نفس الوقت [...] ولولا حب الهولانديين لوطنهم لما اختاروا أرضا في مستوى قعر البحر. إن هذا يدخل في حب الانسان للأرض وإلا فكم هم الذين هاجروا أوطانهم وهي تقع في مناطق عالية ومطلة على غيرها، لأن حب الوطن لم يتمكن من قلوبهم [...]. فما رأيك بـ (آمنة)؟.

إن هذا «الصوت» اللغوي - بالمفهوم الباختيني - يحفز «الآخر»، ويدفعه إلى الجدل والرد والحوار. ومن ثم تتعارض «الأصوات» وتتقابل، وتتحول الشخصيات إلى أبطال ايديولوجيين يمتلكون رؤية إلى العالم ويحاولون تمريرها، أو على الأقل دفع هذا «الآخر» إلى الكشف عن رؤيته ونواياه، لذلك ترد (آمنة) : «ان حب الكل يقتضي حب الجزئيات، والذي يحب وطنه حبا حقيقيا لابد أن يعبر الجبال والسهول والمناظر والطقس وكل جزئيات الوطن ومن يدعي حب الكل مع كراهيته لجزئيات الكل إنما يكذب على غيره أو يحاول أن يكذب على نفسه» (ص 52/51).

ورغم أن هذا «المنطق الاقناعي» الذي يطبع «صوت» (آمنة) قد يبدو «معقولا» لكنه يقع دون مستوى ما يصبو إليه «صوت»

(لطيفة) التي تريد أن تكون قطب جاذبية بالنسبة إلى غيرها. ولعل هذا هو الذي يجعل «صوت الأب يتعارض مع صوت ابنته فيعقب قائلا: «قد يكون كلامك هذا صحيحا إلا أن أخذ أي كلام على أساس اليقين أمر بعيد عن اليقين نفسه، فالعرب مثلا خرجوا من الصحراء القاحلة ورحلوا عبر الأراضي حتى بلغوا أطيبها، بل ووصلوا إلى الأندلس، إلا أن هذا لم يمنعهم من نظم الأشعار التي تتحدث عن بيئتهم القديمة بينما هم في بيئة تمتاز بالطقس الجميل والطبيعة السخية... (إلخ)» (ص 52).

إن هذه «الأصوات» - رغم أنها تندرج بنيويا ضمن ما قد نسميه بخطاب الشخصيات سرديا - تعكس «خطابا معرفيا» أو «خطابا ثقافيا» يلقي الظلال على الأوعاء الممكنة للذوات، وإذا كان «صوت» (لطيفة) يبدو «مقنعا»، فان «صوت» (آمنة) يأتي مكرسا بدليل أنها تعقب على قولها هي بالذات: «كنت أريد من كلامي أن أقصد واقع بيتنا أكثر مما أقصد غيره إلا أن أبي الذي لم يساعده تفكيره الرياضي على الالتقاء معي في الغاية المنشودة ردَّ عليَّ (نفس الصفحة). وعندما نتأمل «صوت» الأب، ونقارن بين حمولته «المعرفية» (الجدالية في ظاهرها) وبين خطاب (آمنة) ابنته حوله، فإننا نكتشف تقابلا بيّنًا بين عدة أوضاع لحقيقة شخصية الأب بحسب الصورة التي يرسمها هو لنفسه عن ذاته، والصورة التي تقدمها عنه ابنته (أي السارد)، دون أن نغفل صورة هذا الأب كشخصية يقدمها الكاتب، وبالتالي تتكشف داخل نفس الشخصيات أبعاد متعارضة ومتباينة. وليس هذا البعد وحده داخل الملفوظ السردي لنص «غدا تتبدل الأرض» هو الذي يسم اشتغال

وتشكل الخطاب التخيلي، وإنما نجد أبعادا أخرى ترتبط بالكون «الروائي» عامة، سواء على مستوى الفضاءات أو على مستوى «الأفعال» لمفهومها السيميائي، حيث يتحول هذا الكون إلى عوالم متآزرة بين الذوات أو مبنية على أساس الدسيسة والمؤامرة: تمثل المظهر الأول شخصيات (آمنة) و(دادة) و(سعاد) - بنت خالة (آمنة) - في الثلث الأول من النص، كما تمثله بعد ذلك شخصية (آمنة) و(لطيفة) - قبل أن تصبح هذه الأخيرة زوجة أبيها - في فضاء المدرسة الداخلية، وتمثله أيضا شخصية (آمنة) وشخصية (عبد الله) في مواجهة تسلط الادارة وتزعم حركة الاحتجاج في نفس المدرسة وتنفرد به في النهاية كل من (آمنة) و(عبد الله) على حدة بالنسبة إلى الدفاع عن مطالب العمال في (أكادير). أما المظهر الثاني فتمثله (آمنة) بالذات في الفترة التي تقع بين ذهابها إلى (الرباط) للدراسة وبين عودتها الأولى إلى (أكادير) لزيارة والدها الذي تزوج في غيابها، فتقرر أن تتخلص من هذه «المرأة» التي حلت محل أمها، فتعمل على التخطيط لزواج أبيها من صديقتها (لطيفة). ولكي ندرك هذا البعد نقدم المقاطع السردية التالية على سبيل التمثيل لهذا المظهر المذكور:

- ص 38: «ترى كيف ستكون هذه المرأة معي. لاشك أنها أوحت لأبي بعدم القدوم لاحضاري بعد العطلة، وهاته بداية للنهاية التي سأنتهي لها مع هذه المرأة... (إلخ)».

- ص 45/44: «...وظهرت [...] بمظهر المتكبرة، لأن الأنانية وحدها تنفع مع أناس لا يفهمون معنى التواضع، وأن التجاهل هو الجواب الصائب لمن يحاول أن يتجاهل... (إلخ)».

- ص 47: «امتد حصارها ثلاثة أيام تقريبا قررت بعدها فك الحصار مهما كان الثمن، ونسجت مؤامرة... (إلخ)».

- ص 48 : «... وملأتني نشوة فرح هي تلك النشوة التي يشعر بها كل من يحصل على انتصار، وكي يصل الانسان إلى هدف من الأهداف لابد أن يضع مخططا خلال مراحل، ويتبع المراحل واحدة واحدة، فلابد أن يصل إذن إلى المرحلة الأخيرة التي هي الانتصار. كانت خطتي أن أقرب أبي من لطيفة، وأقرب لطيفة من أبي لأنتصر على زوجة أبي وأحرمها منه كما أرادت حرماني منه».

إن هذا التشكل الخاص بشخصية (آمنة) وهي تمر بأطوار من التحول كشخصية إشكالية ونمطية هو الذي يجعلنا أحيانا ننسب خطاب نص «غدا تتبدل الأرض»، ونصنفه على أنه خطاب أطروحي. وقبل مقاربة هذا الجانب، ننتقل إلى مجموعة «الصمت الناطق» لمعرفة تشكلات الخطاب فيها.

4.1. شكليا : تتكون هذه المجموعة من اثنتي عشرة «قصة» هي على التوالي : «العزلة الموقوتة» (من ص 5 إلى ص 14)، و«الصمت الناطق» (من ص 14 إلى ص 37)، و«الورد السجين» (من ص 39 إلى ص 52)، و «السهرة اليتيمة» (من ص 53 إلى ص 64) و«فصل من العذاب» (من ص 65 إلى ص 76)، و«الأصناف والأضداد» (من ص 77 إلى ص 87)، و«الانتماء المؤجل» (من ص 89 إلى ص 100)، و«حوار الصم» (من ص 101 إلى ص 111)، و«الاستثناء الراجح» (من ص 113 إلى ص129)، و«فصل لم يكتمل» (من ص 131 إلى ص 146)، و«أصوات وصور» (من ص 147 إلى ص 161)، و«الوجه المراهق» (من ص 163 إلى ص 174)، ورغم الاستقلال الشكلي في البناء والشخصيات والفضاءات بين هذه النصوص، فإن أبرز مكون يفرض نفسه في

«قراءة» خطابها السردي هو مكون الملفوظ في حد ذاته، لأن «المتكلم» في كل قصة من هذه القصص يكاد يكون واحدا ووحيدا إلى حد قد نراهن على وجود «مونولوجية» لغوية تؤول في نبرتها إلى «صوت لغوي» بؤري لا يتخلص من نظرته إلى العالم الفعلي وإلى الكون المتخيل داخل كل نص على حدة. وهذا ما يدفعنا إلى المراهنة على فرضية احتكام الكتابة القصصية لدى (خناثة بنونة) إلى تشكيل سكوني وثابت لا يتغير رغم الايحاء بتبدل الشخصيات والفضاءات و«الأقوال» (الملفوظات) بين نص وآخر.

نعم : إننا قد نراهن ضمنيا على وجود رؤية للعالم تدور في فلك نبذ مجتمع القمع والاستبداد والبيروقراطية وخيانة المبادىء الحزبية، وهي الرؤية التي تعكسها في هذه النصوص «نبرة» الاحتجاج والادانة، غير أن هذه الرؤية سرعان ما تنقلب في نهاية المطاف إلى رؤية تراهن على ما يشبه التصالح. بعبارة أخرى : إن ملفوظ نصوص «الصمت الناطق» لا يحيد عن ثوابت قارة هي «الدعوة» إلى مجتمع عادل ومتكافىء وخال من التشيؤ، غير أنه وهو يعدد «نبراته» يظل محكوما بنبرة خطاب المؤلف (المؤلفة هنا) الذي يرد سبب الاختلال إلى «الأفراد»، وليس إلى «المؤسسات» رمزيا. وهكذا يسعى (سعد) في النص الأول إلى «انقاذ ما تبقى» (ص 14)، وتسعى بطلة النص الثاني إلى «ارضاء القهر الداخلي الذي ترعرع في ذاتها» (ص 17)، وتعاني بقية شخصيات النصوص الأخرى من «القلق» الوجودي : (مريم) في نص «الورد السجين» محاصرة من كل الجهات، متوزعة بين (عبده) المناضل والمجتمع الذي يتجسس على علاقتها من خلال عميد

الشرطة الذي يستدعيها للاستجواب والاستنطاق، وشخوص نص «السهرة اليتيمة» غير متماسكة نظرا للحصار المضروب على العلائق، و(مليكة) و(عائشة) في نص «فصل من العذاب» تحييان تحت تأثير هذا الحصار في المؤسسة التعليمية وهكذا دواليك.

وتقودنا هذه الملحوظة بصدد نمطية الشخصيات إلى افتراض خلفية رؤيوية مستحكمة في قصدية تشييد العامل المتخيل عبر النصوص وعبر خطاباتها المتمفصلة بين ملفوظ الذات المتعالية وملفوظ هذه الشخصيات. ولعلنا لن نجافي بعض الحقيقة إذا سلمنا بوجود موقع رؤيوي مشترك بين كل الأصوات اللغوية (باختينيا) هو موقع الرؤية الخاصة بخطاب (ملفوظ) المؤلفة (الكاتبة) من منظور أدلوجوي يكاد لا يتغير، لذلك تنهض بين هذه النصوص علائق تشاكلية تؤول كلها إلى ملفوظ بؤري هو ملفوظ «الكاتبة» التي تمرر من خلال كتابتها السردية ملفوظها الخاص، ولذلك أيضا تهيمن المونولوجية وتتناص النصوص كملفوظات الخاص، ولذلك أيضا تهيمن المونولوجية وتتناص النصوص كملفوظات مذوتة Subjectivées. بعبارة أخرى: إن «اللغة» الأساسية في نصوص مجموعة «الصمت الناطق» هي لغة «المؤلف» الذي يتكلم لغته دائما، ويجعلها لغة الشخصيات، وبالتالي ينحسر الانفتاح على «الاخر». ومتى تصورنا فرضيا وجود «لغات» أخرى في ثنايا الملفوظ، فهي تظل محكومة بنوايا الكاتب الذي لا يكسرها، ويتركها صوته - تبعا لذلك - لغة محنطة وجاهزة. نعم: ان «لغة» نصوص هذه المجموعة لغة أدبية سردية، وتنفتح على خطابات أخرى في المجتمع، غير أن هذا الانفتاح يظل شكليا، ولا

يراهن على الصوارية الممكنة. ولكي ندرك هذا الاصرار على لغة واحدة ووحيدة نسوق الأمثلة / النماذج التالية:

ـص 6 : «شهقت ولم تجب. فبالأمس، نزفت دمعا ودما، أدانت التفاصيل الصغيرة لليومي قبل المؤسسات والبنى والهياكل. أجرت مسحا للساحة العربية وعشقت الطوفان. قالت : إن العالم يلغينا، فيجب أن نحاوره بنفس لغته : الدمار»

من نص «العزلة الموقوتة»

ـص 27 : «وفكر : الشخص الاداري لولب دائر على الساعة، زمن الادارة المركزية بالخصوص، وقت الأكل وقت النوم وقت الذهاب ووقت الاياب [...] ولأن اليومي هو التاريخي، فإن الموظف أصبح دون تاريخ...».

من نص «الصمت الناطق»

ـ ص 47 : «تنفضح الكتل والعلاقات والروابط وخزي المدينة ولا معناها ويصبح حتى حق الحلم ممنوعا. السلطة : الفعل المعاكس للحياة يتدخل، وأنت أيها السيد المستأسد في القضية ومن أجلها هو المقصود، ذلك حتى هذا الوهم، ولو للحظات، يريدون أن يصادرون».

من نص «الورد السجين»

ـص 57 : «لكن هلا تدري أنني لو ملكت أن أقود ولوعرفت لقدتكم نحو أرض جديدة، بانسان جديد وعلاقات جديدة وقلب جديد. غير أنها تذكرت : أليس هو، أحد القلة، المسكونين بنبض هاته الارض!».

من نص «السهرة اليتيمة»

ـص96: «وسار ...وفي السير كانت القضية وكان الوطن، وبذلك تعددت المحطات، استراحة ومنطلقاً، وحقق قفزات نوعية ودلالية،

سواء في الرسم أو السينما، أو المسرح، وكان التغيير هاجسه ولوعته».

من نص «الانتماء المؤجل»

- ص 140: «المنطق حياك الله يا منطق عصر الاختلال : في الحقوق والواجبات، والديموقراطية والفرص المتساوية، والشغل، واللقمة، والحرية، والبناء، والانتصارات، والتطوير والقيم والحضارة : ألف رحمة ورحمة عليك يا عصر البحث في الصقع القاسي».

إن هذه «الملفوظات» - رغم اختلافها الشكلي - تظل محكومة في الصوغ اللغوي الايديولوجي بمنطق ذات متعالية لا تتحرر من قناعتها الخاصة. ومن ثم تهيمن نبرة متكلم واحد يتكلم لغة واحدة. نعم إن هناك نصوصا تكسر هذه النبرة عن طريق تكسير «الشكل» القصصي - مثلما نجد في نص «فصل من العذاب» حيث يتم التوليف بين عدة «أصوات» في الظاهر[5]، أو نجد في نص «حوار الصم» حيث تتخلص اللغة السردية من نمط البناء الواحد إلى البناء المزدوج[6]، غير أن هذا يظل مجرد تنويع أسلوبي تشكلي لا يتجاوز نبرة «صوت المؤلف». وتضاف إلى هذه السمة خاصية الاحتكام إلى نبرة تقرب لغة الخطاب السردي من نبرة «اللغة الشعارية» التي تحول لغة النص إلى لغة خطابة. بمعناها الحرفي والاحترافي مثلما نجد في النموذج الأخير المذكور قبل قليل (النموذج السادس، ص 140).

إن الأمر يتعلق - في تقديرنا، وانطلاقا من هذه الملحوظات الجزئية الخاصة بلغات النص - باشكال مركزي سبق أن أشرنا إليه

قليلا عند مقاربة نص «غدا تتبدل الأرض». وهو إشكال تشكلات الخطاب التخيلي في الكتابة النسائية بالمغرب. وإذا كنا نراهن في الاستنتاج على نوع من تقصد الحداثة الجمالية في ترسيخ كتابة سردية مخالفة نسبيا للمعتاد من الأشكال الأدبية قبل نهاية الستينات بالنسبة إلى نص (فاطمة الراوي)، فإننا نتسائل مع نماذج (خناثة بنونة) : ما هو التصور الذي تصدر عنه الكاتبة في تشييد عوالم نصوصها، و في نحت الشخصيات و الفضاءات وتكريس الرؤيات ؟ و ما هو أفق الإنتظار الذي تخلقه كل من (فاطمة الراوي) و(خناثة بنونة) بعدها بما يقرب من ثلاث وعشرين سنة تقريبا؟

إن النموذج الاستطيقي الذي يكمن في خلفية «غدا تتبدل الأرض» نموذج محكوم بنوع من القالبية الجاهزة في تمثل الواقع. ولا يتجاوز هذا النص - انطلاقا من فعل القراءة الموجه لتتبع هذا النموذج - نمط «القصة الميلودرامية» التي تجمع بين النظرة المثالية والتأكيد على أدوار التحول الخاصة بكل شخصية على حدة، وبالشخصية الرئيسية التي هي تلميذة مغربية فقدت أمها، وتعيش العزلة، ثم تعمل على مواجهة مصيرها بعد أن فقدت أباها وفقدت حبيبها في زلزال (أغادير). ولعل هذه النزعة الميلودرامية هي التي تجعل نص «غدا تتبدل الأرض» يتضمن عدة مواثيق جمالية في القراءة : فبقدر ما قد نقول إنها «رواية اجتماعية» لأنها ترصد واقع شريحة محددة إجتماعيا هي شريحة البورجوازية المدينية التي تشكلت في المغرب بعد فترة الاستقلال، بقدر ما قد ترتبط في خطابها الإجتماعي (المجتمعي) بنبرة خطاب

تعليـمي حـول هذا الواقع، وبذلك تتـشـابك داخل خطاب الروايـة السـردي التـخـيلي خطابات أخرى منهـا : «الخطاب النفـسي»، و«الخطاب الايديولوجي»، و«الخطاب السياسي»، فيتحـول خطاب النص بذلك خطابا أطروحـيـا لأنه ينقل الذات من لحظة «الجـهل» إلى «المعـرفـة». ولذلك يمكن المراهنة ـ من خـلال قـراءة هذا النص قـراءة تفكيكيـة ـ تأويليـة للخطاب والرؤية ـ على اعـتـبـار «غـدا تتبدل الأرض» ـ بالنسبة إلى نصوص روائية مغربية أخرى ظهرت في نفس المرحلة (سنة 1967)، وقـبلهـا أو بعـدها بقليل ـ «روايـة أطروحـة»، لأنها تحمل بالفعل تعاليم وأدلوجة خاصة حول المجتمع والواقع والانسان والمؤسسة والسلطة، خاصة من خلال خطابها حول «الأسرة»، وحول «الطبقة العاملة» وغير ذلك. وقبل تعميق النقاش حول هذه الأبعاد، وحول الأسئلة التي طرحناها فيما سبق نشير إلى بعض المكونات التشكيلية التي طبعت (تطبع) خطابا آخر، هو الخطاب «الشعري»، كما تمثله الشاعرة (مليكة العاصمي). وقـبل مـباشـرة ذلك نود أن نشير كذلك إلى أن اختـيارنا لهذه الشاعرة يعود بالأساس إلى دافعين أساسين هما :

أ ـ قدم تجربة (مليكة العاصمي) في الزمان والمكان بالنسبة إلى تجارب شواعر مغربيات أخريات مثل (ثريا ماجدولين) أو (وفـاء العـمـراني)، حـيث نجد أن (مليكة العـاصمي) قد تنسب إلى جيل النقلة التي تمت منذ تباشير السبعينات أو قبلها بقليل. وهذا ما تؤكده هي ذاتها عندما تقول في تقديم ديوانها الأول : «أزعم مع نفسي أن هذا الديوان يقدم لحظة تاريخية [...] لذلك أضعه للطبع رغم أنه ينتمي إلى نقلة السبعينات...» (من ديوان «الكتابة خارج أسوار العالم»، ص 5).

ب - رغبة مقاربة هذا الخطاب الشعري لمعاينة تكونه وتكوينيته بالنسبة إلى الخطاب السردي القصصي كما تمثله الكاتبة (خناثة بنونة) في «الصمت الناطق»، وبالنسبة إلى الخطاب السردي الروائي كما تمثله (فاطمة الراوي) في «غدا تتبدل الأرض».

5.I. إذا كنا مع نص «غدا تتبدل الأرض» نراهن على طبيعة البناء في تشييد المحكي، ومع نص/نصوص «الصمت الناطق» نراهن على طبيعة الملفوظ وتمفصله بين لغة/نبرة «صوت المؤلف» ولغة/صوت السارد/الشخصيات، فإننا مع نصوص ديوان «كتابات خارج أسوار العالم» نراهن على طبيعة التيمات التي تتحرك في ثنايات المتن واللغة الشعريين. وهي في تقديرنا ثلاث تيمات : الأولى تتعلق بفعل الكتابة الشعرية وسيرورتها، والثانية تتعلق بعلاقة الذات بالعالم. أما التيمة الثالثة فهي التي تظل مشدودة إلى تقابل المرأة/الرجل. ولابد من الإشارة في هذا السياق أن هذا (قد) لا ينسحب فقط على تجربة (مليكة العاصمي) وحدها؛ بل إننا نجد شبيه ذلك في مشروع (خناثة بنونة)، كما قد نجد بعض ملامحه في تجربة (فاطمة الراوي) خاصة على مستوى تيمتي علاقة الذات بالعالم وعلاقة الرجل بالمرأة، أما بالنسبة إلى تيمة الكتابة فإن الشاعرة (مليكة العاصمي) والكاتبة (خناثة بنونة) وحدهما اللتان تغذيان هذا البعد الذي سنعمل على توضيحه فيما بعد بالنسبة إلى (خناثة بنونة).

إن أول سؤال يفرض نفسه بالنسبة إلى ديواني (مليكة العاصمي) هو سؤال : من «يتكلم» داخل النصوص الشعرية؟ هل

«الشاعرة» كذات مباشرة باعتبار البعد الغنائي للخطاب الذي يجعل لغة الشعر لا تلجأ إلى توسيطات Médiations وتبعيد، Distanciation؟ أم أنها «ذات متعالية» (تراتسندنتالية) على غرار نصي «غدا تتبدل الأرض» و«الصمت الناطق»؟.

إذا كانت (خناثة بنونة) تؤجل الحديث عن تيمة الكتابة إلى نهاية مجموعتها لتتحدث عن اختيار الكتابة وشروطه من خلال نص «النزيف الحزين» (ص 175/ ص 177) في صورة «توضيح»، فإن (مليكة العاصمي) توجه متلقي الديوان منذ البداية من خلال نص مركزي يمكن اعتباره بمثابة نص عبر تناصي يفرش ظلاله على بقية نصوص الديوان، وهو نص «رؤيا» (ص 6) الذي يتخذ الملفوظ إطارا إشكاليا بالنسبة إلى ممارسة فعل الكتابة في علاقته بالرؤية إلى العالم. يقول النص :

«يجب أن نعلم كيف نرفض أن تداس إنسانيتنا. الكرامة قبل كل شيء والكرامة لا تتحقق إلا بالرفض والثورة. في الانسان، كل إنسان، جذور عميقة للأنانية والاستغلال، لكن مادامت هناك عناصر قابلة لهذه الاهانة وهذا الاستقلال.

هناك دائما سيد مادام هناك عبد.

مشكلة هذا العالم أنه عالم مفترس نفتقد فيه الانسان النظيف الواعي. ونتطلع أحيانا فتجرفنا النظرة التشاؤمية إلى الاعتقاد بقذارة أعماق العالم، و بالتالي بلا جدوى الكفاح من أجل الأفضل،

لأن ذلك الأفضل معرض دائما للإنتكاس بحكم خضوعه لظروف موضوعية خضع لها سلفه.

دورنا في هذا العالم كدور المصارع، يجب أن نكون على استعداد دائم للكفاح من أجل الحصول على حقوقنا ضد قوى الظلم الكثيرة، وضد أنواع الحرب المختلفة التي تحطم قوى الانسان في هذا العالم المتحضر.

واجهة أخرى للصراع لدى الانسان الحديث الذي دنسته مشكلات العالم، فشحنته بالحقد : أن يصارع في أعماقه من أجل محبة الانسان والتقارب معه، لأن هناك باستمرار مستفدين من هذه الأحقاد والكراهيات».

بداهة : ان نصا بمثل هذه الحمولة وهذه النبرة (قد) يطرح العديد من الأسئلة؛ وفي مقدمة ذلك سؤال : كيف سنتعامل معه ضمن مورفولوجية الدوان؟ هل نعتبره «خطابا افتتاحيا Discours préfacial؟ وما هي علاقته الوظيفية بالنسبة إلى مجموع النصوص الشعرية التي تعقبه داخل الديوان؟ هل نعتبره خطابا بعديا؟ ثم ماهي السمات التي تجعله ذا وظيفة (ما)؟

إن أجوبة عديدة تفرض نفسها في هذا السياق من منظور عملية «القراءة» و«التلقي» النقديين. ولعلنا لن نبالغ إذا اعتبرنا هذا «النص» ملفوظا بؤريا يعكس «صوت الكاتب» الذي ينظم حركة مرور «خطاب المؤلف» (المؤلفة هنا) إلى ملفوظ النصوص

الشعرية، وحتى إذا كان يتخلص من صيغة التذويت ويجنح جنوحا موضوعيا (أو توضيعيا)، فإنه يظل محكوما بنبرة ذاتية نظرا إلى النبرة التي تسوده وهو يسطر ماقد يشبه «التعاليم» من خلال قاموسه «اللغوي» (باختينيا)، ومن خلال التيمات التي تجعله خطابا رؤيويا بعد الذات والمجتمع والواقع، على أنه في هذا السياق ينشط إلى رؤية (أو على الأقل وجهة نظر) خاصة تجاه هذه المقومات. ولأن الأمر كذلك فإن هذا النص يتخذ بالفعل صفة نص هجين يحاور العديد من المواقع والملفوظات الدائرة في المجتمع والفكر رغم الطابع المثالي العام الذي يطبعه. وسؤالنا الذي يترتب عن هذا التخريج هو : ماهي القيمة المرجعية بالنسبة إلى النصوص الشعرية التي يضمها الديوان؟ وهل يتعالق معها؟.

عموما : إن «اللغة» التي تحتكم إليها «لغة» النصوص الشعرية التي يضمها ديوان «كتابات خارج أسوار العالم» لغة تغترف من حصيلة من اللغات الشعرية التي ترسخت في تجربة الشعر العربي الحديث إلى حد أننا قد نراهن على مفاهيم «التناص» و«الحوارية» و«التحويل» في قراءة هذه النصوص وإحالتها على (إلى) نماذج محددة من شعر الديوان العربي الحديث منذ لحظة انبثاقه على يد الرواد الأوائل (السياب والبياتي وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي) خاصة بالنسبة إلى المعجم اللغوي أسلوبيا و بالنسبة إلى التيمات التي طرحها هؤلاء. ولتقريب هذا التصور من الفهم والادراك، نسوق بعض المقاطع للدلالة على هذا الافتراض :

أ - «حملت مثلما يحمل ملاح يجيء من مدينة الأصداف
تتبعه أثقاله الثمينة...
أبحرت في عيونكم من دونما سؤال
ليس معي فنار
حلمت بالنهار
حلمت بالشبابة التي خلدها أصحابنا القدامى
رحت أرعى أثرا نديا من رطوبة البحار
وجدتكم مقلصين يابسين
وجدت في عيونكم كثافة السهر. (إلخ...)

ص 11/10 من «البحار»

ب - لو تعرفون بلدتي يا أصدقاء
في بلدتي يعشش الشذوذ... الانحراف
يدخن الكيف ويؤكل الحشيش
و«المعجون»
في بلدتي يعبون الكحول
يسرقون... يعتدون.
صغار كل حارة تكتلوا عصابات عملية
تمارس السقوط والجريمة
تعجب بالسكارى والمشاغبين
وبلاعبي الجيدو... (إلخ)

ص 40/ ص 41 من «تعاستي»

ج - «صديقي...!
مازال عطرك في خصلاتي القصار
يغرد...

يفعم قلبي جوعا...
نداء..
نباح..
ويقدح جسمي بركان نار
ونهدي زمجرة من لهيب !
أدور...
ولكنه ليس غيرك هناك... (إلخ).

ص 64 من «القصيدة المسعورة»

ولا شك أن «قراءة» عمودية تفكيكية لهذه المقاطع وسواها في الديوان ستردنا رأسا إلى مسألة الذاكرة الشعرية العربية الحديثة التي تبسط ظلالها على نصوص الشاعرة (مليكة العاصمي)، وتجعلنا في نفس الوقت نراهن على حضور «النص الغائب» والحاحه في توجيه نبرة الخطاب ومن ذلك شعر (عبد الوهاب البياتي) و(صلاح عبد الصبور) بالنسبة إلى موضوعات الغربة والزمن والمدينة، وشعر (نزار قباني) بالنسبة إلى نبرة الاحتجاج والادانة تجاه المجتمعات العربية (نموذج (ب)، ص 40/ ص 41 مثلا).

وهكذا تتحول إبداعية الخطاب الشعري إلى نبرة بارودية تعمل على تحويل قصدي لمعجم اللغة الشعرية من سياق إلى سياق. وهكذا أيضا تتباعد العلاقة الوظيفية بين خطاب المقدمة في الديوان وبين انجاز معادل (معادلات) له في ملفوظ النصوص الشعرية الموازية له تجاوزا، لأن خطاب المقدمة ذاته (نص «رؤيا»، ص 6) يتهجن ويستقطب لغة أخرى تبدو في مضمونها العامر لغة

محكومة بقوالب جاهزة مغيبة، وليس لها أدنى دينامية في التشكيل والتخيل الممكنين. بعبارة أخرى: إن عملية التلقي التي تحايث لغات النصوص الشعرية في هذا الديوان - إلى جانب نصوص أخرى لا يسمح التحليل المختصر الذي نقدمه بإثارتها - عملية مستعصية، حيث نكون إزاء تجربة شعرية تنسب نفسها إلى عقد الثمانينات، ولكن خطابها مسكون بحمولات تردنا إلى أجواء القصيدة العربية عامة، والقصيدة المغربية خاصة، في مرحلة سابقة. ويتضح هذا بجلاء في البناء والتشكل والمعجم الشعري.

إذا كنا مع ديوان «كتابات...» نراهن نسبيا على تلاقح اللغة المدونة مع لغة تنحو منحى «التوضيع» (Objectivation)، فإننا مع ديوان أصوات حنجرة ميتة» (98 صفحة) نصطدم بلغة واحدة ووحيدة، هي لغة «المرأة/الأنثى» المعذبة (؟) الحالمة (؟) المعاصرة والسجينة (؟) التي «تتذكر» أيامها مع «من رحل» و«تركها» أو «هي تنتظره» و«تنتظر عودته»(؟). ولأن الأمر كذلك فإن أغلب نصوص الديوان تدور في فلك تيمة واحدة تتكرر، ويتكرر معها ملفوظ يعبر عن «الانتظار». نسوق كأمثلة لذلك ما يلي:

أ - مجلسه كان قبالتي
كنجمتين
ترنوان
وتعبران [...].
... ونحن في هذا المساء سنفترق
يمضي وحيدا في الصقيع والمطر
ووحدتي تعبرها الأحزان

والسجائر المدوسة
وذكريات كلمة محبوسة
حروفها نار ونور
تضيء في دمائي وتثور :
«إني أحبك».

ص 17/16، من «في مراري إليك أفقدك»

ب ـ «ونحن في هذا المساء... نفترق
ستغرق السماء جسمه
بأدمع الرحيل
واستمر في سريري المكهرب النحيل»

ص 22، نفس النص السابق

ج ـ وارتجي
يطول الانتظار
مشتاي، صيفي أكؤس مترعة... (إلخ)»

ص 28، من «وثيقة لم توقع»

د ـ «سألت نفسي...
لكنما الجواب يا صديقي غارق في نفق بعيد
لو فتحته وقلت لي :
«أحبك»
كنت أقول لك :
«مخطئة أنا»
«مذنبة أنا»
لكنما

ذهبت...

لم تقل شيئا لقلبي»

ص 38، من «الحمى في القلب والرأس»

هـ ـ «اذا رحل

يركض خلفه قلبي كطائر غريب

تلفحه الرياح واللهيب

من العصافير الصغيرة

الزغيبة الجناح

تتعبها المسافات الطويلة والرياح (إلخ)».

ص 44، من «الرحلة المقدسة»

ربما قد يكون الشعر أكثر «اللغات» الأدبية تمثيلا لصوت المؤلف، لأنه لا يتخذ وسائط كالخطاب السردي أو الخطاب المسرحي وغيرهما من الخطابات المندمجة نسبيا، ومن ثم تحضر «الذات» حضورا نمطيا في القول الشعري، غير أن هذا لا يمنع من وجود «ملفوظ» متوزع بين مواقع قد تسترفد من نبرات أخرى «لغويا». وإذا كنا ـ كما سبقت الاشارة ـ نعتبر الديوان الأول للشاعرة (مليكة العاصمي) ديوانا يحاور لغات وجودية وتيمات إنسانية مثالية، فإننا نعتبر الديوان الثاني بمثابة ارتداد إلى بؤرة لغة واحدة هي لغة الذات، ولذلك تهيمن على لغة النصوص فيه نبرة صوت المرأة/الأنثى في مكابداتها تجاه الحرمان والجحود والعزلة والتهميش، وإن كان ذلك من منظور رومانسي حالم. وبهذا يفتقد الديوان دافعيته في الاقناع والتحفيز والانتماء إلى السياق

المواكب له بحيث تتحول لغة النصوص الشعرية بأجمعها كتلة من الملفوظات المونولوجية الرسوبية والمستقرة دون أن تتمكن من تفجير رؤية إلى العالم تكون بمثابة تطوير لحمولة الديوان الأول نسبيا. ولكي تعمق هذه الأطروحة نسوق للتدليل على هذه الأبعاد مقاطع شعرية تثير هذا السياق :

أ ـ تجيء كلما أنساك
تزور زورة شحيحة
عيناك بركتا حنان
كثفتا من غابر الأزمان
عمقتا بالحب والأحزان..»

ص 48، من «الانتكاس»

ب ـ «نلتقي كأصدقاء
تعارفا يوما وغيب الزمان
ظلهما
ولم يعودا يذكران
ما اسمهما؟
وما اسمه؟
وكيف قد تم اللقا...؟
ويمضيان...

ص 52، نفس النص.

2 ـ خلاصات عامة واستنتاجات.

1.2. لقد كان الهاجس والدافع اللذان تحكما في هذا التحليل/المقاربة هو تقديم متن نموذجي للكتابة النسائية في

المغرب من خلال نموذجين سرديين لكاتبتين مغربيتين، ونموذجين شعريين لشاعرة واحدة : إلى جانب طرح إشكال بصدد التشكلات التي تمس جانب الخطاب التخيلي في علائقه باللغة والملفوظ أساسا من منظور بعض المقترحات التي توفرها نظرية هذين الحقلين وقد تبين لنا بعد تفكيك حمولات هذا الخطاب التخيلي أن الأمر يتعلق بإشكالية قلما انتبه إليها النقد المغربي المعاصر، هي إشكالية الكتابة النسائية ذاتها : هل هي كتابة قائمة بالفعل أم هي قائمة بالقوة؟

2.2. عموما : إن السياق الذي تحكم في ظهور نص مثل « غدا تتبدل الأرض » هو سياق موضوعي جعل الرهان على الكتابة السردية لدى (فاطمة الراوي) جزءا لا يتجزأ من مشروع تحقيق هوية المرأة في مجتمع ما بعد الاستقلال. ولهذا السبب لا تقل قيمة النص الذي حللناه في بعض جوانبه عن قيمة نصوص سردية روائية ظهرت (تكون قد ظهرت) في نفس الفترة، وذلك على مستوى الشكل والدلالة، وعلى مستوى الملفوظ واللغة المحايثين للغة الخطاب السردي، بل إننا قد نذهب أبعد من ذلك فنعتبر نص « غدا تتبدل الأرض » نصا روائيا نموذجيا في لوحة الرواية المغربية الحديثة، وان كان النموذج الذي تراهن عليه الكاتبة متوزعا بين « القصة الاجتماعية » و« الميلودرما » تحت تأثير سياق الثقافة الجديدة المستحدثة وأطرها المرجعية (السينما، المسلسلات)، وتأثير سياق ثقافة نسائية محددة تجعل هذا النص أقرب ما يكون إلى « الرواية المصورة » (Photo-roman).

وإذا كنا نعتبر هذا مظهرا استنساخيا، فاننا ـ من جانب آخر ـ نعتبر «غدا تتبدل الأرض» إنجازا جزئيا على مستوى تحديث الشكل السردي وتحديث الخطاب الروائي المغربي الحديث. يضاف إلى ذلك أن «الصوت اللغوي» صوت «امرأة» تقدم عن ذاتها وعن محيطها صورة محايثة تعكس بعض أسئلة الحداثة الاجتماعية أو أسئلة تحديث المجتمع المغربي، خاصة على مستوى ثنائيات المرأة مقابل المرأة، المرأة مقابل الرجل، الرجل مقابل المرأة، ثم الرجل مقابل الرجل. وكما تتضح حداثة الشكل السردي على مستوى توظيف آليات المحكيات الصغرى وآليات النص الموازي (المناص) كما سلف في التحليل، تتضح أيضا على مستوى إمكانات صوغ دلالة قصدية تهدف من خلالها كاتبة النص تقريب سلطة التخييل من موضوعاتية ترصد المجتمع المغربي من خلال مشروع استطيقيى يستمد مادته من تفاعلات الخلفية السياسية والاجتماعية والثقافيية والتاريخية والفكرية. وهكذا يستثمر نص «عدا تتبدل الأرض» طاقات صنعة شكلية في التعامل مع المرجع، ويؤطرها ضمن وظائف عدة أهمها وظيفة «التلقين» Apprentissage عن طريق خلق محكي يراهن من خلال عملية تلقيه على تحفيز الخطاب والملفوظ في أفق دلالة نمونجية أساسها الكشف عن بنيات الصراع بين الذوات المتفاعلة في ثنايا هذا المحكي كشخصيات محتملة ورموز إحالية على المجتمع المغربي الناهض في لحظة اكتمال دورة الخمسينيات وانفتاح دورة الستينيات.

3.2. ليس مكون الآليات وبنيات الصراع وحده هو الذي يضع هذا النص في طليعة النصوص المغربية السردية التي راهنت على

تقريب الخطاب التخيلي من أسئلة التحول النوعي في الكتابة الأدبية في علاقتها بالمجتمعي، وإنما تضاف إلى ذلك آليات شكلية أخرى منها آلية اشتغال الزمن السردي في علاقته بالزمن المرجعي. وهي الآلية التي تجعلنا نراهن مرة أخرى على تحقق قصدية صنعة نموذجية في تحريك الخطاب السردي، وجعله يتجاوز التصورات التقليدية التي كانت مطبوعة بالخطية واستبداد الرؤية من الخارج : إن نص «غدا تتبدل الأرض» في هذا الاطار بقدر ما يتعامل مع زمن مرجعي مباشر هو نهاية الخمسينات وبداية الستينات (ما قبل زلزال أغادير بسنة تقريبا)، بقدر ما تخلخل زمنية النص عن طريق تقنيات متقدمة كالتبئير(7) والتسريع(8) والموجز(9) وغير ذلك.

4.2. أما نصوص مجموعة «الصمت الناطق» فإنها ـ رغم ممارسة الكتابة (خناثة بنونة) للكتابة منذ ما يقارب ثلاثة عقود، وربما أكثر ـ تظل نصوصا محكومة برؤية استطيقية ثابتة لا تتحول عن لحظات تشكل القصة المغربية القصيرة قبل السبعينات بأشكالها وموضوعاتها ولغاتها ووظائفها. وفي هذا السياق نستطيع المراهنة على أسئلة إشكالية تعززها كتابة (خناثة بنونة) من خلال هذه المجموعة هي أسئلة الشكل والدلالة اللذين يظلان حبيسي نظرة أفقية للأدب والمتخيل والمرجع إلى حد أننا قد نتساءل ببساطة : لماذا تكتب (خناثة بنونة)؟ ولمن تكتب؟، وحتى إذا سلمنا بوجود تصور محايث لمثل هذه الكتابة لدى (خناثة بنونة)، فإننا لن نعدم بعض الحق إذا اعتبرنا شكل القصة القصيرة لديها شكلا ذا قالب تكراري في بنائه وفضاءاته وموضوعاته وشخصياته. ويتجه

الملفوظ ضمن هذه الأبعاد وجهة مونولوجية يهيمن فيها خطاب «المؤلف» بشكل راسخ على ملفوظ الشخصيات المتخيلة المنحوتة في ثنايا النصوص، رغم الايهام بحوارية يعقدها مع خطابات ولغات ايديولوجية بتماوج فيها السياسي مع القومي - العربي ويتقاطعان، كما تعكس ذلك نصص كثيرة في هذه المجموعة إن لم تكن أغلبها.

5..2. إذا اعتبرنا مجموعة «الصمت الناطق» حالة وسطى - على مستوى الملفوظ - بين ملفوظ «غدا تتبدل الأرض»، وملفوظ ديواني الشاعرة (مليكة العاصمي)، فإن هذا الأخير ينشد بدوره إلى نبرة غالبة هي نبرة ذات متعالية «تتكلم» في النص الشعري (النصوص الشعرية) لغة مكرسة، هي لغة الحرمان والعزلة، الشيء الذي يقرب لغة الديوانين معجميا من معاجم الشعر العربي بكل تفريعاتها الرومانسية والمثالية - الاستيهامية، وهو الطابع الذي يغلب على لغة الديوان الثاني «أصوات حنجرة ميتة» مقابل لغة نمطية تنشر ظلالها على نصوص الديوان الأول، وتجعله يحاور رسميا «لغة» شعر (البياتي) و(حجازي) و(عبد الصبور) ويسترفد منها بشكل تحويلي بين يجعلنا نطرح سؤال : هل هو «قلق التأثير» الذي تحدث عنه (الوران جيني) «استراتيجية الشكل» (مجلة «شعرية» (Poétique) عدد 27، 1976، ص 258)؟ وكأن الأمر «عقدة أوديب حقيقية لدى المبدع الذي يسعى إلى تغيير النماذج»؟.

الهوامش :

(1) «عزيزتي فريدة : يظهر أن الوقت قد حان لتنفيذ خطتنا أمام عدم موافقة أسرتك على زواجنا وأرى أن نتفق على موعد بعد العطلة، وبالضبط أثناء خروجك مع الطالبات في أول أحد بعد العطلة حتى نذهب إلى مكان مجهول، لكن تأكدي أنك أحضرت معك نسخة من الحالة المدنية فربما نحتاج إليها، فإلى اللقاء يا عزيزتي.
حبيبك المخلص : علي

(2) ونصها : «الآنسة آنسة : يشرف الكاتبة العامة لنقابة مصابر السمك أن تستدعيك لحضور إجتماع المسيرات الذي سينعقد بصفة استثنائية غدا الأحد على الساعة 9 صباحا، ولك الشكر».
عن الكاتبة العامة وبأمر من عبد الله

(3) ونرد مقتطفات منها كالتالي : «لست أدري كيف قطعت المسافة الطويلة من الرباط إلى أكادير... قطعت هذه المسافة صامتا رغم الأحاديث التي تدور حولي بين الركاب... (إلخ».

(4) من ذلك مثلا :
ـ ص 27 : «وحملت في نفسي حقدا مرا للرجل الذي دخل حياتها...»
ـ ص 40 : «بسهولة سأفرض عليها احترامي وسوف أبرهن لها أن السيطرة على الآخرين لا تعد في سهولة مضغ اللبان».

(5) يحتكم هذا النص إلى فقرات مستقلة تتخللها شذرات سردية متناوبة بعضها ينسب إلى السرد وأخرى إلى العرض Narration/Représentation.

(6) وأساس ذلك التنويع بين قضيتين متداخلتين : إحداهما مسرودة والأخرى منقولة في شكل إرجاعات مستقلة.

(7) من ذلك ما تجده في صفحة (13) حيث تبار ليلة موت الأم بعد أن كانت الساردة قد استغرقت في الحديث عن ذاتها.

(8) من ذلك ما نجده في صفحة (30) : «أحداثا من هذا القبيل كانت تضايقني إلا أن مرور ثلاثة أو أربعة أسابيع جعلني التحق بباقي الطالبات لأضحك بدوري على سيئات الحظ... (إلخ)».

(9) ونجد كذلك أمثلة كثيرة منها :
ـ ص 14 : «وبعد مدة لا أدري أكانت طويلة أم قصيرة، جاء وأخذها مني وامتدت الأيادي من كل جانب...!»

ـ ص 58 : «وفي اليوم الثاني رافقتنا أمها لزيارة الضيعة بعد أن أحضر السائق السيارة. وكان يوما لطيفا استطعنا أن نظفر فيه بالمرح بين أشجار البرتقال والموز والمياه الجارية في السواقي... (الخ)».

ـ ص 168 : «مر شهران أعمل فيهما ممرضة وخلال هاته المدة استطعت أن استرجع كثيرا من الشجاعة على الحياة...».

الكتابة والمرأة : المغرب نموذجا

نجاة المريني(*)

هل الكتابة والابداع مجال خاص بالرجل، لا يمكن للمرأة أن تدخله؟

هل هناك أدب نسوي أو نسائي في مقابل الأدب الذكوري أو الرجالي؟

يقول قاسم أمين محرر المرأة المصرية، وصاحب الكتابات الملتهبة حول المرأة [تحرير المرأة ـ المرأة الجديدة]، مجيبا بصفة عامة : «**إن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال، تستطيع النساء فعله، بل ويفعلنه، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن، وكذلك فإن كل محرم علينا محرم عليهن أيضا**».

ويقول الأستاذ الزعيم علال الفاسي في كتابه :[النقد الذاتي]، في فصل خصصه لنقاش موضوع الأسرة والمرأة (ص 304) : «**إن من حق المرأة أن تتساوى مع الرجل المساواة التي لا تتنافى مع طبائع الأشياء، ولذلك يمكنها أن تشارك في الصالح العام بالخدمة والفكر والارشاد، يمكنها أن تشغل مركز العمل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الجماعة وفي الدولة، وكل ما يدعيه الناس نقصا في**

(*) أستاذة بكلية الآداب بالرباط

المرأة عن مستوى القدرة الموجودة عند الرجل، فليس إلا من آثار ما صنعته أجيال الاضطهاد وعصور الانحطاط، وإن المرأة لقادرة إذا تركت وشأنها أن تصل للقيام بجلائل الأعمال ومهمات الأمور».

ويلخص الأستاذ الطاهر الحداد رأيه في تعليم المرأة في كتابه «**امرأتنا في الشريعة والمجتمع**» بعد أن استعرض أنواع التعليم التي يجب أن تأخذ بها «ص 209» :... «**فإذا ما قدر لنا أن نفهم حقيقة المرأة وواجبها وحقها في الحياة، فذهبنا مذهب الحكمة في تعليمها ما تحتاجه، فقد عملنا خيرا ليس للمرأة فقط، بل لسعادة الرجل والأمة جميعا، والأجيال القادمة**».

إننا في مرحلة يمكن وصفها بأنها الثمرة التي حرص دعاة محرري المرأة في المجتمع العربي على نضجها واستوائها، فتعلمت وعملت في ميادين مختلفة، وأسهمت بكتاباتها في الدفاع عن حقوقها وفي إثبات كيانها ووجودها كإنسان فعال غير منفعل في مجتمع تطلعت كل هياكله إلى التغيير. وعملت على الثورة على الجمود والتخلف والاستعمار بكل أشكاله وألوانه.

الكتابة النسائية أو الخطاب النسائي بكثير من التجاوز في مقابل الكتابة الذكورية أو الخطاب الرجالي، ماذا ننتظر منها؟ أو ماهي الآمال المعلقة عليها؟هل هناك عداء بين الكتابتين ؟ تقول كلمة مجلة الوحدة التي تصدر عن المجلس القومي للثقافة العربية في العدد الخاص بـ«واقع المرأة العربية»[1] : «**إن الخطاب النسوي ما يزال يملك قدرته كاملة على التعرية، فهو يتمتع بخصوصية ومصداقية لا يتمتع بمثلهما أي خطاب عربي آخر**».

لا أدري لماذا هذا التصنيف؟ الأدب النسائي، ما هي مميزاته؟ ما هي خصائصه؟ لماذا لا يكون أدبا إنسانيا تمحى فيه الفوارق بين الأنوثة والذكورة؟ أليس للمرأة الحق في أن تنتج وتكتب وتنظر وتقعد في مجالات ظن أن للرجل وحده الحق والنصيب الأوفر في الكتابة والتنظير والتقعيد والتسيير؟

لاشك أن المراحل التي قطعتها المرأة في حياتها كانت قاسية ومؤلمة، استبد فيها الرجل بسلطات مطلقة، فأخضع المرأة لسلطته، واستبد بها وبحقوقها، وأوعز إليها أنها تابع لا شأن لها في الحياة، ولا دور لها في تحمل المسؤولية غير الخدمة والطاعة والإنجاب.

إن الصراع من أجل إثبات الذات كان عنيفا تارة، وهادئا تارة أخرى، تعددت وسائله وتنوعت أساليبه، وكانت الكتابة إحدى الوسائل التي استعملتها المرأة من أجل إسماع صوتها والدفاع عن حقها، وإثبات وجودها وكيانها كإنسان له حقوق وعليه واجبات، وكانت المتنفس الذي يستطيع أن يبلغ الرسالة في هدوء واتزان إيمانا بخوض معركة الحرية.

وموضوع الأدب النسوي أو الكتابة النسائية ليس بالموضوع الجديد أو البكر في الساحة الأدبية العربية... فأشعار الخنساء، ومجالس السيدة سكينة، ومجالس الأميرة ولادة، ورسائل مي زيادة، وكتابات ليلى بعلبكي وكوليت خوري، وخناثة بنونة كلها نماذج صارخة لمشاركة المرأة على عدة مستويات في الحياة الأدبية والعلمية والاجتماعية والسياسية منذ العهود الأولى إلى اليوم.

وحين تفرض المرأة وجودها في ميدان الكتابة الجادة تصطدم بعدة عوائق تعمل على التقليل من شأنها وقيمتها، باعتبار الكتابة من اختصاص الرجل، كما يقول الشاعر :

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابه
هذا لنا، ولهن منا أن يبتن على جنابه

وكما يقول شاعر آخر :

علموهن الغزل والنسيج والردْ ن، وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تغني عن يونس وبراءه

فبالرغم من إيمان الرجل بأن العمل الإبداعي تعبير عن أصوات مكبوتة وخفية، تردد صداها طويلا قبل أن يظهر واضحا جليا في حقل الكتابة، تعبيرا عن كينونة ووجود، وتحقيقا لتحرير فعلي من حصار فرض عليها بقانون القوة، لا يستسيغ تفوق المرأة في ميدان الكتابة، ولعل إسهام المرأة في مجال الكتابة هو إسهام في عملية تحرير المرأة من الجمود والتبعية والإضطهاد، ومن التمييز بين الكتابة الرجالية والكتابة النسائية. إن كل كتابة ـ كيفما كانت ـ تسعى إلى التغيير، وإلى التحرر من كل القيود التي تخنق الفكر وتلغيه.

بالنسبة للمرأة الكاتبة في المغرب، فقد استطاعت أن تؤكد حضورها الفعلي في مجالات الكتابة المتعددة، وأن تسهم بكتاباتها في توعية المرأة بواقعها المتخلف، ودعوتها إلى التعلم والتحرر من ربقة الجهل وعبودية المستعمر.

وبالرغم من ضعف أو قلة إنتاج المرأة المغربية في ميدان الكتابة لظروف متعددة وأسباب كثيرة، فإن ذلك لا يقلل من أهمية هذا الانتاج وقيمته بالنسبة لإنتاج الرجل وإسهاماته في ميدان الكتابة والإبداع.

إن في هذه الكتابة عناقا حميميا لطموحات المرأة في تغيير النظرة التقليدية إليها، وفي معالجة الشروخ التي أحدثتها الهيمنة الاجتماعية للتقليص من دورها ومن مردودية عطائها، فخاضت وتخوض معركة تحرير هادفة، وسيلتها القلم الرصين، وغايتها دحض الزعم المترسب في الأعمال بدونية المرأة وعجزها عن مواكبة الكتابة الذكورية، بعيدا عن كل حساسية وضيق تفكير، لتصبح فاعلا بعد أن كانت مفعولا به في مجتمع لا يؤمن إلا بقدرة الفاعل.

ورغبة في التعريف ببعض الكتابات النسائية المغربية، فسأحاول التعرض لنموذجين إثنين لهما مكانتهما في الساحة الأدبية المغربية، مع العلم أن المرأة المغربية اليوم أصبحت تمارس الكتابة على مستويات عديدة، وفي مجالات تخصصية دقيقة وإبداعية متنوعة.

النموذج الأول : ويمثل الدفقة الأولى لعطاء المرأة بإسهاماتها الفعالة في ميدان الكتابة منذ الخمسينات... نحن نعرف أن النهضة الأدبية في المغرب تأخرت بأكثر من قرن عنها في بلاد مصر، وأن بذورها نمت وترعرعت بعد الاتصالات والبعثات العلمية التي كانت توفد إلى بلاد مصر في الشرق وإلى فرنسا وإسبانيا منذ عهد السلطان الحسن الأول.

وبديهي أن يكون بروز المرأة في ميدان الدرس والعلم متخلفا ومتأخرا، لأنها لم تحظ بالمشاركة في تلقي العلم - إلا القليلات من النساء اللائي حظين بذلك في المساجد والزوايا وفيما كان يعرف بدار فقيهة - ولا بالقراءة والكتابة إلا في بداية الأربعينات من هذا القرن.

الحديث عن النموذج الأول للمرأة الكاتبة المتعلمة في المغرب هو ابن المنطقة الشمالية، بل ويكاد يكون رائدا للنهضة الأدبية النسائية في المغرب، وأعني به الأستاذة الباحثة أمينة اللوه، إحدى رائدات التعليم في فترات الاستعمار الاسباني للمنطقة الشمالية، وهي بقدراتها العلمية والأدبية تمثل بحق قدرات المرأة المغربية وطموحاتها وتوجهاتها في فترة عصيبة من تاريخ المغرب، وبعدها في فترات الاستقلال إلى اليوم...

الأستاذة أمينة اللوه من مواليد مدينة الحسيمة، تلقت تعليمها الإبتدائي والثانوي بمدينة تطوان، والجامعي بمدينة مدريد في إسبانيا. قرأت - كما تذكر ذلك - أمهات الكتب العربية: الأمالي للقالي، الأغاني للأصفهاني، العقد الفريد لابن عبد ربه، نفح الطيب للمقري، وغيرها من الكتب التي أثرت رصيدها المعرفي، وحببت إليها اللغة العربية قراءة وكتابة بالرغم من كونها تلقت تعليما مزدوجا عربيا إسبانيا.

عملت الأستاذة اللوه في سلك التعليم سنوات طويلة، في الابتدائي والثانوي والمهني، وأعتقد أنها من النساء الأوليات

اللائي حظين بتحمل المسؤولية في الميدان التربوي التعليمي كمديرة لمدرسة المعلمات قبل الاستقلال وبعده، وكمفتشة للتعليم الثانوي، ومكلفة بمهمة بوزارة الثقافة، ثم أستاذة باحثة بالمعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط.

ولعل أهم قضية حاولت الأستاذة اللوه الدفاع عنها في كتاباتها هي قضية المرأة : الانتصار لها ولجلائل أعمالها كان يشغل فكرها منذ الخمسينات، فكان أول إنتاجها أقصوصة قصيرة عن **الملكة خناثة** زوجة المولى إسماعيل ملك المغرب (1642 م - 1727 م)، وفيها تتحدث عن شخصية هذه المرأة المغربية القوية، وعن دورها في القصر الملكي باعتبارها المرأة المتعلمة الصائبة الرأي، وقد نالت الأستاذة اللوه بهذه الأقصوصة جائزة المغرب للآداب سنة 1954 م، وقرظتها الصحف الوطنية وغيرها، ثم نشرت تباعا في جريدة «الصحراء» التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ علال الفاسي.

هذه الأقصوصة طبعت سنة 1954 في تطوان، معهد مولاي الحسن، بإشراف نيابة وزارة التربية والثقافة، والاقامة الاسبانية في المغرب.

والكاتبة أمينة اللوه، وهي تمثل في تلك الفترة حمية الشباب وتيقظه بالنسبة لقضايا بلادها كالتعليم والحرية والدفاع عن مكانة ودور المرأة في المجتمع، كانت تسعى في كتابها الأقصوصة «الأميرة خناثة» إلى تمزيق ستار الخرافة الذي يفرق بين المرأة والرجل في الدفاع عن الوطن وكرامته، وفي المشاركة في تحمل المسؤولية، بل

إن في كتابتها دعوة إلى العمل المشترك من أجل الوطن ومن أجل الحرية والكرامة.

كما أن السيدة اللوه كانت تهتم بالكتابة عن هموم تعليم المرأة، وعن واقع هذا التعليم، مدافعة عن أهدافه وطموحاته، داعية إلى تشجيع تعليم البنات كظاهرة صحية في مجتمع الخمسينات في تطوان شمال المملكة.

ولاشك أن موضوعي الماجستير والدكتوراه يجسمان هذا الاهتمام ويؤكدانه، فموضوع الماجستير كان عن الطفولة المغربية، وقد نوقش بجامعة مدريد سنة 1965 م، أما أطروحة الدكتوراه فكانت عن «**المدرسة العربية في شمال المغرب في النصف الأول من القرن العشرين**»، ونوقشت سنة 1968م، بجامعة مدريد أيضا.

والموضوعان معا كتبا باللغة الاسبانية، نأمل أن تعمل الأستاذة اللوه على ترجمتهما إلى اللغة العربية وإلى نشرهما لتعميم الفائدة.

ويندرج اهتمام الكاتبة اللوه بالتاريخ الاسلامي من خلال مسرحية تمثيلية تهدف إلى التعريف بنضال المرأة من أجل حريتها وكرامتها، عنوان المسرحية : «**كتاب محمد أو إلى دار الأرقم**»، وقد نشرت هذه المسرحية بمجلة «دعوة الحق»، العدد الرابع، يبراير 1968، وفيها نبهت الكاتبة إلى دور القرآن الكريم في تحرير المرأة من عبودية الشرك والجاهلية، ومع الأسف فهذه المسرحية غير مطبوعة.

وللأستاذة اللوه مجموعة مقالات موزعة بين الخواطر والرعشات الابداعية، وبين الكتابة عن شخصيات كثيرة أغلبها كان له دور تاريخي وسياسي، وذلك في أسلوب قصصي مشوق.

من هذه المقالات خواطر كانت تكتبها في مجلة «**المعتمد**» التي كانت تصدر بمدينة تطوان في الخمسينات، وفي مجلة «**الأنيس**» التي كانت تصدر أيضا بتطوان في نفس الفترة، من موضوعات هذه الخواطر : «**المحبة، من أعماقي، في ربوع الأندلس**» إلى غير ذلك.

وفي ميدان التربية والتعليم نجد للكاتبة اللوه مقالات كثيرة في مجالات متعددة، منها دعوة الحق، والإيمان والفنون والمغرب والبحث العلمي وغيرها من المجلات.

وللكاتبة مقالات أخرى تصب في التربية والتعليم لم تنشر بعد، ـ كما أخبرتني شخصيا بذلك ـ سمتها «**من الملف المدرسي**» كما أن لها مذكرات سمتها «**حديث الذكريات**».

هذه المقالات كانت عبارة عن إسهامات الكاتبة في ندوات مختلفة، وفيها اهتمت بالحديث عن تطور تعليم البنات في منتصف الأربعينات والخمسينات إلى عهد الاستقلال، حيث كان التعليم محرما ومحظورا على المرأة، وفي هذه المقالات أبرزت دور بعض الرجال الأفذاذ الذين كانوا يشجعون على تعليم المرأة، وعلى تطوير ذهنية أفراد المجتمع الذين كانوا يرون في تعليمها سلوكا مشينا لهم ولذويهم.

كما أن الكاتبة سجلت لقطات مفيدة من هذا النوع من المقالات عن المجتمع التطواني في الخمسينات، وعن واقع النهضة الثقافية والفكرية التي كان يعرفها تطوان في تلك الفترة من خلال برنامج إذاعي أسبوعي تحت عنوان «**حديث الخميس : فتاة تطوان تخاطبكم**».

كما أن الأستاذة اللوه تعنى بالترجمة كميدان حيوي لتعميق التواصل بين الثقافتين والحضارتين العربية والاسبانية، ويشغلها الآن هم الكتابة عن الموركسيين في جنوب الأندلس منذ سقوط غرناطة سنة 1492 م إلى أن تم امتزاجهم بالعنصر المغربي في مناطق المغرب المختلفة، تطوان، فاس، الرباط، وسلا وأسفي. وفي هذا الموضوع تعنى الباحثة بالكتابة عن الثقافة الموركسية بصفة عامة.

وأغلب مؤلفات الأستاذة اللوه مخطوط لم يطبع بعد، منها :

- شعراء العصر الذهبي الإسباني.
- فصول من كتاب «**جولات بالمغرب**» للرحالة الإسباني المعروف ببديع العباسي.
- محنة الدين عند المورسكوس من خلال الكتب الرصاصية التي توجد بالجبل المقدس بغرناطة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.
- فصول من كتاب «**العرائش**» لغرسيا فيكراس.
- لوحات من كتاب «**فاس الأندلسية**» لكومس كاريو.
- دور المرأة العربية في الحياة السياسية بالأندلس.

- بقايا اللغة الرومانسية في اللهجة العربية المغربية.
- كلمات عربية فصيحة قديمة في اللهجة البربرية من خلال جرد معجمي.
- معلومات عن العائلة الخطابية، نشر في حلقات في مجلة «الثقافة المغربية» التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة.
- ذكريات عن زيارة محمد الخامس لطنجة، أو «**فصل الخطاب في المسألة المغربية**».
- أوراق ذاوية، وهي «**يوميات حرب الخليج**».

وقد تحدث العلامة المرحوم المختار السوسي عن الأستاذة اللوه في كتابه «**المعسول**»[2]، في معرض ترجمته لشقيقه الأستاذ إبراهيم الإلغي، فقال: «أتاح الله للمترجم سيدة عالمة لا نظير لها في فتياتنا، وهاك ترجمتها بقلم زوجها الكريم، إلى أن يقول: «ولإلغ أن تشمخ بأن أعلم أنسة مغربية في فجر نهضتنا أضيفت إلى إلغ، أو أضيفت إلغ إليها».

ويختار العلامة المختار السوسي نماذج من كتابات الباحثة اللوه ليثبتها في «**المعسول**»[3]، ويقدم لذلك بقوله: «**قرأت لهذ السيدة آثارا قيمة أختار منها ما يأتي**:

مجالس النساء:

سيداتي:

يقول المثل: أهل مكة أدرى بشعابها، ومن أدرى بأحوال النساء من النساء؟ فإذا تناول حديثي اليوم مجالس النساء، فإنما هو

حديث عن مجالس أحضرها باستمرار، وأدعى إليها كل حين، مما جعلني مستوعبة لنواصيها عارفة بما يدور فيها، محيطة بحقائقها وخفاياها.

فكان الأجدر بهذه المجالس أن تكون مثال المروءة، ومعرضا للأخلاق الحسنة، ومظهرا لائقا بآداب المرأة المغربية، هذه المرأة العريقة في الاحساب والأنساب، الأصيلة في الأخلاق والآداب، المضروب بها المثل في المحافظة على تعاليم الدين القويم، والتمسك بعادات حميدة، وتقاليد عريقة، زيادة على أن المرأة المغربية أصبحت اليوم تضرب بسهم وافر في الحضارة القائمة، آخذة في التثقيف والتهذيب».

أما الأستاذ إبراهيم الإلغي، فقد اختار فقرات من كتابة زوجه الأستاذة اللوه - دون أن يذكر اسمها[4] - لينشرها في كتابه «**تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية 54/1**»[5] : «**وكتبت كاتبة مغربية توجه الفتاة المغربية المتعلمة : اربئي[6] بنفسك أن تدوسها المطامع الباطلة، أو البروق الخلابة، فإنك لم تخلقي حلية للانظار، بل شريكة للحياة، ورفيقة في جميع الأدوار، اربئي بنفسك أن تسكني إلى مهين، أو تحسبي السعادة في النشب المكين، أو تركني إلى مطامع لئيم.**

عيشي روحية أكثر منك مادية، واسعدي بسعادة الروح، اجعلي العلوم قبلتك العظمى، ومحجتك القصوى، ففيها ما تحمدين، ققي في بابها، واخلعي نعليك، فإنك في المحراب المقدس».

كما ترجم للباحثة اللوه الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في كتابه «أعلام المغرب العربي»[7] ومما قال عنها : «**لفتت الأنظار بحذقها ونجابتها وهي تعلم، مثلما لفتتها وهي تتعلم**».

ومن كتاباتها[8] في «**حديث الذكريات**» في الفصل المتعلق بزيارة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه إلى طنجة في 7 أبريل 1947، وهي تتحدث عن الحفل الذي أقامته بدار المخزن بالقصبة مدارس البنات تحت الرئاسة الفعلية للأميرة عائشة ما يأتي :

«... ولدى عودتي إلى تطوان، كان الحلم أكبر من سني، حلم خلق نهضة تعليمية نسائية شاملة تكون في مستوى الخطاب الأميري، وقد تحقق هذا الحلم الكبير ـ ولله الحمد ـ من خلال نضالي في سبيل نشر التعليم بين الفتيات، وتوعية الأمهات بأهمية تعليم بناتهن، وقد استخدمت في ذلك كل الوسائل الممكنة، الأمر الذي يعرفه أهل تطوان جيدا، وتشهد عليه المؤسسات التي عملت فيها وأشرفت عليها، والصحف التي كتبت فيها، والأحاديث الإذاعية التي كنت ألقيها أسبوعيا في إذاعة «درسة تطوان» تحت عنوان حديث الخميس لفتاة تطوان».

تتميز كتابات الأستاذة أمينة اللوه بالهدوء والروية، والاتزان في أكثر الأحيان، فهي تعالج موضوعات ساخنة دون جلبة أو ضوضاء، ومن ثم، فهي تنقل القارئ بالنظر إلى الموضوع من التسرع إلى التحلي بنوع من الصبر والتأني لعلاج كل المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع بأسلوب رصين واضح[9].

النمـوذج الثـاني : وهو نموذج له إشـعـاعـه في عـالم الكتـابة الابداعيـة النسائيـة، إنها الأديبـة خناثة بنونة صاحبـة الصـوت النسوي الصارخ ضد الجور والتبعية والاستبداد.

الأسـتاذة بنونة من مواليد مدينة فاس، تربت تربية نضالية، ولم تنتظم في دراستها انتظاما يتيح لها الاحراز على شهادات جامعية، وانما حصلت على شهادة الباكلوريا بمجهود شخصي، وكان يشجعها على ذلك الأستاذ الزعيم علال الفاسي، وكما تقول : فقد كانت دراستها فوضوية وشاملة، أهلتها فيما بعد لخوض معركتي السلاح والقلم.

عملت الأستاذة بنونة في التعليم الثانوي كأستاذة للاجتماعيات، ثم هي تشغل الآن مديرة لثانوية ولادة بمدينة الدار البيضاء.

والأسـتاذة بنونة صاحبة صوت متميز في الثورة على الظلم والقهر، وعلى انصاف الحلول، وتشكل كتاباتها الكثيرة المجال الخصب لتصوير الواقع المهزوم الذي تعيشه المرأة العربية، بل والمجتمع العربي على السواء.

يقول الأستاذ علال الفاسي عن كتابات خناثة بنونة : «**لقد مضى عصر القول، والهروب من المسؤولية، والاعتذار المزيف، وأصبح كل شيء يجب أن يؤول بالفعل، نحن نعيش في عصر لا مكان فيه لمن لا يترجم القول إلى العمل**» مقدمة النار والاختيار ص 12.

والكتابة تقول : «الثقافة فعل، والفكر فعل، والكلمة جهاد، ذلك لمن لا يريد أن يسحقه عصره».

من مؤلفاتها القصصية المنشورة :

ـ **ليسقط الصمت** : وهي أول مجموعة قصصية لها صدرت سنة 1967 م، وفيها أسمعت صوتها النسائي بعفوية وصدق، معبرة عن معاناة العربي في مجتمع متخلف، ممزقة صمت الزمان والمكان كما جاء في أول أقصوصة في المجموعة : « **الصمت الممزق** »، ناعية ما كانت ترى عليه المجتمع العربي إثر نكبة 1967، فهي تقول : « **هكذا علمت الظروف أهلي أن يتخاذلوا، أن يسلموا بكل قيد مشروط، أن يتناولوا نتائج الاتفاقات جاهزة، فهي تطبخ في قارة غير قارتهم، وبأدمغة غير أدمغتهم، ولغرض لا يحقق العدل لهم، وهم يقولون بخنوع مطواع : الظروف** » (ص 8).

وعن معاناتها كأنثى تقول في ثورة : « **ما أفظع أن أكون أنثى بين قوم لم تتجدد قيمهم بعد، لكانني أريد أن أختصر كل النساء في واحدة، لأحطم قيدا جررناه من دهور... ومع ذلك، فما أعذب أن أكون أنثى بقضية** » ثم تضيف قائلة : « **هم لا يحسون أن تحت أطباق صمتي عراكا آخر : بين ما استتر في من أهواء الأرض وتطلعات السماء... بين ذلك الماضي البشري المغلف بأسطورة جرح امرأة، وبين هذا التطلع إلى الانسان الأكمل.. الانسان، الانسان، المرأة الانسان** » « **رب إني وضعتها أنثى** »(ص 89).

ـ **النار والاختيار** : مجموعة قصصية ثانية، تعالج قضايا شائكة في عالم اصطلح على تسميته بعالم المرأة، فهي تقول في مقدمة قصة النار والاختيار : « **تمنيت لو أنني لم أنفتح على غير عالم الأعماق، حيث كان وجودي مشروعا مشكوكا فيه** ».

تتميز هذه المجموعة القصصية بالمقدمة التي كتبها الأستاذ المرحوم علال الفاسي حيث قال : «**بهذا التمزق تبتدئ خناثة بنونة فقراتها الأولى من قصة النار والاختيار، فتطل بنا على كيانها الأزلي الذي لم ينبثق بعد في هذا العالم الذي نحياه، تهرب بنا من الوجود المظلم الذي صنعه 5 يونيو إلى مشروع وجود لم ينكشف بعد عن شكله، ومن يدري، فربما لو عادت الحياة إلى طريقها لتحول مشروع الوجود إلى كيان مندفع لا كبت فيه ولا هزيمة**».

تشكل المجموعة القصصية التزام الكاتبة بقضية العرب والمسلمين، هزيمة يونيو 1967، هي هزيمة العرب جميعا، يتحملون جميعا مسؤوليتها، وقضية النصرهي قضية وجود وبقاء، بل هي قضية كينونة واستمرار، لذا فالعمل من أجل المستقبل، من أجل الخلاص، من أجل الغد، هو ما تدعو إليه الكاتبة بثقة ومرارة وثورة، ولن يتحقق النصر إلا بالعمل أيا كان نوعه ثقافة وجهادا وفعلا.

وعندما تعمل الكاتبة بنونة على تصوير واقع المرأة المؤلم، بالرغم من كل الأشواط التي قطعتها، فإنما تسعى إلى تصوير واقع المجتمع ككل، بسلبياته ونقائصه، بالحرية المستلبة، وبالوعي الزائف، وبالتحرر المفتعل.

علاقة المرأة بالرجل علاقة الرئيس بالمرؤوس، علاقة التابع الذي لا يحق له أن يبدي رأيا أو يعترض على رأي، عليها مهما كانت ثقافتها ونضجها، ودرجة وعيها أن تقبل كل ما يسطر لها دون

نقاش، لأنه - أي الرجل - أنضج فكرا وأبعد رؤية، كما جاء على لسان الأم وقد تقدم لابنتها عريس : « **لكنه سيريد فيها الزوجة لا ذات الخلوات، ولو كيفما كانت هذه الخلوات : فمحرم على المرأة أن تبدي رأيا، أو حتى أن تحاور نفسها في خلوة، فتبحث عن الانسان في الرجل، هل فعلا تجد فيه تلك الشخصية المتوازية التي تؤمن بالمرأة وعطائها ومكانتها، أم أنه كغيره يتسلط على أبسط حقوقها في مجتمع يدعي «التحرر»**، وفي حوار ليلي (بطلة قصة النار والاختيار) لنفسها تدلي برأيها بصدق : «**إننا نسير في خطين لا يلتقيان، ولن تتمكن الاغراءات الاجتماعية أن تغطي على بصيرتي**» (ص 125).

إن الاستعباد ما يزال يشكل النبض الحقيقي للمجتمع المتخلف، والمرأة الأنثى هي الوجه الحقيقي الذي يسعى الزوج أو الرجل إلى امتلاكه، وتطلق الكاتبة في ثنايا القصة صرخات مدوية تعبر من خلالها عن المسكوت عنه، تقول : «**في البدء، كانت الكلمة، لكن الآن، أوف، ماذا أقول؟ إنني أنتظر، وأنا أيضا، ماذا علي أن أقول، لو تدري أي جحيم وسط الجنان، في جنتك يقبع جدار دون النعيم، دون النسيم، دون الحرية**» (ص 202).

وترهق الحقيقة المرة فكر المرأة وتتقاذفها أمواج الحيرة والغضب في آن واحد، بين المظاهر الخادعة والواقع المهزوز، فتطلقها زفرات: «**كل شيء تسأله... ياناس، يابحر، يا أشياء، ياما أفهمه، وما لا أفهمه، قلب أم قلوب، وغاية الانسان في القريب أو البعيد؟ ليجيبني أحد وليحدثني عن نيران اللهب وجنانه، وكيف التنصل؟**

هكذا كانت تتسكع في التسكع، وترمي الخطوات وتبعثرها... المدينة ضاجة والدروب تصب في بعضها، ولعل كل هؤلاء لم يكن لهم ما فقدوه، فهم راضون بالقليل الذي كان لهم ولا يزال، بينما لا يضيع غير من أثقل حاضره بمستقبله، فباغتته رجة وضاعفت من عدم توازنه ورمت له كل شيء في اللاشيء» (ص 204).

فهل المرأة لم تخلق إلا لتفي بحاجات المجتمع، وتنتقل من ملكية إلى أخرى، ومن وصاية إلى وصاية؟ أين تطلعاتها وأحلامها؟ أين كيانها؟ أين وجودها؟ أين الانسان في داخلها؟ في أعماقها؟ ما يراد لها أن تنفي ذاتها وتلغي فكرها، وتضحي بكل شيء من أجل الآخر في تسامح ورضى وقناعة، تعلو محياها ابتسامة رقيقة هادئة، فلم الثورة والتمرد والغضب؟

[وقد حصلت الكاتبة بهذه المجموعة القصصية على الجائزة الأدبية الأولى في المغرب، وجعلت مبيعاتها هدية لمنظمة التحرير الفلسطينية].

ـ **الصورة والصوت** : حاولت الكاتبة في هذه المجموعة القصصية التعبير عن واقع مهزوز في عالم طغت فيه المادة على القيم، مبرزة مساوىء الاحتكار والظلم، من ذلك قولها مخاطبة نفسها كبطلة لقصة «نهاية موكب» وقد ساومها أحدهم : «**لن أمد له يدي بأجر، لن أواكبه بعطاء، لن أتركه يعيش فساد العصر... العطاء لكل من صعد فوق...**» (ص 45).

والكاتبة في هذه المجموعة القصصية ملتهبة المشاعر، متقدة الأحاسيس، لما ترى عليه الناس في حياتهم اليومية، ولما تتطلع إليه من تغيير يجب أن يعم المجتمع ليتحرر من القيود التي تشل حركته وتطوره، تقول في مقدمة قصتها «**في اليقظة، في الحلم**» (ص 51) «**إن الدم هو الذي يتكلم، يهدر في سيلانه ليصعق الصمت الذي ران على الحياة من قرون، فولد الهزيمة في الفكر والسواعد والشعور والأنظمة، مع أن لغة التاريخ هي هي : من لم يشتر الحياة بالموت لن يحيا أبدا**».

إن الأزمة الخانقة التي تعيشها المرأة هي أزمة المجتمع ككل، تشل حركته وفاعليته، وتسلب عنصريه الرجل والمرأة ذاتهما وإرادتهما، وتحول أحدهما إلى قاهر والثاني الى مقهور، وتنعدم بذلك أبسط شروط الحرية التي يطالب بها المجتمع، وتنتفي القيم المثالية التي يحاول أن يتمسك بها الجميع.

إن القهر الذي تعاني منه المرأة هو قهر للرجل في نفس الآن، إذ أنه لا يتمتع بحريته بوعي واستقلال كما يعتقد، فالعلاقة مع الآخر (وهو المرأة) يشوبها التوتر والاستغلال، ويستحيل معها قيام علاقة اجتماعية ناضجة، تسهم في بناء كيان فاعل غير منفعل، تتحطم فيه صورة الرجل التقليدي والمرأة التقليدية، إذ أن تحرير المجتمع مرتبط بتحرير المرأة، لا يمكن فصلها أبدا، فالنخاسة في الأبدان إن الأفكار أو المبادئ أو العواطف يجب أن تموت (ص 65).

وتعبر الكاتبة عن تذمرها من كل ما يحيط بها، تقول في قصة في المنفى : «من استيقظ مات، قتلته يقظته، بيده أو بيد الحاكم أو

الفهم أو الله... إنني أرفض الهوامش : حتى من أحبهم، الذين دخلوا تاريخ القطيع العالمي بواسطة الدم والنار، ليقولوا إننا توجد... قد رفضوا بعملهم هوامش حياتهم ليحققوا عبر تمام الموت تمام الحياة من الغاصب المغتصب، القوي والمكافح، القاهر والمقهور... كل شيء ولا شيء، وأنا، كلنا، وأنت، وحتى هم : المناضلون : أي خليط، إن العالم خليط» (ص 65). ويهزنا السؤال الملح : «وهل سيظل خليطا؟ لأن الكلمة لا تفعل شيئا، وكيف اقترب، والقرب دائما ليس غير تعبير، التعبير كان على الصعيد التاريخي مستوى حضاريا، وهو الآن قافلة للزيف، نسمعه، تسمعه، تسمعونه، دون أن يبلغ أي أذن، الانفجار لا زلنا ننتظره، حيث الآذان والقلوب وبعض الحقائق والقربى توجد، مليون، ملايين، كلمة، وموقف وتجربة، أخبرت أن المرأة للرجل، بطن الأرض معبأ بعويل عميق سحيق هامس صخاب لامرأة أولى كانت على سطح هذه الأرض، تذرف الدمع والزفرات بحثا عن أدم، الأرض لا تربح أو تتفرج إلا في آهة أولية».

ومن مجموعات الكاتبة بنونة كذلك «العاصفة» صدرت سنة 1979 وهي أيضا تتناول بالنقد نظرة الرجل الى المرأة كجنس، وصراع هذه الأخيرة من أجل إثبات ذاتها وثورها على التنميط الذي يعرفه الواقع المتردي في المجتمع المتخلف، وترى بأن السكوت عن تناول هذا الواقع ومحاولة إصلاحه خيانة.

ـ **الصمت الناطق** : مجموعة قصصية صدرت سنة 1987، وفيها حاولت الكاتبة طرح مشاكل اجتماعية وسياسية كانت المرأة فيها بطلة الأحداث في إطارين وطني وعربي، مؤكدة ما استطاعت أن

تحققه بوعي والتزام في الدفاع عن قضاياها ومشاكلها الاجتماعية والسياسية.

- **الغد والغضب** : رواية صدرت سنة 1987.

*****

إن إسهامات المرأة المغربية في مجال الكتابة على تنوع ميادينها كثيرة، إذ طرقت أكثر من باب : في الاجتماع والسياسة، والقانون والاقتصاد، والأدب، والتراث، وتناولت في كتاباتها ومؤلفاتها موضوعات شائكة ودقيقة بمنهج علمي وتصور واضح رصين، ورصد مثل هذه الكتابات يتطلب أكثر من دراسة عميقة متأنية ينصب فيها الاهتمام على الكتابة باعتبارها رافدا من روافد العطاء الفكري الناضج دون تفريق بين الكتابة النسائية والرجالية.

(1) السنة الأولى، ع 9، يونيو 1985.
(2) - المعسول، ج 2 : 320.
(3) - نفسه، ج 2 : 323.
(4) أخبرتني بذلك شخصيا، في جلسة معها بتاريخ 20-4-1993.
(5) نشر سنة 1954 في جزأين بتطوان.
(6) ارتفعي.
(7) 15/1.
(8) لأول مرة تنشر هذه الفقرة.
(9) حصلت الباحثة اللوه على وسام العرش من درجة فارس سنة 1988.

ملاحظة :

- استقيت المعلومات الخاصة من الكاتبة أمينة اللوه مباشرة، ومن الكاتبة خناثة من خلال بحث جامعي انجز تحت إشرافي لنيل الإجازة في الأدب العربي موضوعه : «صورة المرأة في كتابات خناثة بنونة» للطالبين لحسن الشكري وعبد الرحمن بشني السنة الجامعية 89-90.

المرأة في الملحون

أحمد سهوم(*)

إن التعامل مع «المرأة في الملحون» لا ينبغي أبدا أن ينحصر في موضوعها المعروف : «العشاقي». والأفستسيء إلى المرأة وإلى الملحون على السواء.

فـ : «المرأة في الملحون» ليست عاشقة أو معشوقة فقط، ولا عاشقة معشوقة فحسب... وإنما هي أيضا تلك الفتاة التي تثور ضد الزواج غير المتكافئ في «الشايب والشابة» للتركماني مثلا. وهي زوجة السكير التي تعاني وتكابد لاصلاح ما فسد من طباع زوجها في مثل قصيدة «الصبارة» لـ : «ولد الموشوم»، وهي الأم التي تمن على ابنها - ومن حقها أن تمن عليه - أن ربته التربية الحسنة التي جعلت منه الرجل الكامل، في «عجوز أو شابا» للتركماني..

و«العابدة» للشيخ المكي، والمحبة لرسول الله، التي تعطي تاجها للسائل الذي استغاث باسمه الكريم، وهي لنفس الشاعر...

ثم عندما يكتب شاعر الملحون عن الخالدات في النساء «مولاتنا خديجة» أم المومنين في نزول الوحي وفي فتوره. «مولاتنا فاطمة الزهراء» وهي زوجة لأزهد رجل عرفته الانسانية بعد رسول الله...

(*) شاعر وباحث في الملحون (الشعر الشعبي).

نعم تعتبر مثل هذه القصائد من المديح، ونحن لا ننكر هذا، إنما نضيف أنها صالحة للاقتداء. وسنبين ذلك في حينه.

المهم الآن هو التأكيد على أن المرأة حاضرة في كل الموضوعات التي طرقها «الملحون» وليس في العشاقي فقط.. وعلينا أن نبحث عنها في كل تلك الموضوعات، وسنبدأ البحث من هذا المقال، ولا حرج في أن نبدأه بـ : «العشاقي» مادمنا ننوي تفصيل القول، وتوضيح الرؤية، والابتعاد عن كل ماهو مجرد إجترار سخيف، أو تقليد زائف...

فما هو «العشاقي»..؟

هل هو تجارب عاطفية صادقة أنتجت إبداعات حية خالدة؟ أم هو مغامرات غرامية محمومة أثمرت إبداعات ملتهبة؟ أم ليس هذه ولا تلك، وإنما هو التعبير فقط قصد التعبير.

عن السؤال الأول أجيب بكامل الاطمئنان : أن نعم، في «العشاقي» قصائد عاطفية صادقة، بل أن من شعراء الملحون من عاش تجربة عاطفية واحدة طوال حياته، مثل محمد بن سليمان، ولنجعل شعره النموذج للملحون العاطفي الصادق، يقول في «داليته» فـ : الروح اسبابي خال فـ : وردة».

ويقول عن هذه الوردة : «فَاتْحَافِي غُصَنْ اسْمَا فِي رْيَاضْ عَالِي مَنْ سَعْدِي» هذه «الوردة» هي في أعلى غصن، من أعلا روض».

وفي لاميته : «غير جيبو «وردة» من شي رياض سورو عالي» هنا أيضا «وردة» وأيضا في روض محصن «سورو عالي» يرمز إلى هذه المحبوبة بالوردة لا في داليته، ولا في لاميته، ولكنه في قصيدة أخرى من : «مكسور جناح» يرمز لها بالياقوتة :

«ابْهَا وَعْلاَ مْنَ الْبَدْرْ يَاقُوتَا مَحْضِيًا فِي جِيبْ السُّلطانْ» ونعرف أنها هي هي، من الحصانة والصون «في جيب السلطان» والسلطان هنا بمعنى المنعة، أو ما نسميه بالدارجة «الحجبا والرتبا» هنا في: «جيب السلطان» وهناك «رياض سورو عالي»، وهنالك «غصن اسما في رياض عالي، ويضيف في المثل الأول : «سعدي»

فَاتْمَا فِي غُصَنْ اسْمَا فِي رْيَاض عَالِي مَنْ «سَعْدِي»

ولست أدري على وجه التحديد هل كلمة «سعدي» بين قوسين، فنفهم منها الكلمة المقابلة : «من نحسه» أي من سوء طالعه أن تكون الفتاة التي أحبها في كل هذا الصون، وأن تكون «عزيزة» بمعاني اللفظ الثلاث... حتى لا يمكن التوصل إليها بالمرة... أم أنه يعني كلمة : «سعدي» كما هي، فنفهم منه أنه لا يحب الفتاة الرخيصة المبتذلة المتاحة باستمرار وإنما من حسن طالعه أن تكون غير متاحة حتى ولو بقي هذا الحب من غير أمل إلى آخر رمق.

ويصف حاله مع هذا الحب العنيف فيقول :

هَاجْ وَجْدِي وفْرَغْ جَهْدِي مْدَامْعِي زَادُوا مْسُهْدِي   طَالَتْ عْلِيْ يَا تَشْقَابِي، هذَا الْفَقْدَا
كَالْغْمَام الْفَرْنِي شَلاَّ تْغَارْنِي وَنَا وَحْدِي   بِالْمْحَبَّا جَنْحَانْ دَابِي قُولُوا عَمْدَا
بَعْدْ مْنَهْدِي وَثْلْجِي وِبْرِي تْنَافْدِي تَحْمِي نَشْدِي   لاَه مَا نَبْكِي طَالْ عْذَابِي هَذِي مَدَّا

ويقول في مطلع لاميته :

اه مَنْ قَلبِي يَشْكِي بـ: الْغـرَامْ مـاهُو سَالِي — أو اللّي مـا يعـذرني هكذا ابْحَـالِي يَبْـلاَ
غِـيـرْ ثَارا بَرْدِي تَرَا اجْـسَـارْ هَذَا حَـالِي — كُلْ سَاعَا يَاتِي لِيْ طْبِـيبْ ابْحَـالْ الْعَـشْلا

ويحدثنا عن محاولاته اليائسة في التقرب إلى المحبوبة :
والنموذج هذه المرة من قصيدة «الشهدة».

امَـا امْـشَـايْخِي تَحْتْ اقْـدَامَكْ لاَحْتْ الغْـمَـايِمْ — لُو كَـانْ كَـانْ قَلبكْ تَصْـرَانِي لاَ غْنَاهْ يَلْيَـانْ

ويصف لناحاله بين الناس وكيف جعله هذا الحب :

من غـيـر حـال تُوجـدني مـا بين الأسـواق هايمْ — تْرى نغـيب ترا نحـضـر حـتى تقـول:سكران
فَـ: الحُـبْ هَـكْـذَا حَـــــــــــالِـي — فِـيـــرْ سَلَمْ لِي يَا مَنْ لاَبْلاَهْ وَعْــذرْ

والحق أنه لم يكن يلقي القول على عواهنه عندما كان يتفوه بعبارات مثل : «**دابا نضرق اخيالي... غير جيت انبري فـ : الروح قبل تخرج من جسدي**» «**فـ : الروح اسبابي، خال فـ : «وردا»**» فلكأني به كان يحس بإحساسه الصادق، أن هذا الحب القوي العنيف، المتنمر سيؤدي بحياته لا محالة وكذلك كان، فلقد بكته حضيرة الملحون، ولما ينتهي العقد الثالث من عمره، رحمه الله. من شاب كان صادقا عندما قال في وصف نفسه وخلقه الرفيع :

قَلبِي كْبِيرْ، مَشْرُوحْ، صْغِيرْ الرَّاسْ فَـ: الوْلاَيَمْ — طَبْعِي رْهِيفْ فَايَنْ تُوجَدْ مَثْلِي وْلِيسْ تُوهَانْ
حَـتَّى نْغَضْـرَقْ اخْـبَالِي — عَـادْ يَنْدَمْ مَنْ كَـانْ فَـ: هَـيْبْنَا مْكَثَّـرْ

وكنموذج للقصائد العاطفية الحية، قصائد الانفعالات الشعورية الصادقة أسجل هنا النص الكامل لقصيدة «الياقوتة» وهي لهذا الشاعر الشاب محمد بن سليمان و«الياقوتة» كجل قصائد بن

سليمان يختلط فيها التجريد بالتشكيل، ويمتزج المطلق بالمعين، ولو أن أهل الملحون الذين عاصروا بن سليمان - بن علي وغيره - وصلهم شعره، وأحسوا به، واستطاعوا أن يفقهوه، لكان ديوان هذا الشاب، نقطة تحول هامة في تاريخ الملحون، ولكان الملحون اليوم، في أعلى مراتب فن القول الرفيع، ويرحمه الله إذ يقول في هذه القصيدة وبحق:

اشْحَالْ عَايْرُونِي بَالتَّشْبِيهْ فَـ: الأَقْوَالْ

الـلِّي بْلاَخْفَا جَهْلُوهَا

حَتَّى الدْهَاتْ مَا عَرْفُوهَا

عيروه بتحليقاته التي لا تكاد تنتهي، وبسياحاته التي تتخطى كل الحدود... وبهذه «الألغاز» التي لم تكن مألوفة عندهم يومئذ.

فَـ: زْمَانْهَا غْرِيبَة مَا جَابُوهَا امْثَالْ

هو يقول عن هذه القصيدة... فَـ: «زْمَانْهَا غْرِيبَة» أما أنا فأقول - ديوان بن سليمان من ألفه إلى يائه غريب في زمانه، بل ان بن سليمان نفسه غريب زمانه.

فَـ: زْمَانْهَا غْرِيبَا مَا جَابُوهَا امْثَالْ

وَحْتَّى فَـ: الزْمَانْ الفَايَتْ

وينتقل إلى «الياقوتة»:

الشَّمْسْ مَنْ ضَيَاهَا غَارَتْ

وَاللِّي يْكُونْ عَقْلُه ثَابَتْ

ثَارًا يْقُولْ خَمْرًا

ثَارًا سَفْرَا
وْلُونْ فَجْرَا
مَاشِي نُقْرَا مْنَ الأصَلْ مَا هِي مَطْبُوعْ
وَلاَ هِيَ فَخْزِينْ عَنْدَ عُثْمَانِي
نُورِيكْ سُومْهَا!؟ مَاهِيْ مَشْرِيَّا
مَنْ جَنْتْ رَضْوَانْ
هِيَ : «غَرْقَا مَنْ بَحْرْ الشْفَافَحْ» صَافِي مَجْرَاهَا
ابْهَا وَعْلاَ مْنَ الْبَدْرْ يَاقُوتَا مْخْضِيَّا
فِي جِيبْ السُّلْطَانْ
وَفْنَانِي بَـ: الرّاقَا بْلاَ شْمُوعْ رْسَامِي ضَوَّاهَا

ويغرق في ضياء برق الاشراقة التي أشرقت عنه من وجهها، والتي سرعان ما اختفت لتتركه يبكيها في : «الشهدة» في «اللامية» في «الدالية» إلى أن وافته المنية إنها «الدراما» الحقيقية لمن يبحث عن «رائعة مغربية لمسرح مغربي» طبعا لا أعني «الياقوتة» وحدها، وإنما أعني «حياة بن سليمان» جملة وتفصيلا : حبه المأساوي لهذه الياقوتة أو «الشهدة» أو «الوردة».

معاناته مع أهل الملحون في عصره، وخصوصا منهم «بن علي ولد آرزين» القطيعة، أو هي الجفوة التي طرأت على علاقته بأهله وذويه... إصابته بداء تضخم القلب، لقد انهمر الدمع من أعيني وأنا أكتب هذه الكلمات.... فالله وحده الذي يعلم ما ألاقي من عناء، كلما تعاملت مع شعر هذا الانسان.

اضْوَى مْنَ الْمْصَابَحْ فِي دَاجْ إِلَى كْحَالْ
وَبْهَى مْنَ الثّرِيَّا تْكّْدِي
وَبْهَا مْنْ «الْبَدْرْ الْمْبْدِي»
«عْلَى الشّْمَامْ هَذَا قَصْدِي»

«البدر المبدي» أي الظاهر. من بدا يبدو ولكنه خشي أن يقول الخصوم «لبدر المبدي» أي الذي في بدايته، ولا يزال كالشعرة، فسارع إلى القول «على التمام هذا قصدي».

ضَوًا مَنَ الْمَضِيًا = الشمس
فِي صَبْحِيًا
عَلَى الْبُويًا = البرية
هَذَا هُوَ كْمَالْهَا وَضْيَاهَا شَعْشُوعْ
وَالْبَرْقْ الضَّاوِي فِي شْرُوقْهَا فَانِي
لَعْقُولْ مَنْهَا فِي شَطْنَا مَذْهِيًا
شَطَاتْ الأذْهَانْ
يَقُوتَا ضُرًا وكُلْ ضَاوِي بَضْيَاهَا

ابْهَا مَنَ الأنْوَارْ السُّيَارًا فِي كْمَالْ
هَالُوا مَنَ الفَلَكْ الثَّامَنْ
هِيْ غْطَاتْهُمْ مْحَاسَنْ
وَاللِّي يْكُونْ طَرْفُو وَاسَنْ
بَعْدْ الْمْنَامْ يَنْظُرْ
سَرْ مْقْتَبَسْ
بِهْ يَفْخَرْ
حَتَّى يَرْجَعْ مَنْ كْمَالْ ضْيَاهَا مَفْزُوعْ
وَانْيَا شَلاَّ نْصِيفْ بَلْمَعَانِي
عَنْدِي طْلُوعْهَا فِي رَتْبَا عُلْيًا
فِي بَرْجْ الْكِيوَانْ
وَنْجُومْ الدَّاجْ إِلَى ضْوَاتْ يَظْهَرْ فـ: الْفَلْكْ سْنَاهَا

وَفْرًا عَلَى الْجْبِينْ، اللِّيلْ فـ: وَسْطُو هْلاَلْ
دْعَجَ اللّحَاظْ زِينْ الْقَاهَا
صَارِي سْفِينْتُو عْوَامًا

وللْ تْقُولْ غِيرْ رْخَامَا
لَعْلاَمْ لِيَهْ وَقْفَا
زِينْ الْخَلْفَا
مْنِينْ يُوفَا
يَطْفِي جْمَرْ الأَشْوَاقْ بَالزُّورَا لَلْمُولُوعْ
وَالزُّورَا هِيَّ جَنْتِي وَرْضْوَانْ
وَالْعَطْفْ فِيهْ عَيْشِي وَالْهَجْرْ مْنِيَّا
وَالْجَفْوَا نِيرَانْ
وَالْوَجْنَا هِيَّ رَاحْتِي وَلاَ يَطْلَعْ لِي مَلْقَاهَا

*****

أحْلاَ مْنَ الشْهَدْ فِي قَلْبِي وَمْنَ النْصَالْ
احْلاَ مْنَ الْخَمْرْ فَ: طْلُوعُو
وِيْعَطْرْ رْشِيفْ ثْبُوعُو
بْمْرَاشْفُو يْكُونْ قْطُوعُو
نَجْنِي فْ: كُلْ لَحْظَا
وَرْدْ فْ: لَحْظَا
وْخَالْ يْرَضَا
كَنْقْطَا مْنَ امْدَادْ فِي وَرْدْ بْلاَ مَقْطُوعْ
حَاضِيهْ غْلاَمْ عْلَى الْيَمِينْ سُودَانِي
نُورِيكْ حْلَتْهُو يَاسَايْلْ زَنْجِيَّا
جَاتْ مْنَ الْعْجَبَانْ
لأَبَسْ بَرْنَاطَا مَنْ نْشَاهْ مْنْ سَرْ الزِّينْ انْشَاهَا

*****

يَاسِيفْ عَنْتَرَا فْ: نْهَارْ يْطُولْ الْقْتَالْ
يَا بَنْدْ دُولَةْ الْعَلْوِي
يَارْمَحْ حَامْلُو عَلْقَاوِي
يَاتَاجْ عَامْلُو كَسْرَاوِي
نْهِيبْ لِيكْ صْغْرِي وْحَتَّى كْبْرِي
نْزِيدْ عْمْرِي
«وَلَوْ هَنِّتِي بْقِيمْتِي لِيكْ عْطِيتْ الطُّوعْ»

وَاللَّهْ الزِّينْ مَـــا انْدُوزْ لَوْ يَمْنـــفَـــا بِيْ
فـــِي طَـــبْـــعْ زْمَـــــــــــــــــــــانْ
عَشْقِي صَافِي حُجًّا وْحَالَتْ الغَمْدَا مَاتَرْضَاهَا
أَنَا الْمَوْلُوعْ بَالْهَـــوَى كِـــيفْ مُـــولَعْ بِيْ
مَـــــــا عَنْدِي رُقْـــــــبَـــــــانْ
غِيرْ عْدَايَا بْمْشَاهَبْ اللَّضَا تَتْخَبْطْ فْـ: لْضَاهَا
تَخْـوِيضْ الرِّيقْ وَالْخَمَـرْ فِي شَـفْـا عَـسْلِيًّـا
مَـنْ غـــــبـــــرْ الكِيـــــضـــانْ
هَذِيكْ الذَّاتْ مْنِينْ تَنْتْـــقَلْ مَنْ دَاهَا لَدْوَاهَا
وَالزَّنْجَـارْ وْخَلْ يَمْـتْـزَجْ وْنْعَصْـرُو بِيـدِيًّا
فْـ: غـــيُـــونْ الْعَـــدْيَـانْ
وْتْضَرْتْ الكُرَّةْ مَنَ الْحَسُودْ قَامَتْ الأَرْيَاحْ مْعَاهَا
«قُلْ هُوَ اللَّهْ» حـــصَنْ حَـــصِينْ وْ«قُلْ أُوحِيْ»
وَآيَـــاتْ «الـــرَّحْـــــمَـــانْ»
هَذْ الغَمْسَا هُمَا حْجَابْ وْسُورَتْ «يَاسِينْ» وْ«طَهَ»
وَسْـلامْ الوَهْبْ وَاهْبُـوا لَصْـحَـابْ الوَهْبِـيَّـا
بَـرْجَـــــــالْ أُونْـسْـــــوَانْ
فْـ: رْيَاضْ الْمَغْنَا قَالْ «بَنْ سْلِيمَانْ» عْقُودْ رْوَاهَا

بدأنا شعر العواطف الصادقة ببعض ما كتبه بن سليمان، باعتباره في نظرنا النموذج الرفيع لعينة من الشعراء، عاشت العمر كله تجربة عاطفية واحدة وظلت تعبر عنها في كل ما تبدع من روائع : لهويتر ـ بوزايد ـ قدور بن علي ـ مولاي قدور البلغيتي وغيرهم.

ننتقل الآن إلى عينة أخرى من شعراء «العشاقي» لا نكاد نجد شعر العاطفة الصادق عندها إلا في أبيات هنا وهناك، أو في أحسن الأحوال قصيدة واحدة تامة، وكنموذج رفيع لهذه العينة في نظرنا : «الجيلالي متيرد»، وقد اخترنا من «عشاقياته».

كَانْ مْهِيتِي سَتْبَيْقْلِي مَنْ حَالْ سَهْوكْ وِالَى تْهِتْتِي الشِّيبَة تَعْرِيكْ أيَّامُو

نَظْرِي بْمْلاَمَحْ الابْصَارْ اللِّي سَبْقُوكْ كَمَا فَرْغُو يَفْرَغْ سُوقَكْ وَزْحَامُو

سِيرِي حَتَّى يَشْرَبْ عُودَكْ بَلْجَامُو

إلَى تْرَفْعِي قَدْرَكْ يَصْفَارْ لآدَابْ يَدَلْ عْلَى كْمَالْ طِيبْ النَّسْبَا

لاتْصَرْفِي فَحْبِيبَكْ عَارْ رَدِّي شِيطَانْ بْلاَكْ عَنْ عْيُونْ الوَدْيَا

الجْفَا بْعَدْ الوَصْلْ غْيَارْ صَاحَبْ غَرْضُو بِينْ الأَصْحَابْ مَالُو صَحْبَا

لاَ تْغَلْطِي حِينْ تْنَظْرِي بْيَاضْ الكْمَامْ عْمَرْ اوْقَاتْ اهْلْ الغْلَطْ مَايْطِيبُو

لُو شْرَقْتْ وْلاَحَتْ فَـ: الجَوْ شَمْسَكْ عْلاَمْ لاَغْنَا اللِّيلْ يْنَادِي خَلْفْهَا حْجِيبُوا

لُو تْعِيشِي مَا عَاشُو فَـ: الزْمَانْ «الأهْرَامْ لاَغْنَا مَنْ لَكْبَرْ يَاتِيكْ جَنْدْ شِيبُو

إلَى حْكَمْتِي وَتْحَكْمْتِي يَفْرَغْ الأحْكَامْ سَاعَتْ الظَّلْمْ تْفُوتْ وَنَاسْهَا يْغِيبُو

*****

حَدَّثْتَكْ وَالحَدِيثْ لَلعَاقَلْ تَنْبِيهْ تَرْكِي صَدْ الجْفَا وَجُولِي فَـ: اوْصَافِي

عَرْضَكْ صُونِيهْ، وَعِيبَكْ النَّاقَصْ غَطِّيهْ مَحْلاَ مَنْ جَا بْصَدْقْ وَالقُولْ الوَافِي

حَافِيتَكْ بَالجْفَا وْلاَزَلْتْ انْحَافِي

مَاخَسْدَتْ لِيكْ مَنِّي هَجْرَانْ يَامَنْ لاَفِيهَا خِيرْ مَنْ شَفَاقِي يَكْفَا

بَاحْ سَرِّي بَعْدْ الكَتْمَانْ لَمَنْ نَشْكِي بْجْفَاكْ يَاقْلِيلَتْ لُوفَا

قَالَتْ الوَدْيَا وَالعَرْفَانْ مَنْ لاَ يَحْسَنْ بَاحْسَانْ مَا يْلِيهْ مْعَرْفَا

بَالوْفَا وَافِي مَنْ وَافَاكْ بِكْ يَنْعَامْ أشْ مَنْ جَرْحْ بْرَامَا عَالجُو طْبِيبُو

طَاعْتَكْ لاَزَمْ عَنِّي وَاجْبَا فَـ: الغْرَامْ لاَ يَقْطَعْ مَنْ بْهَاكْ السَّاكْنِي نْصِيبُو

بَالمْكَارَمْ كَرْمِي، وَالرَّاحْمِينْ تَرْحَامْ لُو بْخَلْتْ البُخْلاَ لَجْوَادْ مَا ايْخِيبُو

طَالَتْ الغِيبَا زُورِيتِي بْسَرْعْ الأَقْدَامْ حَرْعْ نَاسْ الجُودَا مَا غْرَزْ مَنْ حْلِيبُو

*****

مَنْ بَاعْ حْبِيبْ خَاطْرُو بَالْفْ زَلَّة بَاعُوا بِيعْ الخْطَا بْسُومْ رْخِيصْ بْخِيسْ

أنَا قَلْبِي عْلَى المْحَبَّا مَا وَلَّى وَنْتْ قَلْبَكْ كَالحْجَرْ جَلْمُودْ يْبِيسْ

مَبْقَانِي مَنْ جْفَاكْ كَانَعْدَلْ وَنْمِيسْ

اشْ قَلْ حْسَانَكْ وَجْدَاكْ حَتَّى خَالَفْتِي عَاهْدِي بْغِيرْ نْوِيَا؟

شَرْ قْبَحْ افْعَالَكْ يَلْقَاكْ مَا يَنْجَحْ مَنْ لاَ فِيهْ صَدْقْ وْلاَ نِيَّا

فِي نْهَايَتْ مَسْطُورْ غْنَاكْ رَدِّي نَفْسَكْ لَحْجَاكْ لاَتْكُونْ سْهِيَّا

لاَزْمِي مَنْ طَاعَكْ وَلْغِي عْلِيكْ المْلاَمْ وَاشْ قَلْبَكْ وَصَّاكْ تْسَاعْفِي رْقِيبُو؟

لَلصَّبْرْ شَدِّي يَا تَاجْ الغْوَارَمْ حْزَامْ عَارْ الأشْيَاخْ العَاقَلْ لاَغْنَا يْهِيبُوا

بِينْ لَمْحَاسَنْ لِيكْ رْهِيبَتْ حَقْ وَدْمَامْ لاَغْنَا كُلْ مَنْ الدَّاهْ الجْفَا يْجِيبُوا

إلَى قْرِيتِي مَسْطُورِي جَاوْبِيهْ بْسْلاَمْ   وَاشْ قَلْبْ الْمَحْبُوبْ صْفَا عْلَى حْبِيبُوا

أمُــولاَتِي إلَى وْتِيتْ الصَّــفْحْ يْعَمْ   نْوِيتْ بْحَــرْ نَارْ شُــوقِي وْغْــرَامِي
قُــولِيلِي وَاشْ خِيــرَكْ الْمَنْعُــومْ تْتَمْ؟   هَلْ تَرْجَعْ كِيفْ كَانَتْ امْعَكْ ايَّامِي؟
نْكَارْ الْخِيرْ قَالَتْ النَّاسْ حْرَامِي
لَوْ تْبِيــعِينِي عْلَى لَشْـهَــادْ   حَاشَا نَنْفِيلَكْ خِيرْ يَاشْبِيهَتْ عَبْلاَ
كُــانْ عَــشْــقَكْ لِيَّ جْـدَادْ   مَـالُو نَقْطَعْ يَابُودْلاَلْ مَنْ حِيثْ حْـلاَ
يَاتْرَى لَلْفَــايَتْ يْعَــادْ   يَنْفَقْ خِيرَكْ وِيْفِيضْ كُلْ يُومْ ابْحَمْلاَ
بْـ: الزْيَارَا وْلَفْتِتِي حْسَانَكْ التَّامْ   كُلْ يُومْ يْهَبْ نْسِيمْ الرْضَا بْطِيبُـو
فَاكْدِينِي، زُورِينِي فْـ: يَقْضَا وَالْمَنَامْ   إلَى غْضَبْتَكْ لَقْلِيبْ يْرُوقْ مَنْ غْضِيبُو
عبد الجليل يراعي ليك عبدك غلام   ليك طاعا والقادر ربنا حسيبو
الْكْدُوبْ أمُــولاَتِي فْـ: الْمْذَاهَبْ حْـرَامْ   قَـالْ مَمْلُوكْ غْرَامَكْ : بَرْدِي لْهِيبُو

كانت هذه هي قصيدة «فاطمة» أو «الغَضْبَانَا» كما سماها فقيد مدرسة الملحون المعاصرة محمد دلال رحمه الله. وهي للجيلالي متيرد المراكشي والذي كان - رحمه الله - على رأس شعراء الملحون ممن عاصروا السلطان الصالح المصلح سيدي محمد بن عبد الله.

والقصيدة - كما لاشك لاحظ القارئ الكريم - تعبر عن تجربة عاطفية صادقة ومن شيوخنا من قال عنها : أن الشاعر يخاطب فيها زوجه الغضوب، ومنهم من يضيف أن فاطمة هي أم النجار صاحب قصيدة «نور الحق السامي» وأن هذا الأخير نشأ في أحضان الجيلالي امتيرد إذ تزوج أمه التي ترملت في عز شبابها، وتبنى طفلها، ومنهم من يقول : لا أنها مجرد «شيخا عياطا» ولع بها وعاش مدة طويلة لا تفوته ليلة من ليالي الأفراح التي كانت تحييها بفنها الحوزي، وهي نفسها التي قال عنها في غَيْنِيَّةٍ من «أغانيه» يوم الاثْنِينْ نَلْحَقْ «عِيطُونَا» طَايْحَا بْـ: الْمْدَامْ تْلاَغِي».

أما أنا فمع الرأي الأول، وعندي من الأدلة ما يدعمه، وقد عالجت الموضوع برمته في ترجمة الجيلالي امتيرد «من كتابي» أعلام الشعر الملحون» وسيصدر قريبا إن شاء الله.

أما «الغزل» فيكفي - في نظرنا - أن يقول الرجل لامرأة : ان ثوبها جميل وأن ألوانه متناسقة ترتاح إليها النفس، فقد تغزل فيها حتى ولو لم يقصد وعلى هذا الأساس أسوق قصيدة «الياسمين» للحاج إدريس بن علي وهو من المعاصرين للسلطان الجليل الحسن الأول قدس الله سره.

طَابْ السّْرُورْ وَنْسِيمْ رْضَاكْ يْفُوحْ كُلْ حِينْ   وَيْعَطَّرْ الرّْيَاضْ أوْيْعَبَّقْ بِالطّْيبْ مَنْ كْمَامَكْ
وَعْرَايِسْ الأزْهَارْ يْخَضْعُوا لَبْهَاكْ مَايْلِينْ   وَالْيَاسْ، قَامْتَكْ يْتْمَخْتَرْ وِيتِيهْ مَنْ قْوَامَكْ
وَحْنَا فْ : هَلْ عَطْفَكْ يَامُولاتِي مْنَزْهِينْ   فْ : الْعَزْ وَالْهْنَا وَالسّْطْوَا وَالسّْعْدَكْ غْلاَمَكْ
لاَتِيهْ لاَجْفَا لاَهَجْرَا الْقْلُوبْ سَالْبِينْ   بَالْفَرْحْ وَالسّْرُورْ أوْلَمْنَا وَالْخِيرْ فِي مْقَامَكْ

*****

أنْتْ اللِّي عْلاَ شَانَكْ عْلَى لَبْنَاتْ كَامْلِينْ   وَالشّْمْسْ فْ : الضّْحَى تْسْتْحْيَا وَتْغِيبْ فِي خْيَالَكْ
أنْتْ جْمِيعْ هَلْ لَمْحَاسَنْ لَبْهَاكْ خَاضْعِينْ   مَارِيتْ فْ : الْغْوَالِي مْصْرَارًا بَاهْيَا ابْحَالَكْ
انْتْ السَّاكْنَا فِي قَلْبِي مَاطَالَتْ اسْنِينْ   وَنْتْ الْمَالْكَانِي مَنْ بَعْدْ كُنْتْ لِكْ مَالَكْ
بَالسّْرْ وَالطّْلاَفَا وَالْعَقْلْ الرَّاجَحْ الْفْطِينْ   غْزِيلاَ لْبِيقَا وَعْذَابْ الْقَلْبْ مَنْ جْمَالَكْ

*****

أنْتْ جْوِيهْرَا مْكْنُونَا فْ : الْعَقْدْ الثّْمِينْ   وَنْتْ وْيقْتَا وَالْيَاقُوتْ قْلِيلْ فِي امْثَالَكْ
وَالْجُوهَرْ النّْفِيسْ السَّاطَعْ وَالدّْرْ وَاللّْجِينْ   قْدَامْ صُورْتَكْ يْتْلاَشَا، وَاشْ قِيمْتُو قْبَالَكْ؟
أنْتْ الرُّوحْ وَالرَّاحَا، عَنْدَكْ خَاطْرِي رْهِينْ   فْكّْنِي بْسِيرْ حُسْنَكْ وَفْدِي مَنْ زَاكْ فِي دْلاَلَكْ
وَتْبَسْمِي يْبَانْ الجُوهَرْ فْ : الْخَاتَمْ الْحْصِينْ   وَتْمَايْلِي وَتِيهِي يْحْلاَلِي كُلْ مَاحْلاَلَكْ

*****

أنْتْ فِي وْصَافْ بْهَاكْ يْحِيرُوا الوَاصْفِينْ   وَالْقُولْ يَنْتْهِي وِيَنْحْصَرْ الْكْلاَمْ فِي وْصَافَكْ
وَغْصَيْنْ الْقْدِيدْ وَغْرَابْ الشّْيتْ وَالْجْبِينْ   وَبْجَاهْ حَاجْبَكْ لَمْعَرّْقْ رْقَمِي لِي حْجَابَكْ
وَعْيُونْ كْعْيُونْ الظّْبِي اسْرَادَا مْهَدْبِينْ   وَإلَى انْجِيوْ الْحَقْ الظّْبِي يْغِيرْ مَنْ عْيَانَكْ
اطْلَبْتْ الشّْرْعْ مَنْ لَشْفَارْ اللِّي امْخَبْلِينْ   وَالْخَدْ وَرْدْ حْبَاشِي يَجْرِي فِيهْ مَا شْبَابَكْ

بكْ السوايعْ أو الايامْ أو الاوقاتْ زاهيينْ — ومباسمْ السعادا تضحكْ بسرورْ هاتفالكْ
ونتي في حللْ وحلي والذهبينْ واقفينْ — نحكي لويمنات تقولْ لمنْ جايشوفْ : مالكْ
والعودْ ينحرقْ ودموعْ الشمعاتْ ساكبينْ — ونت ف: قلبْ قبا ملوكيا بمازها لكْ
هاكْ الالفاظْ تسحرْ هلْ الاذواقْ المتبينْ — نحكي عقودْ جيدكْ، وحلوا كنها مقالكْ
منْ رايقْ النظامْ اللي شهدو لو الفايزينْ — ادريس بنْ علي قولو ما بينْ الريامْ سالكْ

اللازمة أو «الحربة»

صولي بطيبْ لمحاسنْ يا مشمومْ كل زينْ — انا ف: عارْ ذاكْ الخد الذهبي ومسكْ خالكْ

تكفي قصيدة «الياسمين» للحاج إدريس بن علي كنموذج للغزل في الشعر الملحون، إنه مجرد تلطف، أو لباقة، أو أنه النبل في التعامل مع المرأة.

أما التغني بالمفاتن الحسية للمرأة، ووصفها من رأسها إلى قدميها، وتصويرها في غلالات لا تكاد تخفي أي شيء من مفاتنها الجسدية، فذلك لا يكاد يحصى. ويكفي أن نجتزئ هذا الوصف من قصيدة «الباكي» للتهامي المدغري الذي لا يدانيه، ولا يمكن أن يجاريه أحد في هذا الباب.

سبابي ونظرتْ «القدودْ» تتمايلْ — وتساعفْ النسيمْ يمينْ ويسارْ
و«منوالفْ» و«حفايرْ الشعرْ» — باليافوتْ الرفيعْ ونسومْ ذكيا
و«الغرا» و«جبينْ» شمتْ ليلْ «الوفرا» — برقْ أو هلالْ وثريا والغرارْ
والمجبينْ «نونينْ» ف: الصطرْ — علقوا عطفا على السيوفْ المسقيا
و«الشفرْ» الذباحْ تقولْ صارمْ و«هذابْ» — مريشينْ فوقْ «الفنجْ» المسحارْ
والخدْ «العكري» بلا عكرْ — و«الخالْ» غلامْ في عريصنا مسقيا
و«المعطسْ» سوسانْ رونقْ ركابو — للسلطانْ عاقدوا منْ ذهبْ الاشجارْ
و«المبسمْ» مختومْ و«الثغرْ» — عقدو مصيونْ و«الشفايفْ» قرفيا
والركبا «عراضْ» ف: «الفيلالي» مايا — منْ حيْ ما يرومْ الغاشي حذارْ

و«القـفـشـين» «صنوارم» السـقـر ... و«صنباغ» «قلوم» و«الكفوف» حريريا
و«الصدر» رخام مـرمـري فـ: ... منازة ملوك أرهنا الأشراف الدكار
و«نهيدات تفاح» قـ: الشجر ... ولل رمان في غريضنا مخضبا
و«البطن» الطاوي على المطاوي يطوي ... قلب العشيق طي اللألو تمكار
و«الصرا» بالكاس تنغبر ... والكاس جرات في طرافوا حمبا
و«فخاض» اسواري من الذهب فـ: ... منازة لعمالق الدقاما قوم الشفار
صانوها في قببت الذمر ... ولا توجد في قبوب السغديا
و«الساق» اسقاني كما سقا «قيس» ... و«امرؤ القيس» و«بن الملوح» من دون عقار
«ساق» احمر من واضح احمر ... «القدام» امحنيات زادوني كيا

هكذا هي قصائد التهامي المدغري «العَشَّاقِيًّا» التي أعرف منها ما لا يقل عن مائة قصيدة تكاد تكون كلها على هذه الوتيرة، أما الأويقات الحمر، والآهات اللاهثة الملتهبة :

«اخلفت الغدار فـ: محراب الهوى وصليت ... ومطارب الخمر تركع لصلاتي

ادريس بن علي

نسيني تحت الظلال بين اذروعك لملاح ... والـلـبـــــــــا والدواح

التهامي لمدغري

لي ذراعها بات وسادا وريقها ... بات اشرابي نرشفو بطعم الذيذ

عبد القادر العلمي

فلا تكاد تنجو منها إلا قلة قليلة من أمثال بن سليمان العميري، بوزايد وأمثالهم.

ولو لم تكن في مثل هذه القصائد، أشياء تراثية جميلة، من مقولات، وتمثلات ومعاني مغربية صميمة، ونوادر، وطرائف، وملح، ودعابات، من إبداع الصانع التقليدي، وحكايات ومغربات كانت رائجة في أوساط الصناعات التقليدية واندثرت، ولم يعد لها

من أثر يذكرنا بها الا في مثل هذه القصائد. أقول : لو لم تكن في مثل هذه القصائد كنوز وذخائر تراثية لازلنا نتتبعها ونحاول أن نوثقها، لناديت بإلقائها جميعها في البحر حتى ولو كنت على يقين تام من أن التعبير في جلها ما هو إلا قصد التعبير، أو قصد التصوير، ولا يخفى ما فيه من كبير نفع لمخيلة الانسان الذي لا يقرأ ولا يكتب، أو لتصوراته.

نعم قد نجد بقية من حياء في القصيدة التي لا يتجاوز كاتبها في الوصف صدر المرأة كقصيدة زينب لـ : بن علي ولد ارزين.

رُمْحْ «قَـــدّكْ» بِيوَانِي صَـــابْ   و«السّوَالفْ» تكْسِي ذَاتْ الكْمَالْ كَمْ مَنْ نُوبَا
و«الجْبِينْ» انْوَارُو تَلْهَبْ
«حَـاجْبِيكْ» قُـوسْ رَمَـا نَشَّـابْ   و«النْوَاجَلْ» شَهْلاَ بَالسّحْرْ رِيشْهَا مكْتُوبا
شِي مَنَ السّحْرْ وَزُوجْ احْرَبْ
و«الخْــدُودْ» وَرُودْ فـ : تَخْـــصَـــابْ   بِينْهُمْ «غَنْجُورْ» فـ : تَسْلِيسْ زَانْهُمْ خَصُوبا
وفَـ : «الثّغَرْ» دُرّ اللاَّ تَكْسَبْ
سَـــرْ فَـ : «العَـــتْنُونْ» الرّكّـــابْ   زِينْتْ «البّا» و«الركْبَا» الوَافْيَا المَسْلُوبَا
و«العَضْعَضْ» بْرُوقْ فـ : لَحْجَابْ
و«الكْفُـــوفْ» اصْـــبَغْ مَنْ عَنَّابْ   و«الصّبَاغْ» قَلُوبَا بْخَوَاتَمْ الذّهَبْ مَرْكُوبَا
وفـ : «الصدر» رمان امحجب

ويقف عند هذا الحد ليقول:

شَيْء مَنْ وَصْفْ وْصِـــيـــفَكْ جَـــابْ   يَاللّي مَا تَشْبَهْ لَبْهَاكْ يَاهْيَا مَادُوبَا
لاَفْـ : لَمْدُونْ وْلاَفْـ : عْرَبْ

ومنهم من وقف عند حد محاسن الوجه، ومنهم من اقتصر على جمال العيون أو جمال الثغر، ومنهم من اكتفى بإشراقة بسمة، أو رنين ضحكة بل قد نعثر على أبيات هنا وهناك، وحتى على قصائد

كاملة، تتجاوز جمال المرأة الحسي لتصل إلى جمالها المعنوي، رقة مشاعرها... رهافة أحاسيسها نبل أخلاقها. و... و.... إلى آخر محاسنها المعنوية.

وخير من أعطى العطاء الأوفر في تجاوز القشور للتعامل مع اللباب هو «سيدي هاشم السعداني» رحمه الله.

زِينْ وتَحْتْ الزِّينْ سَرْ مَا يُوصَافْ فَـ: الأشْعَارْ ... مَـا يَتْـنْـظَرْ بَـبْـصَـارْ
زِيـنْ ايْـحَـيَّـرْ الأفْـكَـارِي ... زِينْ الرُّوحْ الطَّاهْمَا يْخَلِّي لَمْحَاسَنْ عَاطْرَا
وَقْلَبْ حْلِيبْ صَـافْـيَـا وَتُو بْعِـيـدَا ... مَنْ كُلْ غْـيَـارْ والرُّوحْ مَنْ التَّطْهَـارْ
«هِيْ سَـبَّـتْ تَـطْـهَـارِي» ... والعَزَّافْ : النَّفْسْ خَرْقْ عَادَا فْـ: النَّظْرْ ظَاهْرَا
لْبِـيقَـا وَمْـانْيَا «لْطِـيفَـا» دُرَّتْ الأبْكَارْ ... بِـكْ يْـطَـهْـجُـوا الأفْـكَـارْ
يَارُوحْ جْـمِـيـعْ اشْـعَـارِي ... يَاسَرْ مَنْ اسْرَارْ مَنْ عْمَلْ فِيكْ اسْرَارُو ظَاهْرَا
والرَّافَا والذُّوقْ واللَّطَافَا واسْرَارْ اكْثَارْ ... فِـيـكْ أَمْـرَتْ الأَمْـرَارْ
وطِيبْ اغْـبَـقْ عَـلَّـلْ تَـغْـمَـارِي ... يَا مَاوَرْدْ الخُلْدْ فِي مْرَشَّا مَنْ جُوهَرْ بَاهْرَا
فِيكْ كْتَابِي فِيكْ لُوحْتِي فِيكْ قْرِيتْ اسْرَارْ ... مَـادَرْكُـوهَـا الأَحْـبَـارْ
مَـاكَـتْـبُـوهَا فَـ: شْطَارِي ... يَاسُبْحَانْ اللِّي انْشَاكْ شَهْدَا ابْمْصَالُوا عَامْرَا

فالمرأة إذن عند السعداني «مَاوَرْدْ الخُلْدْ فِي مْرَشَّا مَنْ جَوْهَرْ» وتلك ـ لعمري ـ حقيقتها، فسبحان من أنشأها «شهدا بمصالو عامرة» وهي عند بنسليمان «مفتاح سر الرجل».

«انْتَ مَـفْـتَـاحِي يَا مَـسَـرَّخْ اسْـجَـانِي»

يكفي هذا القدر من موضوع «العشاقي»، ولنتتبع المرأة في الموضوعات الاجتماعية الأخرى، فمثلا في قصيدة «عجوز أو شابة للتركماني» المتوفى في العقد الأول من القرن الميلادي الحالي،

أغضب الابن أمه فقالت :

تسع شهور أرثت اف: بطني وانا بالحمل ف: العذاب   والثقل وقاسيت الشقاب
وتهار خلاقتي نسيت القهريا والمتاعبا

احلا شربي ولد قوتي بوجودك والمنام طاب   وخففت اللي غطا وهاب
وكمل قصدي وفرحت على فرحي لحباب قاطبا

واما سافرت من ليالي ودموعي حليفا مكاب   واما ملقت من لحجاب
وما داويت عند طبا وقراري بك تاعبا

وماقبيت فيك من حر الصهد وبرد والضباب   وخوف الطير والدواب
وما قريت يالكلب ودرت عزيزا من وكبا

والقالي بالرخيص بعتو من عرسك سول الحباب   وبلا منة بلا حساب

ولعل عبد المجيد وهبي وهو من المعاصرين، أراد أن يثلج قلوب الأمهات بما فيها قلب هذه الأم فكتب قصيدة كاملة عن الأم أسماها «لميمة» نجتزيء منها هذه الأبيات.

عامين ونت ترضعيني لحليب انساب   من تسنيك راق او طاب
هو اكلي وشرابي هو اول قوت به ذاتي نالت ماراغبا

بيديات احنان كاتلفي ذاتي ف: ثياب   وتخافي لا تنصاب
والبرد ايلف اجنابي وتفزعي من عين كل معيان تباتي راهبا

غير انا نبكي انت قليبك يخفق مرتاب   ياغي يعرف الاسباب
وعلاش ابكاوا اهدابي وقراري بي لمين تفقو لعيون الساكبا

كنت ضعيف وكان عود ذاتي لين مرطاب   وشبابك في شباب
ونا فارح بشبابي كيف اندير انرد مافنيتي لعضاك الشايبا

يا امي لعبلا نايمة ونت ف: الديجان   تشولنا بالسهراب
هذا هو الثقاني هذا هو الحب حين يخفق لقلوب الساخنة

حبك حب حنين هزني هيج لي الاكنان   واصبح قلبي ريان
نظرت عينك ف: عياني فيها نور الله شع.. شعشع... والحب اللا افنا

ياوردا بالطيب شافيا يسقيك الهتاب   وتعيشي ف: الأمان
حامل ليك التهاني ونتي شمعا امنورا منك صر انوارنا

يَانَغْمَةْ بَالْحَانْ صَانْجَا يَالْحَنْ الأَكْوَانْ   صَـــــوتْكْ لَحْنْ الأَلْحَــــــانْ
لِيكْ انْهَادِي الْحَانِي وَالْعَازَفْ قَلْبِي وَبِكْ لَوْلاكْ قَلْبِي مَاهْنَا

ونعود إلى التركماني، وهذه المرة مع قصيدة «الشايب والشابة» وهي قصة فتاة في منتصف العقد الثاني من عمرها باعتها أسرتها ـ ولا أقول زوجتها ـ لشيخ هرم وعانت ماعانته من ويلات هذا الزواج غير المتكافئ، وتحملت ما تحملت، وبعد صبر مرير انفجرت فصرخت: «**بَعْدْ مَنِّي... يَكْفَاكْ مَا تْحَزَّزْ فِيَّ، مَلِّيتْ مَنْ عْشَرْتَكْ وَاللهْ مْعَكْ مَا نْزِيدْ نْكَابَرْ، ولاَ نْكُونْ مَرْتَكْ... وَلا لِيَّ تْكُونْ رَجَلْ، وَنْتَ بَعْدَا وَاشْ رَجَلْ؟ وَأَنَا مَنْ يُومْ جِيتْ بْكُرَةْ مَازَالا كِيفْ جِيتْ**».

للاشارة فقط، نحن مع التركماني هنا في الأدب الملحون، وليس الشعر الملحون... أي أننا نقرأ «النثر الفني في الملحون»، وهو ما يسمى في اصطلاحات مدرسة الملحون القديمة «بالسوسي».

فهو غير مقفى، ولكنه يعتمد السجعة بكل أنماطها وأشكالها وكما هي في المقامة، العربية القديمة، وهو غير خاضع لأي بحر أو عروض ولكنه «النثر الفني» السلس الذي لا يتعثر انسيابه، ولا يخلو من تناغم، وفيه صاغ كبار الشعراء، روائع الملحون القصصي.

بعد هذه الاشارة العابرة حتي لا يختلط الأدب الملحون بالشعر الملحون نعود إلى التركماني، وإلى فتاته المزمجرة: **وَالْيُومْ انْتَيَا سِيرْ شُوفْ غِيرِي، وَنَا نَمْشِي نْشُوفْ غِيرَكْ، وَالشَّايْبْ مَا تْنَاسْبُو**

غيرْ مْرَا قَدُّو تْسَاعفْو ويْسَاعفْهَا ويتْوَالْمُوا فـ : الْعَشْرَا مَنْ حَالْتْ
الْكْبَرْ، فَارَقْنِي لَلَهْ سيِرْ شُوفْ مْرَا قَدَّكْ شَايْبَا ابْحَالَكْ، وَتْقَبَلْ عْلِيكْ
بْزْمَنْهَا، وَتْطَيْبْ لِيكْ مَا كْتَابْ مْنَ الْقُوتْ عْلَى شَهُوتْ نَفْسَكْ.
ويلاَجِيتِي تَلْقَا، مُوضَعَكْ مْفَرْشْ، والطْعَامْ وَاجَدْ، وَالضُّو مْشْعُولْ،
والْوْضَو يْسْخُنْ لَكْ.
طَنِّيتْ الرْتَاجْ زْهَقْ لَكْ، عَنْدَاكْ الْوْضُو يْبْرَدْ لَكْ
ويلاَ وْجَبْتْ لُوقْتْ نُوضْ تْوَضَّا وَقَابَلْ الْقْبْلاَ وَتْهَلاَ فـ : دِينْ رَبِّي
وَعْمَلْ تَسْبِيحْ لَلذْكَرْ، وَتْوَلَعْ بَالصُّومْ... وَالْفْجَرْ، صَلِّيهْ فـ : وَقْتُو لاَ
يْفُوتَكْ
وَعْمَلْ فِي بَالَكْ الشْهَادَا، وَشْهَوْتْ النَّفْسْ تُبْ عَنْهَا.
وحْتَالْ اللِّيلَتْ الْقْبَرْ، واعْتَصَمْ بَاللَهْ لاَيْنْ كْبَرْتِي وَهْرَمْتِي وْلاَ بْقَالَكْ
قَدْ مَافَاتْ فـ : الْعْمَرْ.
وَانْيَا مَا زَلْتْ شَابًّا وَصْغِيرًا، رَبِّي يْجِيبْ لِيْ رَجْلْ قَدِّي نْوَالْمُو
ويْوَالْمْنِي
ونْحَسَنْ زْوَاجِي ونْفَادِي كُلْ مَامْضَا، وَنْدُوزْ صْغْرِي وَمْوُلْتْ شْبَابِي
كِيفْ بْغِيتْ، وَنْتْمَتَعْ بَنْزَايَهْ كِي نْرِيدْ، فِي أيَامُو نَبْرَزْ فَابْرَازْ،
أوْ نَعْمَلْ مَا دَارْتْ الْبْنَاتْ ابْحَالِي، ونْذُوقْ غَلْتْ الرْجَلْ. وَنْتَ كُلْ مَا
خْسَرْتِي قَبْضُو وَعْطِنِي فْصَالِي بَالْعَقْلِيَا بْلاَ شْرَعْ نَتْفَرْقُو، وَلَلْ
تْدُوزْ عَنْدْ الْقَاضِي؟
يْفْهَمْ كْلاَمْنَا ويْجُولْ فـ : مَعْنَاهْ ويْفَرْقْنَا بَاحْكَامْ الشْرْعْ... هَكَذَا قَالَتْ
لُو مْزْرُوبَا. كَانْ تْسَالُوا يَاحَاضْرِينْ.

وهذا السكير الذي يصحو في الصباح الباكر ليجد أمامه الزوجة الصبور تنظر إليه باشفاق، وتعاتبه في صمت، فيستحيي منها، ويخجل من نفسه، ويرتعش، ويتصبب العرق من جبينه، ويجيش صدره، فيناجي ربه الحليم وقد طأطأ رأسه :

كَانَشْتَهْيَا نَرْفَعْ الْبْصَرْ   أوْ انْزِيدْ نْعَاوَدْ انْدَمَّرْ

أو نَبْسَطْ لَكْفُوفْ كي نْدِيرْ

مَنْ ذَا نَشْفَاهْ يَاتْرَى

مَالِي سِوَا اللّهْ وَلْجَمْعْ الوَرَى

أنَا اللّي مُولُوعْ بِالْخَمْرْ   وَنَا اللّي سَاهِي عْلَى الذَّكَرْ

وَانَا اللّي مْسْتَاهَلْ النْحِيرَه

لَكِنْ اعْبِيدَاتَكْ الصْغَارَه   وَالوَفِيَّة الصْابْرَة

مَاتْنَبُوا مَاعْصَاوْا هَبْهُمْ لِيغَازِي

ثم تأملوا معي هذه الصورة لامرأة مومنة كما رسمها الشاعر المعاصر :

انْبْغِيكْ تْرَاهَا فَـ: حْرامْ	مَنْ الهَامْ انْزَلْ عْلَلْ الأقْدَامْ
والصْيَامْ اوْقِيَامْ يَاللّي عَامِي	دَاتْهَا صَارَتْ رُوحْ وَلاَبْقَاتْ تَقْوِيمَا
وَنَبْغِيكْ تْرَاهَا بَانْيَامْ	وَاقْفَافْ : حْضَرْتْ العْلاَمْ
تَشْدَمْمْ لُو تَدْمَامْ فَاقْ تَدْمَامِي	وْفَاقْ تَدْمَامْ العَدْوِيَّة النَّادْمَا بِيمَا
وَنَبْغِيكْ تْصِيغْ النْحْكَامْ	فِي قْرَايْتْ سُورَتْ الأنْعَامْ
والتَّرْتِيلْ التْمَامْ تْوِيبْ انْدَامِي	بْصُوتْ نَسْرِي يَسْرِي وَسْطْ المْهَاجْ لَكْلِيمَا
الحَافْظَا مَا قَالْ السْلاَمْ	وَالحْدِيثْ نْخِيرْ الأنَامْ
فُوقْ اَمَامَنْ حِكَمْ زَادَتْ انْظَامِي	لاَلَّا مُولاَتِي سَرْ المْحَاسَنْ حْلِيمَة

إلى أن يقول :

لاَهْ مَا انْسَطَّابْ النْسْمَة   اللّي اسْمَاتْ عْلَى كُلْ سْمَا

وَسَرْهَا دَايَمْ

لاَهْ مَا انْصَفَى لَلْنْغْمَة   اللّي انْسَابَتْ لَفْاَذْ اغْمَا

ابْحَرْ لَمْظَالَمْ

لاَهْ مَا نَغْبَطْ فَـ: الرّحْمَا   اللّي اسْرَاتْ الوِجْدَانْ ضْمَا

فَـ: قَلْبْهَا عَايَمْ

إلى أن يقول :

لاه مَا تَسْكُنْ رُوضْ نْمَا جْدَاوَلُو تَنْطَقْ بَالحَكْمَا
وْخَاطْرِي نَاظْمْ
لاه مَا تَفْرَقْ فِي نَعْمَا جْلاَتْ مَنْ لَدْوَاخَلْ غُمَّا
سْرَاتْ مَنْ قْدَامْ

هذا ولم نشر حتى الآن إلى مفاخرات النسوة «عَرْبِيَّة وَمْدِنِيَّة» «عَصْرِيَّة وَزْمَانِيَّة»، الشَّابَّا وَالشِّيبَانِيَّة»،وكيف تفاخر كل واحدة منهن بوضعها في المجتمع، وتزهو بما تقدم له من خدمات، كما لم نعرج على شعر «الحلقة» وللمرأة فيه حصة اللبوة.. وخصوصا المرأة الكادحة...

«العَاشقَا مُولاَتْ التَّاجْ» المرأة التي صفعها الابن العاق» «قصائد نَفْقِيهْ» استغفر الله العظيم... أقصد المشعود الذي يتلاعب بعقول النساء. على كل حال، يكفي هذا القدر من الاجتماعيات، مادمنا نريد من كل روض زهيرات.

يمدح شاعر الملحون «مولاتنا فاطمة الزهراء» مثلا ـ وليس من بين فحول شعراء الملحون من لم يمدح مولاتنا فاطمة الزهراء ـ فيكون في ثنايا المديح ثناء على شيم الممدوحة، على شمائلها، على مكارم أخلاقها، وفي ذلك بالتأكيد ما تقتدي به المرأة في حياتها اليومية، أولا يدندن الزوج، أو الأب، أو الأخ أمامها بمثل هذه القصائد من حين لآخر... بل لم لا تكون هي قد حفظتها عن ظهر قلب، وتغنت بها مع أترابها. اقرؤوا معي هذه الأبيات من واحدة من عشرات بل مئات من المَدَّاحِيَّاتْ :

مَالِي طَبْعْ الزُّهْدْ عَاشْ بِهْ أَفَاهَمْ الأشْعَارْ   و«الزَّهْرَا» بالزُّهْدْ رَاضْيَا صِيلْتْ الأبْرَارِي
والقِلَّةْ مَنْ زُهْدْ كَانَتْ المُولاَتِي فَخْرَى   لاَبْدَعْا لاَفْيشْ لاَفْشَرْ فِيهَا لاَتَهْتَارْ
لاَجُوهَرْ وَلاَ لُويزْ عَنْدْ هْلاَلْ ابْصَارِي   لاَأَثَاثْ فَ: قَلْبْ دَارْهَا يَفْتَنْ فَ: النَّظْرَة
لاَتْسَالْ عَنْ زُوجْ لاَلَّلاْ نَابَنْتْ المُخْتَارْ   حَزْمْ أو عَزْمْ وجِدْ عَنْ الزُّهْدْ ـ اصْفَى لاَشْعَارِي»
والفُرُوسِيَا امْجَنْدْ لاَقِيصَرْ عَنْ كِسْرَا   هِيْ «الزَّغْرَاتَا» إِلَى يْبَارَزْ فَارَسْ مغْوَارْ
أُوهِيْ لَمْوَاسْيَاهْ فِي شَدْ التْغْسَارِي   وَهِيْ الأمْ اللِّي اعْنَاتْ بَتْصِيتَاتْ الشَّجْرَة

وبعد أن أثنى على مولاتنا فاطمة الزهراء كزوجة، يعود فيثني عليها كأم :

هِيْ مَنْ رَشْفُوا طْفَالْهَا هَذْ الدِّينْ انْهَارْ   رَضْعُوهْ مِنْ حْلِيبْهَا نْقِي صَافِي لَغْيَارِي
أُوبِهْ تْفَطْمُوا وكِي ابْغَاتْلِهُمْ الزَّهْرَا...   هِيْ مَنْ رَبَّاتْ كُلْ وَاحَدْ فِيهُمْ صَبَّارْ
وهِيْ مَنْ عَمْرَاتْهُمْ وَهُمْ ادْرَارِي   بالحِكْمَا والعِلْمْ والأخْلاَقْ انْسِيدْ أمْنْ اسْرَى
هِيْ مَنْ قَرَّاتْهُمْ قْبَلْ الطَّلْبَا الأسْوَارْ   وَرْوَاتْ لِهُمْ الحْدِيثْ ذْ المَحْبُوبْ الوَارِي
وَمَا مَنْ حَكْمَا اخْدَاتْهَا مَنْ يُومْ الهَجْرَة   كَانَتْ دُرِيَا مْصَغِيُورَة...

وهنا يعود بنا إلى فاطمة الزهراء الطفلة... فيصفها في أحلك فترة عرفتها الدعوة الاسلامية في نشأتها.. وفاة والدتها مولاتنا خديجة الكبرى... وفاة عم النبي الكريم، وقد كان يسانده ويؤازره.. محنة الطائف...

وعلى ذكر أم المومنين مولاتنا خديجة الكبرى رضوان الله عليها هي أيضا مدحها الشعر الملحون، وأثنى عليها، ووصف الشيء الكثير من صبرها وتحملها ومعاناتها إلى جانب زوجها العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

اقرأوا معي هذا المقطع، وقد جاء من السيرة النبوية المعروفة في الملحون بعد نزول الوحي لأول مرة، وبعد رجوع النبي الكريم إلى داره يقول : «زملوني... زملوني...».

وبعد أن تستفسره مولاتنا خديجة عما به وهي تدثره بالأغطية وبعد أن يروي لها ما شاهد في «غار حراء» ويقرأ ما نزل من الوحي «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، تجيب بحكمة المرأة العظيمة ورجاحة عقلها :

ابْشَرْ يابَنْ العَمْ منْطَقَاكْ لْدينُو   رَبْ الكَعْبَة انْتَ اللّي سَرَّكْ بَايَنْ

هكذا أجابته أم المومنين بكل ثقة واعتزاز، وبكل إيمان ويقين

ابْشَرْ يابَنْ العَمْ منْطَقَاكْ لْدينُو   رَبْ الكَعْبَة انْتَ اللّي سَرَّكْ بَايَنْ
لاَتخْشى مَنْ الجَنْ مَاشي تَجْنينُو   ولاَشيطَانْ قـ: الشّيَاطَنْ لَمْلاَعَنْ
هوَ مَلاَكْ بهْ الاصْحَابْ يْهَدينُو   نْتَ نْبِي بِكْ الأَعْرَابْ اتْآمَنْ
ومْتَارَحْ خَاطرُو وْنَامْ عَنْ يْمينُو   غطَّاتُوا زوجْتُو بَالْغطَا لَمْلاَيَنْ
ومشَاتْ تَشُوفْ كيفْ تَضْحَى فْعُوينُو   وتْخَلِّي مَاخْفَى مَنْ الوَاقعْ بَايَنْ

وتمضي إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» علها تستعين بخبرته وحنكته، خصوصا وأنه كان قد ترك وثنية قريش. وتنصر... وتقص عليه ما وقع لزوجها الكريم في غار حراء، ويفاجأ.. وينبهر.. ويذهل

سَبْحَ لَلَّهْ قَايَلْ الصُّبْحْ غْلاَيَنْ   يَا «خديجة» وليه مَازَلْتْ نْعَايَنْ

ذلك ما قاله ورقة، وهو يتصبب عرقا.

الصُّبْحْ غْلاَيَنْ..................   يَا «خديجة» وليه مَازَلْتْ نْعَايَنْ
وَعَادَتْ الزَّوجَة لْفْضيلاَ بْقَلْبْ فَرْحَانْ   تْبَشَّرْ وتَشْهَدْ بَافَاهَمْ المْعَاني
صَدْقَتْ خَديجَا نْبي هَلْ الايمَانْ   وشْهَدَتْ مُولاَتي بالقَلْبْ واللّسَاني

وهكذا أعاد رجل الملحون إلى الأذهان أن المرأة كانت السباقة للايمان في شخص مولاتنا خديجة الكبرى رضي الله عنها.

ومدح رجل الملحون «الصديقة بنت الصديق» وأثنى عليها، وعرج على قضية الإفك ليطرحها بكيفية تتأسى معها كل تقية ورعة مصون مست في شرفها.

أولا تشكل مثل هذه الروائع، مع ما كتب عن كل أمهات المومنين، وما كتب على «الخنساء» و«السيدة سكينة» أقول : أولا تشكل هذه الروائع مدرسة لتعليم المرأة، على الأقل التي لا تقرأ ولا تكتب؟ وختاما... لو لم يكن شاعر الملحون ينظر إلى المرأة نظرة إجلال وإكبار لما رمز بها لأقدس مقدساته :

«الحنيفية السمحاء» في بعض قصائد الملحون امرأة جاءتنا من شبه الجزيرة العربية.

مَكْتُوبْ عْلَى جْبِينْهَا «أَلَمْ نَشْرَحْ» وَحْرُوفْ الزِّينْ شَرْحْ وبْكُلّْ فْصَاحَة
سَعْدْ اللِّي حَازْهَا لَقْلْبُو «قَدْ افْلَحْ» يْنَامْ افْرَحْتُو عْلَى جَنْبْ الرَّاحَة

واقرأوا على سبيل المثال «ضيف بجيوات» أو «ضيف السعداني» الكعبة المشرفة رمزوا لها في بعض قصائد الملحون بالمرأة.

ارايْتْ الْمْلاكَة يَامُولاَتِي الْعَالْكَا لِيكْ الْعَبْدْ وَكُلْ مَا مْلَكْ
لاَ لْلاَ مْلِيكَة خَمْالْتْ الْمْلِيكْ

واقرأوا، وأيضا على سبيل المثال : «لخليلة الثانية» (ولد آرزين) «فضيلة» (السعداني)، «ليلى» (بُوزايد) ورمزوا بها للحكمة.

دَامـــــي شَـــــــرّادَا   الْقِيتْ شُورْ الوَالِي سِيدِي سْعِيدْ
بْغَـــــيْـــونْ سْـــــرَادَا   رَاحْ عَقْلِي مَنْهَا مَوْخُـودْ

وعلى كل حال فالموضوع لا يتسع له هذا المقال ولو طال، وحسبي ان أكون قد خرجت : ب «المرأة في الملحون» بعض الشيء من ذلك الحيز الضيق الذي اصطلح الناس على تسميته بالعشاقي، إلى مجالات أرحب وأوسع، وأفيد وأنفع.. وبالله التوفيق و...

«السْلاَمْ علَى «الْمَرَاْ» فَـ : السْلاَمْ لَمِّيّ   وفِي سْلاَمِي لَخْتِي ولْزَوْجْتِي فـ : تَغْلِيمِي»
«والسْلاَمْ عْلِيهَا فـ : سْلاَمْ مَرْتْ عَمِّي   حِينْ حَنْتْ عْلِيَّ يُومْ مَــاتَتْ امِّي»

*****

وشم المرأة في الشعر الملحون: دلالة الرمز في خطاب الجسد وخيال الذاكرة

عبد العزيز أعمار (*)

((الوشم كتابة بالنقط (...) يحتمل فيها أن تكون خاضعة لمعرفة، لمعرفة ـ الفعل، لرغبة ولانتقال علامات تكون تارة منقوشة على الجسد وطورا مهاجرة إلى فضاءات أخرى، علامات رمزها الأصلي دائما مفقود لدينا لكن نقشها لا يزال يعيش، متحديا نظرياتنا حول مفهوم العلامة))[1].

عبد الكبير الخطيبي

((إن معظم الوشم المغربي كان ولا يزال مظهرا من مظاهر تأنق المرأة (...) لكن أية فكرة يمكن أن تحرك نساءا لا يتراجعن أمام الألم والمعاناة لكي يتزين ويتباهين بهذا الزخرف؟ هل هي الرغبة في إرضاء أزواجهن والتحبب إليهم؟ حتى يتسنى لنا مزيدا من القول، لابد من معرفة عميقة بنفسية المرأة المغربية))[2].

جون هير بير

(*) أستاذ باحث بوزارة الشؤون الثقافية

منذ العصور الأولى والوشم يحظى بمكانة هامة في الثقافة الشعبية عند العرب، إنه حلية وزينة تتباهى بها المرأة العربية، لذا فهو قبل كل شيء رمز للأنوثة، كما أنه علامة لاصقة، رسم ثابت أبدي وتحفة لا يمكن أن يتاجر فيها ولا يمكن أن تحفظ في المتاحف، إن هذا الوخز المؤلم المنقوش على جسد المرأة هو شكل لوحدة فنية يشترك فيها الثبات والابرة والجسد، ويتشابك حولها الخيال بالابداع، والتصور بالممارسة، والمعاناة بالارادة، والانتظار بالصبر.

كذلك هذا الرسم على الجسد، في العادات الشعبية المغربية، له وظائف عدة، فقد يكون علامة من علامات الانتماء القبلي أو طقس من طقوس المرور إلى سن الرشد أو الزواج، كما يمكن أن يكون مفعولا علاجيا (لقاح سحري) أو وقائيا (حماية من شر الحسد والعين الخبيثة) أو إغرائيا (زينة ودافع لحب الجمال).

إن الوشم عند المغاربة، يستلهم زخرفه من النقوش الموجودة في الصناعات والحرف التقليدية كالنجادة، الدباغة، الحدادة، السكافة، الجبص، الخزف، الخشب، الزجاج، النحاس، الفضة، الحلي، النسيج، التطريز... ولهذا نجده ينتشر على جسد المرأة تماما كما تنتشر رسوم الأدوات والأواني والأشياء المحيطة بها والتي يقع عليها نظرها كل يوم داخل بيتها، مما يخلق نوعا من التوازن والتآنس والألفة بين المرأة وفضائها المنزلي، هذا الفضاء الحميمي الذي

يقول عنه باشلار G. BACHELARD بأنه فضاء مميز وقوة كبيرة لالتقاء وانسجام أفكار وذكريات وأحلام الفرد[3]. إن هذا الفضاء تلتقي بداخله وحدات فنية، برموز مهاجرة ومتلاحقة. تتداخل فيما بينها لتخلق طلسما تشكيليا تتفرد به المرأة داخل فضاء بيتها، من هنا يجد الباحث نفسه وهو يحلل الوشم، أمام عالم من الرموز والدلالات، أمام إمبراطورية من العلامات، محكمة التنسيق، تتناغم رموزها في انسجام وتوحد تامين لتبث خطابا سيميائيا يتطلب تفكيكه الوقوف على مستويات منها التاريخي، السوسيولوجي، الانتربولوجي، الانساني، الجمالي، اللساني والدلالي، في محاولة لاكتناه ومعرفة نفسية وخيال الانسان المغربي في الزمان والمكان.

إن الوشم بزخرفه ونقشه، قد يحلم بدلا عنا، لذا فهو قد يشكل مدونة نفيسة للاستخبار عن هويتنا وثقافتنا. ويبقى أن نتساءل عن مدى حضور هذا المظهر الحضاري في أدبنا الشعبي، وعن مدى تفاعله مع خيالنا الجماعي في الشعر والحكاية والمثل واللغز.

في الشعر الملحون وخصوصا في قصائد الحب والغزل، نجد جسد المحبوبة دائما موشوما، مزخرفا برسوم تزيده جمالا وفتنة، بل إن هذا الوشم قد يصير في خيال الشاعر علامة أو ذكرى أو شاهدا على لقاء ومغامرة غرامية.

كذلك نجد العديد من قصائد العشق والغرام في الشعر الملحون تتفرد بموضوع الوشم في شكل سرد أو حكاية، هذه القصائد تعرف عند الأشياخ بقصائد «الحْجَّامْ» وتحكي عادة قدوم محبوبة عند خليلها، في غفلة من أهلها وعشيرتها، فيقيم لها في دياره حفلا صغيرا، ويحضر لها حجاما يشم جسدها فرحا بزيارتها التي طالما وعدته بها والتي طال انتظاره لها، فيصير الوشم في خيال الشاعر تعبيرا عن نشوة اللقاء وسبيلا للحب والوصال.

حتى يكون تحليلنا لقصائد «الحْجَّامْ» تحليلا دقيقا ومركزا، سوف نحصر دراستنا في قصيدتين لهما شهرة وشعبية مميزة، هما : «الحْجَّامْ» لمحمد بن علي المسفيوي، و«الحْجَّامْ» لمحمد بن علي ولد رزين، وتفاديا لكل خلط بين القصيدتين، سنرمز للأولى ب (ح 1) وللثانية ب (ح 2). نشير أيضا إلى أن «حْجَّامْ» المسفيوي قد وردت، في نصها المخطوط، على شكل الشعر المنثور، أي على شكل جمل وأسطر ودفقات شعرية مرسلة، ولم ترد على شكل الشعر العمودي (نظام الشطرين المتقابلين)، ويبقى أن كتابة النص الشفاهي أو هندسته الخطية، تطرح مجموعة أسئلة ودراسات لسانية وشعرية، حول الحدود الفاصلة بين سلطة الصوت وسلطة الحرف، أو العلاقة بين الكتابة والشفاهية في الأدب الشعبي.

في البدء تطلعنا القصيدتان عن الأدوات التي تستخدم في الوشم بالمغرب والتي تتألف عادة من منديل مطرز، وآخر شفاف،

وآنية مذهبة، ومشاريط حادة بأغشيتها، ثم كرسي خشبي عليه نقش، نقرأ عند ولد رزين في (ح 2) :

مَعْمُونَكْ يَا خَجَّامْ نْسَاقْوامْ
النَّاسْ وَمَنْقُوشْ بَالْمَيَّاتْ الْبَالْغَاتْ مَنْ الْبْلاَغَه مَوْصُوفْ
مَنْدِيلَكْ مَنْ الْقْمَاشْ تَرْقَامْ
مَنْ زَرْدْخَانْ مَايَشْبَهْ لِيهْ أوْ لاَ ايْمَاثْلَهْ فَالأَمْثَالْ مَنْتُوفْ

طَاسَكْ حَتَّى مَنْوَامْ مَا سَامْ
مَنْ خَالَصْ الذْهَبْ يَاحْجَّامْ الاَّ ايْخَلْصَهْ اعْدَاكْ ابْمَعْرُوفْ
وَامْشَارْطْ بَالْخَرْطَاتْ يَتْقَامْ
امْنَبْتِينْ بَاثْقَاتْ الأَكِيفَهْ اثْقَاتْ وَافْرَحْ مَنْ كُلْ اسْيُوفْ

وَاغْشَاهُمْ رُومِي صَايَنْ ارْوَامْ
وَشْفَايَفْ الْبَحَرْ مَنْزُولَهْ تَحْسَبْهَا مَنْ الْبَحَرْ الْمَكْفُوفْ
والشَّلْيَهْ فِيهَا دَارْ تَخْرَامْ
الَّي دَارْهَا وهَدَاهَا لْشْمَايَلْ الجْمَالْ الْبَدْرْ الْمَوْصُوفْ

كذلك تطلعنا القصيدتان عن بعض أسماء وأشكال الوشم في المغرب وكذا موقعها في جسد المرأة كالخمسة أو الكف التي إن كانت، عند بعض الشعوب، ترمز إلى الحظ والفأل الحسن، فإنها تدل في الخيال الشعبي المغربي على الرغبة في إبعاد شر الحسد والعين الخبيثة، هذه الكف العجيبة ترمز في الذاكرة الجماعية إلى القوة والوقاية، إنها طلسم لرد السوء، فكثيرا ما نتحدث عن عين الحاسد وعن الوقايةمن شرها بالخمسة أو الكف، وفي أدبنا الشفاهي نحفظ كثيرا من أمثال الحسد والعين الخبيثة :

ـ خَمْسَة عْلَى عِينِيكْ الْعَمْشَة
ـ عَيْنْ الحَسُودْ فِيهَا عُودْ
ـ الحَسُودْ لاَيَسُودْ

أيضا في القرآن الكريم نقرأ في الآية الخامسة من سورة الفلق ((...) وَمِنْ شَـرِّ حَاسِـدٍ إِذَا حَسَدْ). إن هذه الكف السحرية المجردة، ترافق المغربي في كل مكان قد يكون فيه اتصال بالآخر (الغريب) وكأنها كف بارزة تلاحق كل نظرة سوء لتطمسها ولترد شرها، نجدها منقوشة على الحلي، على الأواني، على الزرابي، على الصناديق الخشبية، على الخناجر، على العربات، على أبواب البيوت، بل أحيانا على الآلات الموسيقية وعلى الملبوسات والأفرشة.

إن شكل الخمسة أو الكف في القصيدتين، هو وشم بين الحاجبين، نقرأ عند المسفيوي في (ح 1) :

..نْوصِيكْ دِيرْ لَخْمِيسَة مَنْ فُوقْ لَعْيُونْ، بِينْ حْوَاجْبْ لَغْزَالْ (...)

وعند ولد رزين في (ح 2) :

شُفْ الْبْـــيَـــاضْ ايْنَاسَبْ أُوْشَـــامْ
بِينْ الحْوَاجْبْ اعْمَلْ خْمِيسَة تْلْقَى أَلِّي ايْبَارَكْ فِيهَا وَيْشُوفْ

كذالك تشير القصيدتان إلى شكل الهلال أو حرف النون العربي، وهو وشم للوجنتين، كما تشيران إلى شكل الخال والشامة اللذين هما وشم للخد، يقول المسفيوي (ح 1) :

دِيرْ لَهْلاَلْ عْلَى الْوَجْنَا الشَّارْقَا بْضَنْيَاهَا عَنْدَاكْ لَيْقِيسُوكْ اَشْفَارْ الرِّيمْ كُنْ عَايْقْ فَايْقْ، اعْمَلْ تَحْتَهُمْ الشَّمَا وَالْخَالْ فُوقْ دَاكْ الْخَدْ الْوَرْدِي اللِّي كْوَاكْ ابْنَارْ، (...).

ويؤكد ولد رزين في (ح 2) :

شُفْ وَرْدْ الْوَجْنَاتْ وَكْـــــــــمَــــــــامْ
فِي خَدْهَا اعْمَلْ خَالْ أَوْ شَامَةْ نُونْ امْيَمْلَةْ بْنُقْطَةْ مَعْرُوفْ

شكل آخر تتحدث عنه القصيدتان، هو شكل السلسلة كوشم لموضع الذقن إذ نجد عند المسفيوي في (ح 1) :

(...) وِيلاَ اوْصَلْتِ دَاكْ الْعَتْنُونْ، اعْمَلْ السَّنْسِلَةْ، فَالْقُبَّةْ تَنْبَا امْنِيلَةْ (...)

ويقول ولد رزين في (ح 2) :

شُفْ الْعَــــــتْنُونْ أَوْ شُفْ تَسْـــــقَــــــامْ
وَعْمَلْ عْلِيهْ وَرْقَةْ يَسَا وَعْمَلْ السّْنِيسْلاَ لَتْرْكِيمْ تْحُوفْ

إن هذه الرسوم، كما تسجلها القصيدتان، إضافة إلى رسوم أخرى قد نعثر عليها في قصائد لا تزال للأسف تنام في كنانيش أصحابها دون أن ترى نور القراءة والبحث، كلها أشكال أثبتتها الدراسات الانتربولوجية حول الوشم في المغرب، بأسمائها ومواضعها على جسد المرأة، هذه الرسوم، يردها الباحثون في أصلها إلى ثمانية أشكال أولية وأساسية، هي كما يذكرها جون هيربر J: HERBER(4) :

- النقطة أو مجموعة من النقط
- الخط المستقيم والأشكال المتفرعة عنه
- الأشكال الصليبية
- أشكال الشارات العسكرية(V)
- أشكال نجمية
- أشكال ذات زوايا متعارضة أو متوازية وخطوط منحنية
- أشكال معينة (Losanges)
- أشكال دائرية

بعد هذه الفقرة التي ترجعها إلى هيربر J. HERBER في دراساته ونشراته المستفيضة حول تقنيات وأشكال وأسماء ومواضع الوشم عند المغاربة، نعود إلى قصيدتي الحْجَّامْ لنستخبر في لازمتيهما (الحَرْبَة) عن لون الوشم المفضل عند النساء المغربيات. وهو لون ما بين الزرقة والخضرة (امْنِيلْ) أي مستخلص من خليط مسحوق النِّيلَة الأزرق ومسحوق بعض النباتات العطرة الخضراء :

اَلْحْجَّامْ إلَى كُنْتِ لْبِيبْ فِي صْدَرْ الطّْامْ.. زِيدْ نِيلْ الْوْشَامْ.. بَاشْ تَعْمَلْ فِي خَدْ الرِّيمْ خَالْ وَشَامَا(5).

صُولْ أَحْجَامْ الْبَاهْيَة طَامْ
لَلْهْ فِي صْدَرْ مَنْ تَهْوَ لَوْشَامْ نِيلْ زَيْنْ لِيهْ احْرُوفْ(6)

كذلك تطلعنا القصيدتان على إحدى أهم طقوس الوشم عند المرأة المغربية وهي اجتماع النسوة للرقص والغناء احتفاءا بهذا الحدث، وأيضا احتجاب المرأة الموشومة والأخرى الواشمة في غرفة

أو من وراء حجاب بين البخور والطلاسم مدة سبعة أيام بعد الانتهاء من عملية الوشم، ذلك لحمايتهما من شر العين والأرواح الخبيثة، وحتى يتلاءم الجرح ويبدو الوشم أكثر فتنة وبهاءا. يقول الشيخ المسفيوي في (ح ا) مخاطبا حجامه :

دِيرْ لَبْنَاتْ عْلَى الصُّفْرَة (...) السَّاعْيِينْ ارْكَابْ اغْزَالِي الْبَاهْيَا طَامُو لُوجِيبَا خْلِيلْتِي مَنْ جَاوْ امْعَاهَا عْلَى الرّْضَا وْنْوَاوْ يْحَضْرُ وْشَامْهَا بَالْجَمْلَة لِهَا يْبَايْعْ وَالْعَذْرَا بِينْتِهُمْ سُلْطَانَا مْنْصُورَة وْجَالْسَة عَنْ الْكُرْسِي مَثْلْ لُهْمَامْ.. كَاتْحَكّْمْ عَنْ دُوكْ الرّْيَامْ.. بَعْدْ تْدِيرْ اللّْي قُلْتْ حَجّْبْ وْشَامْكْ بَالْعَسّْة وْدِيرْ لِيهْ طْلاَسَمْ (...) يْحَجْبُ مُولاَتِي الْبَاهْيَا وَيْحَجْبُوكْ مَنْ الْحَسُودْ.. لِيكْ نْعَلّْمْ لَرْصَادْ بَاشْ تَرْصَدْ مْلُوكْ الْجِنْ عَايْشِينْ وَلْقْدَامْ.. (...) قُولْهُمْ أُوشَامْ لَبْنَاتْ جُمْلاَ بَتْمَامْ.. قَالْ صَاحْبْ لَنْظَامْ.. بْنْ عْلِي مَسْفِيوِلِيكُمْ يَانَظَّامَة، عْلَى وْشَامْ الرّْيمْ تْعَسُّو وَلاَ تْرْكُو لَلاَّمْ.. يَشْفَا وْابْلَنْيَامْ.. فِي مْحَاسَنْ وَلْفِي مَنْ بَالْجْمَالْ لِيهَا شَامَة(...)

إن الخيال الشعري الشعبي قد يجعل من الوشم لوحة تشكيلية تعكس التصور الجامح لأحوال العشق، والخيال الصارخ بمعاناة العاشق، تماما كما تحفظه الذاكرة الجماعية سردا في الحكاية وعبرة في المثل ومتعة في اللغز والنادرة وفنا في النحت والرقص والغناء. الشيخ المسفيوي في حجامه يطلب من هذه الشخصية الشعبية العجيبة والمتميزة أن تبدع تلك اللوحة المتخيلة، وشما على صدر محبوبته، فيتداخل في نص القصيدة رمز الصورة برمز الخطاب، في تقاطع موضوعي مع معاناة الذات المبدعة :

(...) وَعْمَلْ فِي صَدْرْ لَغْزَالْ قَلْعَة تَظْهَرْ بِينْ النّهُودْ..
دُوَّرْ بِهَا سَبْعَ مَنْ الصّوَارْ مْنِيعَا وبْرَاجْ عَالْيَا وحْفِرَاتْ عْلَى لَجْدَارْ..
دِيرْ مْدَافَعْ تَنْبَا مَنْ الشْرَارْفْ كَاتَبْطَشْ بَالرّقِيبْ، (...)

هذه القلعة المنيعة يحميها فرسان شجعان أقوياء يذكر المسفيوي من بينهم سيف بن ذي يزن، أحد ملوك اليمن وأحد أبطال الأسطورة العربية ويذكر أيضا أهم شخوص هذه الأسطورة «الأزلية» كما تتناقلها الروايات الشعبية منذ القديم:

(...) دِيرْ شُجْعَانْ زْعَامْ.. وَاقْفَا بَاحْتِرَامْ.. كُلْ بَطَلْ جَوَادْ لَلْحَرْبْ كَايَتْرَامَا.. دِيرْ بَنْ دُوِيزَالْ قْبَالْهُمْ مَاسَكْ لَعْلاَمْ.. دِيرْ قُومْ بَتْمَامْ.. دِيرْ وَلْدُ دْمُرْ (...) دِيرْ سَعْدْ مْعَ الْمِيمُونْ والدّمَنْهُرْ لُهْمَامْ.. مَنْ تْقَلّدْ لْحْسَامْ.. مَنْ تْسَمّى مَصَرْ وَمْعَاهْ شِي حكّامَا، دِيرْ بَرْنُوخْ مْعَ عَقِلَة وبَانْيَاسْ الدُّرْغَامْ.. كَايَسْحَرْ لَنْيَامْ.. دِيرْ مْلُوكْ الْجِنْ اقْبَالْهُمْ حُوَّامَا.

والشيخ ولد رزين يطلب من حجامه في (ح 2):

شُفْ الجِيــــــد شُفْ لَقْــــوَامْ
وَتْعَمَلْ عْلَى اقْوَامْ قَلْعَة تَحْمِي أُوثَاقْنَ لاَ يَفْتَحْهَا مَثْلُوفْ
شُفْ الصُّــــور واخْــفِــيــر كُــدَّامْ
وَتْكُونْ مَنْ اهْلاَقْ القَلْعَة وَاخْفِيرْ مَنْ اهْلاَقْه اَبْطَالْ اتْحُوفْ

أما قلعة هذا الشاعر، فيحميها بطل عربي آخر، هو الفارس والشاعر العاشق عنترة بن شداد العبسي، الذي صار شعره في حب ابنة عمه وسيفه في حماية قبيلته، أسطورة تتناقلها أشعار وأخبار وأيام العرب وترويها كتب الملاحم والسير وتتسامر بها المجالس والرواة :

دِيرْ ابْنِي عَـــــبْسْ اخْـــــلاَيْفْ احْكَامْ
واعْمَلْ عَنْتَرَة في خَلْفْ شِيبُوبْ مْشَمَّرْ في زَرْدُه مَعْرُوفْ

على صدر المحبوبة، حول القلعة، يطلب الشاعران من حجامهما أن يرسم روضا محاطا بالأشجار بالورود وبالفواكه، بالطير والغزال، بالجداول والسواقي والوديان.

يقول المسفيوي في (ح 1) :

دِيرْ عَرْصَةْ زَهْوَ النّظَّارْ، بَالَغْصَانْ احْفِيلَة وَشْجَارْ، (...) تْفَّاحْ وَلَنْقَاصْ ولَمَشْمَاشْ الْبَاهِي مْعَ الزَّفْزُوفْ، حْدَاهْ حَبْ الْمْلُوكْ (...) دِيرْ جْدَاوَلْ وَالسّهَارْجْ والسّْقَاقِي مَـهَا صَفِي عْدِيبْ، (...) لَطْيَارْ فْلَغْصَانْ كَاتْسَبَّحْ بَلْغَاهَا لَلْكْرِيمْ، كُلْ طِيرْ بْصُوتُ فْصِيحْ، (...) دِيرْ لَغْزَالْ يَعَجْبَكْ بَالْبْهَا وخَلْقْتْ لَعْظَامْ.. (...) دِيرْ نْوَّارْ بْطِيبْ فَاحْ، فَالْحْدَايَقْ مَا بِينْ ادْوَاحْ، دِيرْ وَرْدْ وْنَسْرِ وَالْقِيقْلاَنْ.. (...) والنَّرْجِسْ السَّاهَرْ فَالْبْهِيمْ (...).

أمام الروض المنقوش وشما على صدر المحبوبة والمسترسل شعرا في خيال العاشق، يطلب الشيخ ولد رزين (ح 2) من حجامه أن

يرسم على هذا الصدر الانثوي المتخيل، الليل والهودج، الخيمة والصحراء، الرحيل والافتراق، ديار تملأ وأخرى تهجر، قوم يقيمون وآخرون يغادرون :

فَصَدْرْهَا بِيرْ انْجُوعْ وخْيَامْ
مَهْمَا ايْرَحْلُو بَالنّجَانْ أصْوَتْهَا تْجَاوْبْ لصْوَاتْ الكُوفْ
بِيرْ انْيَارْ الشّيلاَنْ وَمْقَامْ
وَفْكُلْ يُومْ دَارْ جْدِيدَةْ وقْلُوبْ صَافْيَة منْ غِيرْ الْغْشُوفْ

الوشم في قصائد الحْجَّامْ، خطاب تتمفصل لغته أشكالا ورموزا على الجسد، إنه كما نحتته هذه الشخصية الشعبية العجيبة على صدر المرأة، عبارة عن مشهد درامي لموقفين مختلفين، في فضاءين متعارضين : فضاء الروض العطر بورده وفاكهته، بجدوله وطيره، بجميلاته وأنغامه، هذا الفضاء المرح على صدر المحبوبة يرمز إلى فرحة اللقاء ونشوة الاجتماع، إنه فضاء ملحمي تتناغم فيه الأشياء في توازن تام مع انتشاء الذات المبدعة، إن على مستوى الرؤية (ألوان - أنوار - أشجار - فواكه - جداول...) أو السمع (تغريد الطير، خرير المياه، أنغام الموسيقى...) أو الرائحة (زهر - عطر - طيب...) فالروض بالنسبة للعاشق، فضاء للانفراج، للذة وللنعيم.

أما الفضاء الآخر، فهو فضاء الصحراء بخلائه وليله، بغزاله ووحشه، بخيمته وهودجه، إن هذا الفضاء الموحش، في تعارضه مع فضاء الروض المرح، يرمز دائما على صدر المحبوبة إلى الرحيل والهجر، إلى الهروب، والاختفاء.

إن الصحراء، كما تطالعنا في الشعر العربي الفصيح، خصوصا في العصر الجاهلي، تشكل فضاء للمعاناة، للقلق وضيق النفس، للهجر والافتراق، كثير هم الشعراء اللذين تاهوا في فضاء الصحراء الموحش، يبكون المنازل والديار، يشكون لوعة الحب وحرقة الفراق، نقرأ للملك الضليل :

قِفَا نَبْكِي مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

ونقرأ كذلك لمجنون ليلى :

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى
أُقَبِّلُ ذَا الجِدَارَ وذَا الجِدَارَ
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي
ولَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَ

ومن تعارض الفضاءين، تنشأ المفارقة في الصورة الشعرية التي تتبدى كصراع داخلي يجتاح نفسية وخيال الذات المبدعة، صراع بين موقف حركي تنعشه لذة الحب والوصال (فضاء الروض) وموقف سكوني تحبطه مرارة الهجر والفراق (فضاء الصحراء).

أما فضاء القلعة بأبطالها وعتادها، فيبقى هو الآخر فضاءا ملحميا يرمز على صدر المحبوبة إلى «معرفة» و«قدرة» الفعل، ففي فضاء الحصن تأخذ الذات المبدعة فعل البطل الملحمي الذي يبدي قدرة على رعاية محبوبته وحمايتها، وأيضا في هذا الفضاء

تأخذ الذات فعل البطل العاشق الذي يبدي معرفة بكيفية تحمل هجر المحبوبة، والصبر على صدودها وتمنعها، حتى يتوفق في طلبه، ويكسب حبها ووصالها.

كل هذه الفضاءات المنحوتة وشما على جسد امرأة مجردة محلوم بها، هي فضاءات رامزة ودالة، من تعارضها وتقابلها تتشكل بنية عميقة ومتجانسة من القيم والمواقف الانسانية، فمن فرحة ونشوة الحب والوصال في فضاء الروض المرح، إلى حزن ومرارة الافتراق والهجر والصدود في فضاء الصحراء الموحش، إلى شجاعة وصبر وتحمل في فضاء الحصن المنيع.

كما أن بنية قيم الحب والوصال فالهجر والتمنع، فالصبر والتحمل، تفرز في قصائد الوشم خطابا عشقيا معبر عنه بأشكال ورسوم. من هنا يصير الوشم أو الوخز بالابر، نسقا سيميائيا ليس بالثانوي، بل لغة لها تمثيلها الخطي ورمزها الدلالي، وإن لم تكن تخضع لنظام التمفصل المزدوج(7).

إن الذاكرة الشعبية في خيالها الشعري، تجمع بين دلالة خطاب عشقي يعبر في بنيته العميقة عن قيم ومواقف إنسانية تشغل تفكير الجماعة، وبين رمزية خطاب جسدي تتمفصل لغته وشما على جسد المرأة، مما يجعل هذه الذاكرة الجماعية، عن وعي أو عن غير وعي، تحفظ للباحثين في متنها، فنا أصيلا ومميزا في ثقافتنا الشعبية. ومن تقاطع دلالة ورمزية الخطابين (الجسدي والشعري) تبرز خصوصية الوشم والمرأة والشعر، في أدبنا الشفاهي.

الهوامش :

(1) Abdelkebir KHATIBI : La Blessure de nom propre. Ed. Denoël (Paris 1983) p. 64.

(2) Jean HERBER : Les Tatouages du cou, de la poitrine et du genou chez la marocaine.
In revue Hespéris. 1949, 3e et 4e trimestre, p. 333

(3) Guaston BACHELARD : La poétique de l'espace: Ed. Presses Universitaires de France
(Paris 1979). p : 26.

(4) Jean HERBER : Onomastique du Tatouage marocain. In Hespéris 1er et 2e Trimestre (1948).
p. 39.

(5) لازمة « حجام » الشيخ محمد بن علي المسفيوي (ح 1).

(6) لازمة « حجام » الشيخ محمد بن علي ولد رزين (ح 2).

(7) Abdelaziz Amar : Le personnage de la femme dans la poésie populaire marocaine d'expression arabe dialectale "MALHUN" Doctorat: Université de la sorbonne :
Paris III. 1990. P 167.

الأم

محمد الحلوي(*)

أطل على دنياه في بسمة الفجر ... وضيء المحيا كالندى وشذا الزهر
قضى في مطاوي الغيب تسعة أشهر ... كأن ثوانيها عقود من الدهر!
فمذ حل في بيت الأمومة نطفة ... مخلقة واجتاز طورا إلى طور
رعته عيون لم تنم وهو نائم ... وغذاه قلب الأم من حبها الثر
تملأ من طاقاتها ودمائها ... وأتخم من خيراتها وهو لا يدري
تعد الليالي وهي تحمل ثقله ... وترقب في استهلاله ليلة القدر!
ترى وجهه في كل طفل وطفلة ... تشاهدها تبكي، وتبصرها تجري
وتؤنسها في نومها نبضاته ... وهمساته في سمعها سجعة القمري
وتنسج أيديها ملابس جسمه ... مخافة أن يلقى عناء من القر
تعد له أغلى الدمى ولوانها ... مكابدة تشكو يداها من الفقر
ولو قدرت صاغت من الورد فرشه ... ورشت عليه كل ما طاب من عطر!
وشادت له في الأرض قبل مجيئه ... أعز مكان ليس يوجد في قصر!
ولو منحته ملء كوني سعادة ... لعدته في حب البنين من النزر
تريده بين الناس في المجد قمة ... وفوق كراسي الحكم لا من ذوي الفكر!
يسوس ويعطي الأمر والناس حوله ... تلقف ما يوحي به صاحب الأمر!
وتدعو له في بطنها وهو مضغة ... ولما تطأ رجلاه مستنقع الشر!
تحصنه من كل عين شريرة ... وترجو له طول السلامة والعمر

(*) شاعر

وتغشى قبور الأولياء وفيةً بما التزمت للأولياء من النُّذر!
وكم أوقدت فيها شموعا وأحرقت بخورا، وأهدتها القرابين في سر!
لتصرخَ أحلى صرخةٍ بوليدها وتصبح أُماً تمنح الحب للغير!
هي الأم دنيا من حنان، ومنبعٌ من الحب فيَّاضٌ، وكنز من الطهر
تحب وإن كان العقوقُ جَزَاءَهَا وترضى وإن لم تلق شيا من البِر
وتمضي ولاشيء يؤنس قبرها سوى طفلها من بعدها وهي في القبر!
تكابد في الدنيا لتُسعدَ غيرها، وتعطي بلا مَنٍ، وتشقى بلا أجر!

*****

الزوجة الأجنبية

أحمد عبد السلام البقالي(*)

من الظواهر التي أثارت كثيرا من الجدل وما تزال، الزواج بالأجنبيات. فهو ظاهرة مقلقة للآباء الذين تزوج أبناؤهم بأجنبيات لأسباب إجتماعية ودينية ولغوية معروفة. وهي أكثر إقلاقا للفتيات المغربيات لاعتقادهن أن الأجنبيات يخطفن منهن فرص زواجهن! الأمر الذي حدا بعدد منهن إلى تحدي الأعراف، والزواج بالأجانب بعد إسلامهم الصوري أو الحقيقي.

وهذه قصة شعرية على لسان عربي تزوج أجنبية على زوجته العربية.

وكانت لنا زوجة عربية ... بها شَمَمٌ ولها أريحيَّة
جمال على وجهها وحياء ... يزيِّن بشرتها البدوية
وطاعةُ زوج، وقوة نسل ... وطبع القناعة فيها سجية
وكانت تفي برغائبنا ... تنفِّذها، وهي في النفس نية
فقالوا تزوج فرنسية ... عليها، وذُق متعة أجنبية
وقاومت إغراء أوصافهم ... لها، وإثارتهم للشهية
ومازال شيطانهم في الضمير ... يُوَسْوِسُ حتى قَبِلْنَا البلية

(*) شاعر وقصاص.

فلما أتوني بها نَزَعت   سلاحي، وألقت شباكا عليَّهْ
بِشَعْرٍ كشلال شمس الصباح   وعينين في خضرة سُنْدُسية
وبشرة ورد على لبن   حليب ووجه كوجه صبية
تزوجتها دون إذن التي   ببيتي، ودون سؤال بنيَّة
فصارت تطالبني بالوفاء   وبالبعد عن زوجتي العربية
وبالصوم عن لغتي، والحديث   إلى الناس باللغة الأجنبية
وغيرت عادات عيشي التي   ألِفْتُ، وأظهرتُ ما ليس فيَّهْ
وباتت تجوعني لارقّ   وأفقد أبْهَتي الجعفرية

* * *

ومر الزمان، ورقَّ الهوى   ونحّى الغشاوة عن مقلتيّه
وزال البريق الذي شدني   إليها بسلسلة ذهبية
وفاض اشتياقي إلى زوجتي   «سعاد» وطفليّ سعد ومية
وحن دمي للدم العربي   وعادات قومي الكرام الرضية
فعدت إلى دفء صدر حنون   وبسمة وجه عزيز عَلَيَّهْ
إلى حيث كنت أبا، وأخا   وزوجا، وطفلا برئ الطوية
ففاضت مدامعها فرحة   بقربي، ولم تحزن الأجنبية
فأقسمت أن أهجر العابثين   وأغلق عن لغوهم أُذُنَيَّهْ

***

الأزمنة

مالكة العاصمي(*)

ـ 1 ـ

أين أنتِ أبالستي وشياطيني الصمّ...؟
لُذْتُ بكم وانصرفتم إلى حيث لا أستطيع اللحاق بكمْ
واختفت بكمُ دائراتُ المياه، البحارِ، ودوّامة الزوبعهْ
كنت أنشُد فيكمْ براءة أيامِ ميلاديَ المسرجهْ
والْتِماعَ التّوهُّجِ في الروح،
والجسدَ النّاريَ، النورَ، والجسدَ الاربعَه
كنتُ أقبضُ من نهرِ وادي القُرى جرعةً
وأُطاولُها، فتصير فحيحاً
وأنفُثُ فيها، فتصبحُ ريحاً
وأقبضُها، فتطير بُراقاً
وأُسْرِجُها، وأُحلّق فوق عنان السّما
شُهُباً، شُهُباً
حَرَساً، حرساً
لأبالستي صولةٌ لا تحاصرها الشُّهُبْ
والأفُقُ المدلَهِمُّ تُفَتِّقُه، وتواصل زحفا غريبا يشق عنان السماء

(*) أستاذة جامعية، شاعرة.

ـ 2 ـ

قد تعرَّت بباب السما حورياتٌ وأغْوَيْنَني

أوَت الشمسُ للخِدْرِ

لَهْلَبَ أُوارها

انفجرت شَبقاً

فتطايرَ دار السلام

وغرناطة

ورُبَى السِّندِ

والهند

والصين

والغال

والواقْ واقْ

وبحر اللآلي

ومملكة السندباد

وقاعدةالشمس

والأُنس

والرقص

والكْاسِ

والصَّولجان

وقلبي تَفَطَّر عِشقاً

وأوْغَل في زمنٍ للعناقْ

ـ 3 ـ

قد تعرَّت بباب السما حورياتٌ وأغْوَيننِي :

سقط القدس

وانفرطت نجمة في الثرى وتشظَّتْ،
تناهبها الرومُ
والقومُ
والمارقونَ البُغاةُ
ويا جوجْ
وجنسُ العلوجْ
كلٌّ تزوَّدَ منها بشمسٍ بَهِيَّ
وبُرْدٍ نَبِيَّ
وكوَّن من نُورها فلكاً كُرَوِيَّ
مخزَنا نَوَوِيَّ
مازال حتى تفجُّر ثانيةً بعدما اكتملَ الفلكُ
والمُلْكْ

ـ 4 ـ

قد تعرّت بباب السّما حورياتُ وأغوَيْنَنِي
عجبا كيف أغْوَى
وما تفعل الحوريات بِبَابي
أبالستي ثورة تقذف الشهُب المحرقة
أستعير الضباب وأركبه
وأواجه ملحمة الغضب الشائك، الشاعر، الموت،
أشهر أعضائي العشرة المتكلّسة، المتطرِّية، المتألّقة
المتحدية الكون
أركب بالبوح أعضائيَ السُودَ
أعضائيَ البيضَ
قد أتَشَقْلَبُ خلقاً على ظلِّي الهاربِ السرمديَّ

وأحكي حكايةَ موتي لأمّ الشهيدْ
سوف أروي لها قصة الجسد الأزليّ الذي يَقْنِصُ
الريح أو يحتويها
ويقصف لامعة البرقْ
ثم تجري الرياح بعكس اتجاه السفن

ـ 5 ـ

كالرؤوس المغيرات ينفجر النجمُ
تسقط بيروت
كم نجمةٍ تتناثر من نَسْلها
يتساقط شطُّ العربْ
ورمال الذهبْ
وبقايا «الثُّريَّا» بأرض العربْ
ويزغرد في الكون منها نشيدْ
وشعاع عنيد
«أرى العنقاء تكبر أن تُصادا»
كان أن باض طير العقاب ببطن ثراها
وفي حضن أعشاشها المستحيلاتِ
في ثَنِيات خمائلها بأريحا
ويافا وحيفا
في جنبات التلالْ
وفي مسكن الشمس بين الرمالْ
وتحت رموش الجبالْ
باض طيرُ العُقابْ
بين ما يتماسك من طين مسجدها

وأفانين مَعبدِها
وهياكلها
حط طير العقاب على قمم بالمنارات تبتهل الربَّ
أفرغ ذَوْبَ جَنَاهْ
وَطَارْ

ـ 6 ـ

عند الغَبَش المتناسل من رحِمِ الظلمة في يوم صافٍ مُخْضَلَ
طفحتْ أنداؤهُ حالمةً، فتسلل وردٌ من أكمامهِ ثم أطلَّ
فانتفضت زغبان من بيض العقبان يدمدم تحت جوانحها الغل
فجأة أزْهَرَتْ أرضُنا وتجلَّتْ
مباهجُها قد أطلَّتْ
فجأة لمعت أنجم في أكفِّ الطفولة مثل الذهبْ
واستشاطت غضَبْ
زمجرت واستطار شواظٌ ثراها حجرْ
ولظىً وشرَرْ
يقذِف الغِلَّ في وجههم والضَّجرْ

* * *

في صبيحةِ يومٍ جميلْ
عند فجر يرش على الحَبِّ أنداءَه والنَّوَى
انْفَلَقَ الحَبُّ،
أراد الربُّ
انبثق الحيُّ من الميِّت
حيٍّ باقٍ
حي حي

حي باقٍ، حي باقٍ
ربُّ العزة والملكوتْ

-7-

وتطلع مثل شظية رمح بظفرى تكلمني
وتحاورني عن جنوني
وما حمل اليمُّ
والنهرُ
والريحُ
والمركبُ الصعبُ
والصافنات
وأشرعة الوعدِ
ألواح نوحٍ جرت لتمدَّ جسوراً على روحيَ الضائعهْ
وقبضت بها فنجوتُ
وأرسيتُ صاريتي ورياحي
وجئت لشط الفراتْ
ومازال بي من زوابع أمِّ القرى هوَسٌ وجنونٌ
وفاكهتي نضجَت في السحابِ
وألقت عناقيدها
ورنت لقناديل دجلة عشقاً
وللأعينِ الخُضْر من أرْزِ لبنانَ
والذهبِ المتشرِّب في الرَّملِ
وانتفضَتْ وتدلتْ تمُص تعاستها وأساها بأرض
الجريمة
يا أيها العَبق المتضوِّع من هذه الأرضِ
مرحَى

- 8 -

حملت إلى الله شكواك
ما بالشياطين باسٌ
أبالستي شهبٌ تحرُس الأفُقَ المتلبّدَ
أبشرْ
لقد دادت المهزلة.
سوف أقبضُ من نهر وادي القرى جرعةً،
وأطاوِلُها
فتصير فحيحا
وأنفث فيها، فتصبح ريحاً
وأقبضها، فتطير بُراقا
وأُسرجها، وأُحلّق فوق عنان السما
شُهُباً شُهُباً
حرساً، حرساً
لأبالستي صولة لا تحاصرها الشُّهْبُ
والأفق المدلهِمّ تفتّقه، وتواصل زحفا غريبا
يشُقّ عنانَ السماءْ

****

المرأة المغربية

عبد الواحد أخريف(*)

بنتَ المروءةِ والعفافِ البادي   حُيِّيتِ في شِعْري وفي إنشادي
سارت بذكْركِ في الوجود فضيلةٌ   هي خيرُ ما في أرضنا من زادِ!
تبني على الأخلاق صرْحَ عِمادها   وتنيرُ كالقمر الوديع الهَادِي
رقّتْ شمائلُكِ اللّطافُ فصَوّرَتْ   منْكِ النموذجَ في هُدًى ورَشَادِ!
عقلٌ يصونُ عن الميَائِلِ والخَنَا   ويقومُ سداً ضد كل فسادِ
وعليكِ من سيمَا الذكاء ملامحٌ   لا تختفي كاللأمع الوقادِ
بِسَنَاهُ أضحى كل صعْب هَيِّنا   وبه نَفَذْتِ لِمَا ورَا الأبعَادِ
أما المعارفُ في ذُرى عَليائها   فلقد سَمَوْتِ لها مع الأندادِ
حقٌّ لكِ التعليمُ يا أختَ الحِجَا   الشّرْعُ ضامِنُه مدَى الآبادِ
في «مغرب» تكْسُو (الأصالةُ) شعبَهُ   مُتَجدِّداً (بِحَدَاثَةِ) الرُّوادِ
لم يَرْقَ للأمجادِ شعبٌ لم تنلْ   فيه البناتُ معارفَ الأولادِ
شطرانِ إنْ نهضَا بعلمٍ وافرٍ   ضمِنَ النهوضُ سلامةَ الأجسادِ
في السابقاتِ الخالداتِ دلائلٌ   «صِدّيقَةٌ» التاريخ خيرُ تِلادِ
أمَرَ النبيُّ بأخذِ نصفِ الدين منْ   مخزونها السّحاحِ سَحّ غَوَادِي!
لو لم يكن للسيِّداتِ تفوّقٌ   ما كان للسّاداتِ شأنٌ بَادِي
إن الثّناءَ معطّرا قد نِلْتِه   من كل ذي عقل حَصيفٍ شادِي

(*) شاعر.

في كل روضٍ للحياة أزاهرٌ   يذكو شذاها في سماء بلادي
الأم فيها قدوةٌ وشهامةٌ   قد جسَّمتْها غيْرةُ الأجدادِ
تحنو إذا ربَّتْ، وقد تقسو إذا   داعٍ دعا، لكنْ بفيضِ ودادِ
إن شاركتْ زوجاً ففي سفْنَاهُمَا   حصْنُ الفضيلةِ شامخُ الأطوادِ
أستاذةٌ تُلقي فينفذُ قولُها   يَسْري بعقل شبيبةٍ وفؤادِ
كالبَلْسَم الشافي لداءِ جهالةٍ   وضلالةٍ وتخلُّفٍ ورقادِ
مُذْ كانتِ الأنثى وهيَ طبيبةٌ   للرُّوحِ من همٍّ ومِن أحقادِ
واليومَ أضحتْ كالرجالِ طبيبةً   للجسم من وصَبٍ خبيثٍ عادي
فليهْنها التوفيق إذا قد أتقنت   طبُّ القلوب وصحة الأجسادِ
تأسو الجراحَ برقَّةٍ وكأنَّها   مَلَكٌ وراحتُهُ نسيجُ ضمادِ
وإذا بمبضَعِها جرتْ منها يدٌ   خِلْتُ الحديدَ كمِرْوَدٍ وثمادِ
برزَتْ منَ الجنسِ اللطيفِ كواتبٌ   وشواعرٌ يحدُو بهنَّ الحادي
في عَالَم التَّدْبيجِ صِرْنَ شوامِخاً   يجْري اليَراعُ بهِنَّ جَرْيَ جيادِ
وخيالُهن - إذا شَعَرْنَ - مُجَنَّحٌ   يَهْمي فيُرْوي حُرقَةَ الأكبادِ
صُورٌ بها يجدُ الخيالُ بهاءهُ   أسلوبها يُحْيي فخارَ «الضَّادِ»
ولدى الإدارة عاملاتٌ زانَهَا   حُسْنُ الوَقارِ وقوَّةُ استعدادِ
عند «القضاء» وفي «المحاماةِ» التي   تسمى لكشف الحقِّ في الأضدادِ
نجدُ الفتاةَ - وقد سَمَا عِرفَانُها -   بالحقِّ تَقْضي والحقوقِ تنادي
في البِرِّ والإحسانِ قامت نهضةٌ   تكفي الخصاصَ بفيضها المزدادِ
قد توَّجَتْها هِمَّةٌ عَلَويَّةٌ   هيَ «بالأميرة» مَقْصِدُ الوُرَّادِ
شعْبٌ بَنُوهُ عزيمةٌ، وبناتُهُ   حَزْمٌ لدى سِلْمٍ وعند جِلادِ
العاهلُ «الحسنُ المثنّى» قلبُهُ   يَغْذُوهُ بالإمْدادِ والإسْعادِ

طفلة

عبد الكريم الطبال(*)

تَبدأُ الصُّبحَ
بالبسمةِ السَّوسَنِيَّة
أو بالغِناء
فلا شيءَ في صدرها
غيْرُ قيثارةٍ
وقصيدةِ عشقٍ
ولاشيءَ في الكونِ
غير مَواوِيلِهَا
وعَريشَةٌ وَضلٍ
فَيا أيُّها النَّهرُ
يا أيها العندليبُ
ويا أيها اللَّيلُ
أيتها القُبَّرَاتُ
خُذُوا الحكمة اللَّدُنيَّة
من فَم طِفلتنا...
الزَّنْبَقة

(*) شاعر.

نصيحة الى الفتاة المغربية

محمد بنبين(*)

يا ابنة العصر حاذري الأشرارا واجعلي الطهر والعفاف شعارا
جنبينا ماكان يجعله أعداء تحرير بنتنا أعذارا
فدعاة الجمود كانوا ومازالوا يرون التعليم للبنت عارا
لا تكوني عونا علينا وصوني العرض حتى نعلي الرؤوس افتخارا
قد ضمنا صلاح أجرك بالعلم وكنا لعزيك الانصارا
وبذلنا الجهد الجهيد وكسرنا قيودا حتى أمطت الخمارا
وبدا وجهك المنير يغار البدر ليلا والشمس منه نهارا
وبدا ورد خدك الغض في الروض فسبذّ الورود والأزهارا
وسرى سر حسنك الفذ في الانفس منا فحرك الاوطارا
وغدا غصن بانك اللدن يختال فخرت له الغصون انكسارا
وسررنا لما رأينا في المعهد تبدين حنكة واقتدارا
ورأيناك تظهرين نبوغا يوم أبيت في العلوم اختبارا
فحمدنا نالك الجهود وصفقنا وكنا من السرور سكارا
غير أنا نرى نثاب بني الانسان كادت تمزق الاستارا
ورأيناك تنظرين ولا يبدى لهم وجهك الحيي احتقارا
أتظنين أننا ندرك الآمال يوما إذا عدمت الوقارا
أترين الإسفاف في حمأة الوزر سبيلا يحقق الأوطارا
لا فلا نجح للشعوب إذا لم تتجنب فتاتها الأوزارا
فجمال الفتاة في العلم والعفة تاج يزيدها إكبارا

(*) شاعر من شعراء مراكش

والترقي هو التوقي من السوء بأن تجعلي العفاف ستارا
ليس عارا أن تدرجي وسط الروض وتبدي للناظرين السوارا
إنما العار أن نراك بلا ستر حياء تغادرين الدار؛
إنما الخزي والشنار ومقت الله في أن ترافقي الاشرارا
فاحذري وامنعي الفضيلة من كل خسيس يروم منها انتحارا
لا تغرنك العذوبة في القول الذي كان رائقا مختارا
فذوو الوزر ينتقون من الألفاظ ما كان سالبا سحارا
يظهرون الوداد والحب والاشواق والقصد منهم يتوارى
فإذا أوقعوا فريستهم في الأسر ولوا بعد المصاب فرارا
الهوى والشباب تفعل فعل الخمر إذ يستبي عقول العذارى
فاحذري من ذئاب غابك يا ظبية قاع فربما الجار جارا
واجعلي الطهر علة واجعلي العفة سيفا لقتلهم بتارا
ولتكوني للبيت والعلم والنشء إذا رمت أن تنالي اعتبارا
ولتكوني الأم الرؤوم التي تعلي لابناء جيلها المقدارا
عمد أنت للبناء ولولاك لما وطد البناة جدارا
مثلي دورك الجديد بإتقان ينل شعبك الأبي انتصارا
واكتبي في صحيفة المغرب الاقصى الذي يكسب الفتاة فخارا
واجعلينا في مأمن من تصاريف زمان نبغي له استقرارا
واحفظيها نصيحة لك من قلب أديب يهدي لك الاشعارا

*****

من الشعر النسائي الأمازيغي
" لست يأبتي قطعة نقدية "

للشاعرة: فاطمة مجاهد(*)
(تقديم عبد السلام أمرير)

زواج الفتاة الأمازيغية

1 ـ عادات اختيار الزوج

المجال الجغرافي الممتد من جنوب مراكش إلى الأطلس الكبير، مرورا بالأطلس الصغير، وسهل سوس حتى التخوم الصحراوية، مجال تنتشر فيه الأمازيغية المعروفة ب " تاشلحيت " وللناطقين بهذه الأمازيغية تقاليد عريقة، من أبرزها عادة: " اختيار الفتاة لزوجها ".

رسخت العادات الأمازيغية عدة تقاليد تمكن الفتاة من المساهمة المسؤولة في اختيار شريك حياتها. كما خصصت تلك العادات فن " الشعر الحواري " كوسيلة اقناعية تشوق العزاب. ففي الحقول – مثلا – ينعش الفتيان والفتيات اشغالهم بالحوارات الشعرية التي تبلغ قمتها بتعدد المحاورين والمحاورات.

(*) شاعرة أمازيغية من قبيلة «ايحاحان»

ومن ألطف العادات المخصصة للحوارات الشعرية ، الخاصة بمناقشة موضوع الزواج ، تلك الغزليات التي تردد قرب الينابيع والسواقي وفي الأودية .

وإذا كانت التقاليد تجعل مكان جل حوارات الأبناء العزاب في أماكن بعيدة عن أعين الآباء ، فإن مناسبة " أحواش " - الرقص الجماعي - فرصة إعلان العزاب اختياراتهم أمام الملأ ، أحيانا على لسان الشعراء وأحيانا أخرى بالرقص الموحي . وبعد ذلك يبدأ الآباء بالمشاركة المباشرة في صنع القرار الأخير للزواج المرتقب ، قبل فوات الأوان بحلول " المواسيم " الصيفية التي تدل في تقاليد الزواج على انتهاء زمن ومناسبة كل الفرص ، وانتهاء دور الشعر الحواري خاصة بتعيين الخطيب وتحديد زمن الخطبة ، وموعد حفل الزفاف .

نلاحظ أن كل الفرص التي خصصتها التقاليد لتختار خلالها الفتاة شريك حياتها ، فرص تحميها عادات اجتماعية لاتسمح بما لايليق وفي الوقت نفسه ، لاتغيب عنها أعين الكبار غيابا كليا ، ولكنها لاتشعر بالرقابة وإحصاء الأنفاس . وفي كل مراحل اختيار الفتاة لزوجها يتجلى في سلوكها حرصها الدائم على الفوز برضى الوالدين ، لاقتناع الجميع بأن الزواج الناجح هو تتويج لمراحل متلاحقة تبدأ بمبادرة الفتاة في الاختيار وتنتهي برضى الوالدين .

وقد يخرج أب عن هذه التقاليد ، فيرغم الفتاة على الزواج بمن لم تختره ، ظرفئذ يعتبر قراره خروجا عن اجماع " المحبين " فيتصدى الشعراء لذلك الخرق بأشعار قاسية ،لأن الأمر ليس مجرد

فرض زوج على فتاة لاترضاه ، بل الأمر في حقيقته ، تجاهل الفرد - الأب - لقرار جماعي صاغه الأبناء - ذكورا وإناثا - بتقاليد مرعية ، وعبر مراحل تبدأ بالمحاورات الشعرية ، انطلاقا من عبرة إعداد الأرض للحرث ، إلى روائع غزل فصل إخصاب الأرض وجمال فصل الربيع ، وصولا إلى دلالة الحصاد على الزواج .

وقد يتصدى شاعر ، أو شاعرة من المشاهير ليتخذ سلوك الأب موضوع شعر أغنية ، فيخرجه من دائرة القبيلة إلى مستوى أعم ليصير دفاعا عن حرية الفتاة في اختيار زوجها ، كما فعلت الشاعرة فاطمة مجاهد في رائعتها المشهورة " لست يا أبتي قطعة نقدية " وبالأمازيغية "أوركَيغ أبابا تاموزونت" .

2 - الشاعرة

فاطمة مجاهد ، شاعرة من قبيلة " ايحاحان " التي تنسب اليها فاشتهرت باسم " فاطمة تيحيحت " كانت من أبرز شعراء العقد السابع من هذا القرن ... سكتت بعد ذلك عن قول الشعر ، وانصرفت من الميدان في عزّ عطائها ، كي تتفرغ كلية إلى بيتها ... وقد ظهرت بعدها مغنيات يحملن اسمها وينتسبن إلى قبيلتها ، ومن أشهرهن " فاطمة تيحيحت " التي يميزها الناس عن الأولى بالكلمة الأمازيغية " مزين " " أي الصغيرة "

3 - موضوع القصيدة

قصيدة فاطمة تيحيحت مجاهد تمثل النموذج المتكامل لنوع شعري أمازيغي وظيفته الاقناع ، ويمتاز باعتماده على الحجج ،

وعلى طريقة عرضها ، قصد اقناع المخاطب ... والحجة الأولى في قصيدة الشاعرة "تيحيحت" تتمثل في كونها أخذت العملة المعدنية - الموزونة - لتبين أنها قطعة لها قيمتها المادية ، ولكنها لاتستطيع أن تخرج عن جمودها لتعبر لمالكها عن رغبتها في اقتناء ماتريد هي وليس مايريد هو وحده ... أما الفتاة فليست عاجزة عن الاختيار كما يوحي بذلك مطلع القصيدة ومعناه :" أنا ياأبتي لست قطعة نقدية - تاموزونت - تدفعها وتسحبها عند الحاجة ، أنا ياأبتي (شحنة من العواطف الانسانية الرقيقة) فلاتسلمها إلا لمن يهفو ويطمئن إليه قلبي ...

ثم تعتمد الشاعرة على حجة أخرى مستغلة بعض ممتلكات الآباء النفيسة ، فضربت المثل بإناء " فاروز " وبكأس بلور ثمين وكلاهما غير قادر على أن ينطق ليعبر عن أهميته ، وجماله ، عكس الفتاة التي تستطيع أن تعبر بلسانها عن شعورها ، واختيارها ، هذه الحجة صاغتها الشاعرة صياغة أمازيغية رفيعة نلخصها فيما يلي : " الاناء الرفيع - فاروز - تحمله ياأبي بحرص وتؤدة كي لاينكسر... وكأس البلور ياأبي تقدمه للضيف الكريم بحذر ونشوة... فعلام يا معشر الأباء تضغطون على بناتكم وترغموهن على الزواج بأشخاص قساة القلوب غلاظ الذوق مكرهات باكيات؟!"

وتصل الشاعرة إلى الهدف من حججها ، لتقرر في وسط قصيدتها مدى خطورة نتائج تجاهل بعض الآباء تقاليد حرية الفتاة في اختيار زوجها ، ثم تتدرج الشاعرة لتصل بشعرها إلى إعلان

أخطر مايمكن حدوثه ، إنه عزوف الفتيات عن الزواج فتقول بالأمازيغية مامعناه بالعربية : " أف من زواج هذا الجيل ... إنه "سجن " أبدي ندخل ونخرج منه وإليه بوثائق عدلية ، كي نعيش في ظلماته ودهاليزه ، تنهشنا الأمراض النفسية ، حتى نموت داخل أسواره ... وعندئذ فقط يشعر الآباء بفداحة الخطب ، ويلمسون نتيجة ارغام بناتهم على الزواج كرها ..."

وفي المقطع الأخير من القصيدة نشعر بما يشبه الصراخ في وجه كل أب أرغم قرة العين على الزواج : " إن سحر الهيام ، وانتظار لحظة الوصال وسلامة طوية المحب ، في شريعة العشاق المغرمين : تشبه شريعة المسلمين في الأضحية التي لن تقبل إلا باستيفائها الشروط". بهذا المقطع تنتهي هذه القصيدة التي تعتبر – في لغتها – من الروائع التي فرضت بها الشاعرة ، وجودها في ميدان الشعر والغناء منذ سنة 1974م ، كما تعتبر من النصوص التي ترصد عديدا من جوانب الحياة الأمازيغية ، وخاصة الجوانب الآتية :

أ – أسباب الزواج المبكر

ب – أسباب ندرة تعدد الزوجات

ت– أسباب قلة الطلاق

ث– أسباب احتراف النساء الغناء وابداع الشعر

ج – أسباب تكيف العادات الأمازيغية مع التعاليم الاسلامية

ح – أسباب اشتهار بعض الشعراء

خ – أسباب وجود نوع من " التربية الغزلية ".

4 – القصيدة بالأمازيغية

" أوركيغ أبابا تاموزونت "

أوركيغ أبابا تاموزونت أداكد أورّيغ
أراغ تاكّات أي يان أورنخالض أديد س موناغ
ايحتاجّا فاروز لحيلات أولالبنّار
ايحتاجّا وراون يان أداس ايتّخيار
أتيد أور إيسيكّيل كّار مدّن ايسمّرحبا سرس
ايخت ايوين أر لما حال أرت كّيس ايتّغيّار
أرت ايسّيويد ايكّلّين أرد أس ايمدو لّون
كّان كولّو فلاّس أوسّان نس أطّان د لخوف
اورسول أوفين لخاطر واخّا ديدس ايمون
يوف غاسّاد ايغ ايكّا يان أرواسي تّهنّون
أور ايتّاهل أيّيلي غ لاحكام أرد ايتلف
يان غاتّيليت ألحا سادا أوراغ ايقضي يات
أحبيب لّي ترضا تاسا ، ايكّا زوند أوكان
تيخسّي ن لعيد أيموسلمن أور أتّغيّار
ايغ كّيس أوراوفين شّروض أورتنت ا يزكّر شّرع

*****

الخادمة الجديدة
تمثيلية باسمة في فصل واحد

أحمد الطيب العلج(*)

«يرفع الستار على بيت مغربي مخضرم من حيث التأثيث فلا هو بالمغربي الصميم ولا هو بالأوروبي القح... المعن في العصرنة والطرافة... ففيه ماهو ـ بمحض الصدفة ـ منسق منسجم... وفيه ما هو مقحم.. وبذوق منعدم.. وقد تحولت فيه الزخرفة إلى نوع من التراكم والتكديس».

المشهد الأول

منصورة «على حدة»

منصورة : «تنظر إلى الساعة» الساعة العاشرة ونصف تماما... لحظات قليلة، وتصل الخادمة الجديدة.. وبعدها أستطيع أن آخذ عطلتي.. أن أسافر إلى قريتنا.. أن آخذ قسطا من الراحة «تفكر» من يصدق هذا.. لم أر أهلي منذ أربع سنوات.. على رأس كل سنة كنت أتأهب لزيارة أهلي وإحياء صلة الرحيم معهم... ولكن سيدتي حليمة لم تكن تجد خادمة تنوب عني خلال فترة عطلتي.. لكن اليوم ولله الحمد.. وجدت للا من تقوم مقامي أثناء غيابي، الله.

(*) كاتب مسرحي

سأستريح.. سأذوق نعمة الراحة.. ومتعة العطلة.. بعد أربع سنوات من العمل المتواصل الدؤوب.. لم أتوقف عن العمل يوما واحدا.. شيء لا يصدق.. ولكنه واقع عشته «تفكر» يجب أن أعترف أنني أشتغل عند أناس يحبونني كثيرا.. ويعزونني إعزازا كبيرا.. إعزازا يجعلهم لا يستغنون عني طرفة عين.. وخصوصا سيدتي حليمة إنها امرأة.. ماذا أقول حليمة طيبة.. نعم طيبة.. وتجب العمل حبا جما.. خمسة عشرة يوما من العطلة.. شيء فوق تصوري.. ومن وراء عقلي، عطلة أستريح فيها وأخلد إلى الراحة.. وإذا طابت عطلتي قد أمددها إلى ماشاء الله «تدخل حليمة وقد كانت تسمع إلى مناجاة خادمتها».

المشهد الثاني

حليمة.. منصورة

حليمة : منصورة!..

منصورة : «وقد باغتها النداء» نعم سيدتي

حليمة : أمازلت هنا...؟ وتتكلمين مع نفسك كالحمقاء...!

منصورة : لا ياسيدتي وإنما...

حليمة : وإنما ماذا...؟ هيا.. تحركي.. ففي الحركة بركة.. خوذي هذا الكرسي من هنا

منصورة: نعم سيدتي «تأخذ الكرسي» نعم للا

حليمة : «تقلدها ساخرة منها» نعم سيدتي.. نعم للا إبعديه من هنا وضعيه هناك

منصورة : هنا يا سيدتي...!

حليمة : لا.. ليس هناك

منصورة : «تغير مكانه» هنا يا سيدتي..؟!

حليمة : نعم هناك «ثم تستدرك» لا. لا. أعطيني إياه

منصورة : تفضلي «تعطيها الكرسي»

حليمة : لا.. لا. ماذا أنا صانعة به..؟! أبعديه عني، وضعيه هناك

منصورة : «تمتثل» هنا..؟!

حليمة : لا.. رديه إلى مكانه الأصلي

منصورة : هاهو

حليمة : أذاك هو مكانه الأصلي...؟!

منصورة : اعتقد

حليمة : تعتقدين.. يا عجبا.. قلت لك رديه إلى مكانه الأصلي

منصورة : هنا...؟!

حليمة : تماما.. بالضبط.. «ثم تستدرك». لالا قلت لك ردي الكرسي إلى مكانه الأصلي.. إلى حيث كان أول الأمس

منصورة : لعله كان هنا ياسيدتي...؟!

حليمة : نعم.. والحمد لله على سلامتك.. «تفكر» لا، لا لم يكن هناك أبدا

منصورة : «حائرة» للا.. أرجوك. ذكريني بمكانه الأصلي «ثم تتجول بالكرسي من مكان إلى آخر» هنا...؟ أو هنا...؟!

حليمة : «ثائرة» لا.. لا ليس هناك ولا هنا...؟!

منصورة : وأين أضعه يا سيدتي..؟!

حليمة : بكل بساطة وذوق. ولطف. وظرف وتؤدة في مكانه الأصلي

منصورة : هنا...؟!

حليمة : نعم... لا. لا. لا

منصورة : هنا...؟!

حليمة : لا.. لا. خذيه وضعيه هنا «منصورة تمتثل» لا.. ليس هنا بل هناك.. لا. بل هنا...

منصورة : ولكنه ها هنا كان أول الأمس أنا متأكدة

حليمة : وما يدري. قد يكون الحق في جانبك «تقول ببعض الرضى» الآن قد وجد الكرسي مكانه الطبيعي... ممكن...

منصورة : «على حدة» الحمد لله على سلامتي.. «ثم تهم بالانصراف»

حليمة : إلى أين يا منصورة..؟!

منصورة : تنتظرني أعمال كثيرة يا سيدتي

حليمة : وتعتقدين أن الكرسي موضوع الآن في المكان المناسب...؟ «صمت» هيا حوليه من هنا إلى المكان المناسب...

منصورة : وأين هو المكان المناسب يا سيدتي.. دليني عليه

حليمة : هنا.. هنا فوق رأسي «ثم تصيح بانفعال» إبعديه عني قلت لك...

منصورة : «تأخذ الكرسي وتمضي في الدوران به من مكان إلى آخر» هنا...؟ أو هنا

حليمة : هناك... هذا مكان مناسب... لا. لا.. ابعديه قليلا

منصورة : «حائرة» هنا..

حليمة : قلت لك أبعديه قليلا «منصورة تمتثل» لا لا قربيه.. أبعديه.. لا لا قربيه. ضعيه بين بين

منصورة : بين بين..؟

حليمة : بين بين هي ما بين اليسار واليمين.. الوسط

منصورة : أضعه هنا. في الوسط إذن

حليمة : لا.. حتى الوسط فيه أقصى اليمين وأقصى اليسار لا... بين بين

منصورة : بين بين هو الوسط

حليمة : بين بين وسط.. وليس هو الوسط بكل دقة وإنما هو : بين بين

منصورة : أضعه هنا إذن..؟!

حليمة : نعم هناك.. ولكن ليس هناك بالضبط.. طيب أبعديه قليلا لا... لا طرفيه إلى ناحية اليسار... لا.. لا إلى ناحية اليمين.. أنت مرتبكة

منصورة : اختلطت على الأمور. فلم أعد أستطيع تحديد يسار من يمين أو وسط من بين بين..

حليمة : الحق في جانبك الماء واحد مهما اختلفت ألوان الزهور.. ضعي ذلك الكرسي هنا...

منصورة : «تضع الكرسي حيث يتفق لها» الله وجد الكرسي مكانه الطبيعي بل مكانه المناسب... وافرحتاه

حليمة : لا. لا لم يجد الكرسي بعد مكانه المناسب.. أنت خادمة تخرف خادمة فارغة الدماغ.. لا يرتجى منك شيء.. ولا فائدة من توجيهك. أو محاولة تنويرك.. هيا اخرجي هذا الكرسي من هنا وابحثي له عن مكان آخر في غرفة أخرى..

منصورة : حاضر سيدتي «ثم تهم بالانصراف»

حليمة : لا.. ارجعي. واتركي الكرسي في أي مكان.. واشتغلي بأي شيء آخر

منصورة : «على حدة» متى. متى تصل الخادمة الجديدة.. الثانية

حليمة : «بجد» منصورة..

منصورة : نعم للا...

حليمة : «الهمهمة» ممنوعة.. الكلام المبهم ممنوع

منصورة : اعرف ذلك

حليمة : طيب... اعطيني... اعطيني... مدي إلي

منصورة : ماذا...؟

حليمة : ذاك... ذاك

منصورة : ذاك ماذا...؟ يا سيدتي...؟

حليمة : ذاك... ذاك... ألا تسمعين.. قلت لك ذاك

منصورة : ماذا تقصدين بذاك يا سيدتي

حليمة : اقرئي خاطري. واعطيني إياه بسرعة

منصورة : اعطيك ماذا «تعطيها الكرسي.. ثم الكأس... ثم أشياء أخرى»

حليمة : لا. لا. لا. قلت لك ذاك

منصورة : ماذا تريدين يا سيدتي...؟!

حليمة : ما أنا في حاجة إليه

منصورة : وما هو...؟

حليمة : أنا في حاجة لذلك الذي نسيت إسمه.. وتلك التي لا أذكر ما يطلق عليها

منصورة : وكيف لي أن أخمن يا سيدتي...؟!

حليمة : وفي انتظار أن تخمني.. إعطيني المقص.. لأقلم أظافري.. لا. لا ليس لتقليم الأظافر. وإنما لأقطع به هذا الخيط البشع الذي يتدلى من هنا

منصورة : ها هو المقص يا سيدتي «على حدة» متى... متى تصل الخادمة النائبة

حليمة : ماذا تقولين..؟!

منصورة : أنا.. هل تلفظت بكلمة..؟! لا. لم أقل شيئا

حليمة : وأنا سمعتك تهمهمين... هممهت.. نعم أم لا..؟! أجيبي..
منصورة : هممهت...
حليمة : وماذا قلت...؟!
منصورة : لا شيء... مجرد.. مجرد..
حليمة : مجرد ماذا ؟
منصورة : همهمة، مبهمة. صدرت مني بلا وعي.. وأعتذر..
حليمة : كفى همهمة مبهمة. وكلام غامض.. ألم انهك عن ذلك
منصورة : نهيتني يا سيدتي
حليمة : ومع ذلك همهمتي أي طاعون أصابك. وحملك على الهمهمة الغامضة المبهمة..؟! إسمعيني جيداً يا منصورة
منصورة : سامعة
حليمة : لا تعودي أبدا للهمهمة ولا للهمس. ولا للحديث الغامض
منصورة : أمرك يا سيدتي
حليمة : الهمهمة ممنوعة في بيت نتحدث فيه بأصوات مرتفعة وكلام واضح. ونحترم فيه الرأي الآخر..
منصورة : صار بالبال... «ثم تهم بالانصراف»..
حليمة : تعالي.. اقتربي مني
منصورة : هانا ذي يا سيدتي
حليمة : حتى النجوى بالسوء ممنوعة. أسمعت
منصورة : سمعت..
حليمة : هيا ابتعدي عني...
منصورة : ولكنك أنت التي طلبت مني أن أقترب منك
حليمة : «صائحة» كيف.. أنا طلبت منك أن تقتربي مني...؟! كيف.. كيف

منصورة : لعلي توهمت يا سيدتي. أو خيل إلي.. أو لعل طنينا رن في أذني فوهمني... سامحيني «تهم بالخروج»

حليمة : وإلى أين تتجهين...؟

منصورة : إلى أعمالي الكثيرة المتراكمة. والتي تنتظرني «تهم بالانصراف»

حليمة : «صائحة» تعالي... قلت لك تعالي

منصورة : حاضرة يا سيدتي... أنا هنا يا للا

حليمة : لماذا يحلو لك أن تعاكسيني...؟ عندما أقول لك انصرفي يطيب لك البقاء بجانبي... وعندما أطلب منك البقاء تستغفلينني وتنصرفين... تعالي

منصورة : حاضرة يا للا حاضرة

حليمة : امسكي بهذا المقص... وقصي

منصورة : ماذا أقص يا سيدتي...؟! أه تذكرت الخيط المدلى

حليمة : لا. لا. أنت تحاربين الخيوط كلها.. تقطعين كل الخيوط.. الخيوط يا هذه أحيانا حبال التواصل

منصورة : وماذا أقطع...؟! ماذا يطلب مني أن أقطع..؟!

حليمة : أولا وقبل كل شيء أظفارك.. إني أحذرك من مغبة إطالة الأظفار

منصورة : بالأمس فقط قصصت أظفاري.

حليمة : كذبت

منصورة : انظري.. لتتأكدي

حليمة : لا حاجة لنابالمقص إذن... رديه إلى مكانه.. واتيني حالا ب. ب. ب. ذكريني

منصورة : بماذا...؟!

حليمة : بما نسيت...

منصورة : وماذا نسيت...؟!

حليمة : المسألة... الأمانة

منصورة : أية مسألة. وأية أمانة..

حليمة : الأمانة التي طلبت منك بالأمس أن تحضريها لي من بيت للا عيشة

منصورة : «منصرفة» سوف آتيك بها حالا

حليمة : قفي.. وارجعي

منصورة : وقفت.. ورجعت..

حليمة : ولماذا رجعت..؟!

منصورة : ألم تقولي : قفي.. ارجعي

حليمة : انطلقي.. وكفي ثرثرة

منصورة : حاضر «ثم تنطلق»

حليمة : ارجعي.. ارجعي

منصورة : «تعود» هأنا قد رجعت..

حليمة : إقتربي

منصورة : «تقترب بحذر» حاضرة.. إني اقترب

حليمة : امسكي بالمقص.. وقصي هذه، ثم انصرفي

منصورة : ماذا أقص..؟!

حليمة : ألا تستطيعين قراءة خواطري

منصورة : لا

حليمة : لماذا...؟!

منصورة : لا أقرأ الخواطر. ولا أكتبها..

حليمة : عذرك مقبول هيا قصي.. قصي

منصورة : ماذا أقص...؟!

حليمة : نسيت.. ماذا تقصين... أظفارك مقصوصة.. والخيوط. لا. لا. آه.. تذكرت.. قلت لك تذكرت

منصورة : ماذا تذكرت سيدتي

حليمة : إنها الشعرة المزعجة التي تنبت وسط الخال الذي يتربع فوق أرنبة أنفي هيا قصيها بذوق.. ولطف.. وظرف وتؤدة

منصورة : باسم الله.. ها هي يا سيدتي... لقد قطعتها

حليمة : أريني إياها

منصورة : ماذا أريك يا سيدتي...؟!

حليمة : الشعرة

منصورة : سقطت. وقد تكون ضاعت

حليمة : وأين وصيتي... ألم أقل لك ألف مرة : إياك وضياع الشعرة الخاصة المتربعة فوق أرنبة الأنف...؟! وإنها قطعة مني

منصورة : قلتها لي

حليمة : ألف مرة...؟!

منصورة : ألف مرة

حليمة : أين هي الشعرة...؟!

منصورة : إنني أبحث عنها...

حليمة : مع أني كنت قد نبهتك إلى وجوب الحفاظ على هذه الشعرة بالذات ولفها في القطن. ووضعها في صنيدق صغير مصنوع من الفضة

منصورة : سمعت منك هذا التنبيه مرارا

حليمة : وماذا قلت لك في هذا التنبيه

منصورة : شعرة خال أرنبة الأنف يجب أن تعقم وتحفظ للتاريخ ملفوفة في القطن محفوظة في صنيدق من الفضة «تبحث» إني

أبحث عن شعرة تاريخية «شعرة الخال المتربع فوق أرنبة الأنف»
حليمة : انتهى أمر الشعرة الآن. ضاعت ولا جدوى من البحث عنها..
هيا اذهبي عند للا غيثة... وأتيني بالأمانة
منصورة : حاضر، «ثم تنطلق»
حليمة : تمهلي.. تمهلي قليلا.. لماذا تحاولين الطيران بمثل هذه السرعة...؟!
منصورة : لأنجز هذه المهمة بسرعة وأعود لاتمام أشغالي الكثيرة المتراكمة
حليمة : وتذكرين ماذا ستقولين للسيدة غيثة...؟! هيا تكلمي. وبسرعة.
منصورة : سأقول للسيدة رشيدة... استغفر الله... للسيدة غيثة بذوق ولطف وظرف، وتؤدة : احمل لك تحيات وسلام للا حليمة زوجة سيدي «حميد القنت»... خليفة المدير الكبير. وأقول لها إن سيدتي تؤكد لك الدعوة لتناول طعام العشاء.. أنت وصديقتك للا ثريا زوجة الأستاذ هشام.. وللا نادية زوجة الأستاذ كريم.. صاحب شركة الزهور... وللا نجاة وبعلها الأستاذ فريد رئيس الغرفة... وللا سامية قرينة سيدي أنيس، الرسام... والآنسة نجوى.
حليمة : ماتقولين...؟ ماذا
منصورة : عفوك يا سيدتي... للا أمينة امرأة سيدي عبد الرحمن... ثم الآنسة نجوى...
حليمة : تماما... لائحة الأسماء مرتبة حسب أهمية أصاحبها.. هيا اكملي
منصورة : والآنسة أمل... والآنسة صوفيا.. والآنسة صونيا.. والآنسة رجاء والآنسة نونو، والآنسة زيزي.. والآنسة رجاء.. والآنسة وفاء.. والآنسة ضياء والآنسة أنيسة

حليمة : ماذا.. ماذا... الضبط.. الضبط..

منصورة : «تسترد أنفاسها» الآنسة لبنى قبل الآنسة أنيسة، ثم الآنسة نانا.. والآنسة طامي.. والآنسة فاتي... وأنقل إليها أنك تعولين عليها في... في... في

حليمة : في ماذا... اتممي..

منصورة : تعولين عليها في إعارتك لها صنيات الفضة.. مع المجموعتين من كؤوس البلور الخاصة بشرب الشاي. والمجموعة الثالثة الخاصة بشرب الشاي البارد المثلج.. مع آنية قطع الثلج ومعلقتها.. المعلقة التي تشبه الملقاط

حليمة : أو قولي لها معلقة الخيرات.. وهي تفهم

منصورة : معلقة الخيرات... صار بالبال

حليمة : ما علينا. أكملي... لماذا سكت..؟!

منصورة : لأسترد أنفاسي فقط

حليمة : ترين بعينيك أن أيادينا في أعناقنا والوقت يطاردنا وتصرين على استرداد الأنفاس في حالة الطوارئ التي نعيشها اليوم. لا وقت لاسترداد الأنفاس.. هيا بسرعة. أكملي

منصورة : واذكرها أيضا بالشوكات «المشكات» المفضضة الأنيقة مع الملعقات المجموعة الصغيرة والكبيرة.

حليمة : ماذا. ماذا..؟!

منصورة : «تصحح» الكبيرة قبل الصغيرة. وأقول لها إن سيدتي توصيك بإلحاح أن لا تنسي أن تصحبي معك الشوكات

حليمة : الشوكات...؟!

منصورة : عفوا.. «المعينة» أو «التركيبة» وإذا استفسرتني ولم تفهم معنى «المعينة» أو «التركيبة» أقول لها : دواء أوجاع الراس

المعاصرة... أو دواء الخيرات، ثم انبهها إلى وجوب مصاحبة السيدة فلانة. زوجة السيد فلان ذلك الرجل المتوتر القلق المتخلف.. وصديقه الوسيم الأنيق المرح. وكذلك السيدة فلانة الفلانية، زوجة ذلك الرجل الرجعي «البلدي» الساذج. والذي لا يشرب الشاي المثلج المعاصر. ويجاهر بعدائه. لابد. من حضوره لنجعل منه مرتعا للفكاهة والتنكيت. ولنجد من تمسك ب «قشابته»... وأذكرها بأن الأمسية سيحييها جوق صغير برئاسة الموسيقار فلان. والشيخة فلانة صاحب الكمنجة والعزف على الطريقة المغربية الأصيلة.. وأذكرها بأن وقت الحضور قد تحدد في الساعة الثامنة بالضبط. والثامنة طبعا ليست هي الثامنة ودقيقة أو الثامنة إلا دقيقة...

حليمة : حسن.. بس

منصورة : وفي طريق عودتي أمر على البقال... لأجعله في الصورة وأذكره بكل الخيرات التي يعرف محتوياتها حق المعرفة.. ليبعث بها

حليمة : مثلا

منصورة : اللوز. والجوز المعلبين.. و«البشكيطو» المالح والجبن بكل أنواعه والزيتون. والليمون والفلافل. والحمضات. وفاتحات الشهية وجميع مستلزمات الشاي المثلج، شاي الخيرات..

حليمة : جميل. جميل ثم...؟

منصورة : «تسترد أنفاسها...»

حليمة : مازلت تستردين أنفاسك. والوقت في غير صالحنا...؟! ثم. ثم

منصورة : أمر على الجزار... وانبهه إلى نوعية اللحوم الصالحة للقطبان عفوا. عفوا السفافيد... الكباب والرجلة. والكتف. وما بين الضلوع.. والجزار على بينة من أمره...

حليمة : والجيكو

منصورة : نعم الجيكو الفخد. وكبد العجل.. والأمخاخ. ولحم الغنم.. الأضلع، والدجاج البلدي الممتاز. والفراخ التي تنضج في لمح البصر. ثم أمر على الحجامة عفوا الحلاقة أو «الكوافورا» واحدد لك معها موعدا.. وأمرعلى صاحبة المصبنة لأصحب الملابس البالية. وأمر على الخياطة لآخذ منها الملابس الجديدة الجاهزة

حليمة : وكم عددها

منصورة : خمسة «على عين الشيطان» خمس فساتين جديدة خمس «لبسات» ثم أمر على بائع السجائر وأقول له على لسانك : نوِّع.. قالت لك سيدتي نوع كما.. وكيفا من كل أنواع سجائر الخيرات.. ثم أمر على من..من.. على من.. ياربي ذكرني في الشهادة لدى خروج الروح.. ذكريني يا سيدتي

حليمة : لا.. لا.. لن أذكرك لتتعودي على الاعتماد على نفسك

منصورة : آه... تذكرت أعرج على «دار السلعة» لأذكر سيدي عزيزي الحاج بضرورة استدعاء أو تذكير الأساتذة الأفاضل بالدعوة، وهم : قاسم، وفاضل، والراضي.. وعثمان، وياسين والمختار، والمعطي.. وصالح، وعمرو.. ثم أقول له قالت لك سيدتي لا تنسى ذلك الرجل «الكوميك» المسلي الذي يضحكنا بتفاهاته وهدره ذلك المسمى «بوهو» وزميله الذي يغني الأغاني الفكاهية المرحة «تتنفس» الحمد لله على سلامتي.. أعتقد يا سيدتي أنني بفضل الله ورعايتك لم أنس أي شيء

حليمة : ما نسيت إلا المهم والأهم

منصورة : المهم والأهم...؟! ماذا يا سيدتي...؟!

حليمة : الشاي يا حمارة... نسيت أن عليك أن تذكري البقال ببعث صندوق من شاي الخيرات.. شاي القنينات

منصورة : نعم.. نعم.. عفوك سيدتي. نسيت شاي الخيرات.. شاي «كمل من عقلك»

حليمة : هيا.. انطلقي كطير يطير.! أو وحش يسير «جرس»

منصورة : أمرك سيدتي «جرس»

حليمة : انظري من بالباب أولا

منصورة : «لنفسها» ياربي اجعله جرس الخادمة التي ستنوب عني

حليمة : وتعودين للهمهمة الممنوعة...؟ هيانظري من بالباب

منصورة : «تهم بالخروج ثم تعود» للا. للا. للا.

حليمة : ماذا.. ماذا..؟

منصورة : لعلها النائبة قد أقبلت

حليمة : النائبة

منصورة : الخادمة الجديدة.. التي ستعوضني وستنوب عني. لعله جرسها

حليمة : إذا كانت هي فلتتفضل

منصورة : هي من دون شك. التي ستنوب عني

حليمة : وما أدراك

منصورة : شممت رائحة عطرها

حليمة : عجيب تتعرفين على الناس من رائحة عطورهم.. هيا اذهبي «تخرج»

المشهد الثالث

حليمة «على حدة»

حليمة : خادمة مجنونة.. مهزوزة العقلية.. مضطربة الذاكرة.. لا يعول عليها إطلاقا.. وغالية بثمن أكلها.. نهمة، شرهة مفتوحة

الشهية أكولة.. سريعة النسيان.. عصبية. قلقة.. دائمة التوتر، والانفعال والهمهمة. والحديث الأحدي.. ولا علاقة لها بالصبر الجميل... أتمنى أن تكون الخادمة الجديدة في المستوى.. شغيلة.. صبورة.. وباسمة طلقة المحيا.. أما منصورة خادمتي هذه فوجهها دائم العبوس.. ومحياها لا يعرف الابتسام.. وتنسى متى تعشت وبماذا تعشت.. البليدة نسيت شاي الخيرات.. وهو أهم شيء يشع البهجة بين الحاضرين «تشعل سجارة مباشرة بعد أن تكون قد أطفأت عقب الأخرى» آه... من خادمات هذه الأيام.. الخادمة التي تطالب بالعطلة خادمة..؟ لا. أبدا هذه موظفة بل موظفة مرموقة المكانة.. لا.. لا، مضى عهد الخادمات الطيعات الخدومات الوفيات المخلصات الصبورات.. مضى عهدهن إلى غير رجعة.. إننا الآن في عهد المتحذلقات السخيفات الغريبات العجيبات.. الخادمات المعاصرات.. المطالبات بحق العطل. وحق الراديو. وحق التلفزة في فترات الأخبار والمسلسلات وحق المناداة الهاتفية. والإجابة على الطلبات. وحق إعطاء العناوين للمراسلات الخصوصية وجميع الحقوق النقابية والاجتماعية والسياسية... والأخلاقية... لا. لا هذا زمن العجائب والغرائب.. من رأى منكم خادمة نموذجية مثالية فيخبرني بها لأستبرك بطلعتها «تدخل الخادمة الجديدة وبيدها حقيبتان.. وهي مرتدية لزي عصري منسجم على بساطته»

المشهد الرابع

إلهام... منصورة... حليمة

منصورة : تفضلي.. هذه للا حليمة «مولات الدار» للا... سيدتي الخادمة

إلهام : متشرفين.. بون جور مدام
منصورة : « على حدة » بون جور مدام.. هذه طبيبة.. وليست خادمة
حليمة : « متعمدة إسماع إلهام » ألم أقل لك : الهمهمة ممنوعة في هذا البيت يا منصورة
منصورة : « وهي تنظر إلى إلهام » قلت لي يا سيدتي... الهمهمة ممنوعة في هذا البيت
حليمة : متشرفين ـ مرحبا بك في بيتنا ـ خادمة ـ اسمي بكل بساطة للاك حليمة ولست حاجة. وإياك من مناداتي بالحاجة.. سيدتي.. أو للا فقط
إلهام : وي مدام... أنطندي.. سأنوب عن خادمتكم مدة أسبوعين عطلتها السنوية
حليمة : بعثك الفقيه... الفقيه.. ذكريني باسمه
إلهام : عديسة... الفقيه عديسة
حليمة : كنا قد طلبنا منه... وهو فقيه. وسمسار خادمات.. طلبنا منه أن يبحث لنا عن خادمة جديدة ـ يعني خادمة معاصرة. مودرن بكل معنى الكلمة
إلهام: أعرف ذلك مدام
حليمة : خادمة من طيرازك بالضبط
إلهام : أخبرني الفقيه عديسة بكل التفاصيل
حليمة : انصرفي أنت إلى أشغالك يا منصورة
منصورة : حاضر.. « ثم تخرج »

المشهد الخامس

إلهام.. وحليمة

حليمة : أهلا.. مرحبا بك

إلهام : مرسي «ثم تضع حقيبتيها بجد متناهي وتقول عابسة» أقدم لك نفسي.. اسمي في دفتر الحالة المدنية : الشعيبية. واسم الشهرة الذي اخترته أنا هو إلهام عواطف فردوس عبد القدوس جمال خادمتكم الجديدة. وأنت حرة في مناداتي بأي اسم يسهل عليك التلفظ به

حليمة : الاسم عندي ليس أهم من المسمى.. أنا للاك حليمة سيدتك. وزوجي الحاج حميد هو عزيزك «مول الدار» اسارع فأخبرك إننا قررنا إذا وجدناك في المستوى صبورة عاقلة، رصينة، خدومة مجتهدة وذكية واعية منتبهة، سنحتفظ بك. ونتخلى عن خدمات خادمتنا القديمة منصورة

إلهام : ولماذا...؟ ما سمعت عنها إلا المدائح

حليمة : المسألة مسألة تفاهم... ومن امتدحها لك..؟

إلهام : الفقيه عديسة يقول إنها في المستوى من جميع النواحي

حليمة : الفقيه عديسة سمسار كذاب.. أقول هذا صراحة. ومن غير عمد لا إلى شتيمة، ولا إلى اغتياب.. إنه يصبغ صفات الملائكة على ألعن الشياطين إذا تعلق الأمر بتشغيل خادمة لأجل أن يكسب سمسرته.. خادمتنا بليدة. وكسولة... ومتوانية.. وفيها بلية النسيان.. وشغوفة بالعطل.. وحب السفر.. تصوري أنها ومنذ أربع سنوات وهي تطالب بالعطلة في إلحاح لا نظير له ارهقت أذني : أريد أن أرى أهلي.. اشتقت لرؤية والدتي ووالدي وإخوتي.. تقول

هذا وكأنها تمشي في بيتنا على الجمر... فهمت...؟!

إلهام : فهمت. وي مدام

حليمة : حتى اضطررنا في هذه السنة أن نلبي طلبها. ونمنحها عطلة خمسة عشرة يوما بأجر مؤدى... نحن أناس طيبون... وسنؤدي لها ثمن السفر إلى قرية أهلها. وجميع تكاليف التنقل... ألم يخبرك بهذا الفقيه ما اسمه؟

إلهام : عديسة الفقيه عديسة

حليمة : لا أكتمك ـ والكلام بيني وبينك ـ أنني أطلب من الله في سري أن لا تعود منصورة لخدمتنا

إلهام : لماذا...؟!

حليمة : لأنها خادمة غير موهوبة. ولي عليها مآخذ كثيرة

إلهام : أ. وي... مثلا

حليمة : لها شغف بالنوم لا مثيل له... فلا تكاد الساعة تشير إلى منتصف الليل أو الواحدة صباحا حتى تكون خادمتنا المحترمة قد اخلدت للنوم العميق ولا تستيقظ إلا في الساعة الخامسة وأحيانا السادسة صباحا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ومسألة الاستغناء عن خدماتها تراودني ومع ذلك فقد أحتفظ بها... وبك أنت أيضا .. طبعا إذا اكتشفت فيك مواهب خاصة... الخادمات الموهوبات شيء نادر في هذا الزمن.. وأنا أريد خادمة مثالية.. خادمة الخيرات.. أعرف أنني أطلب المستحيل ومع ذلك فأنا غير يائسة.

إلهام : أيمكنني أن أعرف نوع الأشغال المطلوب مني القيام بها يا سيدتي

حليمة : بكل تأكيد يا إلهام عواطف فردوس جمال الشعيبية

إلهام : «تصحح» إلهام، عواطف فردوس، عبد القدوس جمال واسم الحالة المدنية الشعيبية

حليمة : ما قولك. وربحا للوقت أناديك الشعيبية

إلهام : لك ذلك. ولكنني أفضل أن ينادى علي باسم إلهام جمال...

حليمة : إلهام جمال اسم جميل.. وعليه.. وعليه.. طيب ها هو برنامج أشغالك اليومية

إلهام : وي مدام

حليمة : الاستيقاظ في الساعة الخامسة

إلهام : الخامسة.. أية خامسة...؟! يا مدام

حليمة : الخامسة صباحا. فهمت

إلهام : فهمت

حليمة : من الخامسة إلي حدود السادسة.. ستقومين فقط بمسح الأحذية أحذية عزيزك رجلي، والأولاد.. وبلا هرج ولا مرج.. كل الأشغال التي ستنجزينها في الصباح الباكر. تنجز بهدوء ولطف. وظرف وتؤدة فهمت يا جمال إلهام

إلهام : إلهام جمال...

حليمة : وفي السادسة بالضبط يا إلهام جمال ستذهبين للمرآب

إلهام : المرآب...؟!

حليمة : الكراج... تذهبين بهدوء شامل كامل... وخطوات هامسه.. كي لا يستيقظ عزيزك مفزوعا أو متوترا منفعلا.. عزيزك سريع الانفعال

إلهام : فهمت...؟! وي مدام

حليمة : الكراج موجود عندنا في الحديقة... والممشى المؤدي له طويل بإمكانك أن تشعلي الضوء.. نحن نحب السير في الطرق المضاءة

إلهام : وماذا سأعمل بالضبط في الكراج...؟

حليمة : أولا غسل السيارات ومسحها... بمواد خاصة وأدوات خاصة... بالكراج أنبوب خاص بماء مضغوط يزيل الأوساخ بسرعة

وسهولة وفيه منشفات خاصة بمسح السيارات أيضا.. كل حاجة موجودة في بيتنا موجودة لأجل غرضها الخاص.. نحن لا نخلط بين شعبان ورمضان.. وعليك أن تقومي بهذه الأعمال بذوق وهدوء، ولطف وظرف وتؤدة.. وعندنا أيضا القفازات

إلهام : القفازات..؟!

حليمة : الصباعات ـ صباعات الغسيل... بوسعك أن لا تضعي يدك في الماء... أفهمت...؟!

إلهام : فهمت وي مدام

حليمة : المهم يا ذكريني باسمك

إلهام : إلهام

حليمة : المهم يا إلهام أحلام

إلهام : « مصححة » إلهام عواطف فردوس عبد القدوس جمال الشعبية وإلهام تكفي

حليمة : قلت لك يا إلهام جمال... لدينا الوسائل والمعدات المعاصرة التي تساعدك على القيام بعملك في أحسن الظروف وأكثر يسر وسهولة.. نحن أناس طيبون ونحسن معاملة من يشتغل معنا

إلهام : وي مدام... وبعد.. وبعد

حليمة : وفي السابعة... أو إذا قدرنا أنك انهيت عملك في الكراج قبل السابعة لنقل مثلا في السابعة إلا ربع.. ستقصدين. ودائما في هدوء الصباح الباكر غرفة الأطفال.. لتوقظيهم.. بهدوء ولطف وظرف وتؤدة

إلهام : تؤدة...؟ ماذا تعني تؤدة هذه

حليمة : ظرافة لطافة... وتتولين غسل وجوههم. وتنظيف خواشيمهم وتقفي بجانبهم حتى يتناولوا فطورهم. ويرتذوا

ملابسهم. واحرسي على أن يشربوا الحليب جميعا.. العناية التامة بكل صغيرة وكبيرة تخصهم، من استيقاظهم إلى ذهابهم للمدرسة... قد تبدو لك هذه الأشياء كثيرة ومرهقة. ولكنها سهلة ميسورة إذا توفرت الارادة الحسنة. فهمت

إلهام : الصراحة إنني أحاول أن أفهم يا مدام

حليمة : المفروض أن تكوني قد انتهيت من العمل مع الأولاد في الثامنة إلا ثلث لتملئي الثلث ساعة الذي يفصلنا عن الثامنة في تنظيف وترتيب غرفة الأطفال. وغسل الأواني التي تناولوا فيها طعام فطورهم وتعيدي كل الأشياء إلى أماكنها سالمة.. بهدوء.. ولطف وظرف وتؤدة.. بلا تأفف.. ولا انفعال ولا توتر.. التوتر. والانفعال يتسببان في كسر الأواني.. مما ينتج عنه الضياع.. والضياع من مسؤوليات المفرط نحن أناس واضحون... أفهمت ماذا أقصد...؟!

إلهام : تخطيت مرحلة الفهم إلى مرحلة الاستعاب.. يا مدام

حليمة : وفي الثامنة بالضبط تنقري باب غرفة نومي.. بذوق. وهدوء. ولطف

إلهام : وظرف وتؤدة.. وي مدام

حليمة : تماما. وإياك ثم إياك النقر بعنف... نومي أنا غزالي... واستيقظ بسرعة... وإذا لم أجبك فامهليني خمس دقائق.. ثم عاودي النقر ودائما

إلهام : بهدوء. وذوق. ولطف. وظرف. وتؤدة

حليمة : تماما.. وتعاودين الكرة إلى أن أجيبك بصياح.. ومتى أجبتك صائحة تأكدي أنني استيقظت.. الصياح وحده علامة الاستقاظ عندي فتنبهي وكوني يقظة نبيهة.. اتفقنا...؟!

إلهام : نعم... اتفقنا... وي مدام

حليمة : وعندما تتأكدين من أنني استيقظت... اسرعي إلى المطبخ، وبادري بإعداد القهوة. والحليب... أنا لا أخلط... اشرب الحليب حليب. والقهوة قهوة. وحتى السكار... لا أخلطه بأي شيء أفهمت

إلهام : أحاول جاهدة أن أفهم

حليمة : الفطور في غرفة الطعام غرفة طعام الكبار... ثم إياك.. ثم إياك أن أخرج من البيت وأجدك في بيت الماء.. بيت الماء الخاص بك موجود في الكراج. وفي التاسعة ولدى الانتهاء من «حريرة الفطور» ولدى خروج سيدك

إلهام : سيدي...

حليمة : زوجي. ناديه سيدي. أو عزيزي لك حرية الاختيار... تلك هي عادتنا في هذا البيت... وأنت وما تشائين

إلهام : سيدي. عزيزي شيء واحد...؟ نسبا مدام...؟!

حليمة : وبعد خروج عزيزك يا إلهام جمال الشعيبية.. سيكون عليك أن تهتمي بالبيت كله من غرف النوم.. إلى المطبخ.. إلى الصالونات.. إلى غرف الضيوف والهولات. كل الأمكنة بالتتابع. مكان إثر مكان.. غسل.. تجفيف مسح تلميع. نفض الأرض. والنوافذ.. والحيطان. والأبواب. الزليج والزجاج ولدينا المواد الخاص لكل الأشياء... لكل كبيرة وصغيرة.. من واجبنا. أن نجعل عملك معنا متعة، راحة خدمنا تهمنا بالدرجة الأولى

إلهام : أنتم أناس طيبون ما في ذلك شك... أناس من خيرة الناس... وي مدام

حليمة : المهم يا إلهام جمال. في العاشرة بالضبط.. تأخذي القفة. وسلل التسوق «المقضية». وتذهبي إلى السوق لتتبضعي. السوق

يبعد عن بيتنا بمسافة ربع ساعة فـ طوبيس... بما أن الحافلات في حينا تتأخر عن مواعيدها باستمرار. وبما أنها بطيئة في سيرها.... ستفضلين مكرهة الذهاب إلى السوق راجلة. ربحا للوقت من جهة وكسبا لثمن تذكرة الحافلة من جهة أخرى.. ثم نعم ثم أن ثمن تذكرة الحافلة يضاف إلى أجرتك في حال ذهابك للسوق راجلة.. وما يأكله الطبيب.. أولى به المريض...

إلهام : أنتم أناس في منتهى النبل والطيبوبة... والسخاء.. وي مدام

حليمة : وفي السوق يا إلهام عبد الرؤوف

إلهام : «مصححة بانفعال مكتوم» إلهام عواطف فردوس عبد القدوس جمال الشعيبية

حليمة : ذكريني باسمك المختصر

إلهام : إلهام جمال

حليمة : ولدى وصولك للسوق يا إلهام جمال. تجولي مرة أو مرتين وبغير ضياع للوقت... اضرعي السوق جيئة وذهابا.. في تجوال الملاحظ.. وعايني الأشياء والبضائع بدقة متناهية.. ثم اشتري أحسن ما في السوق بأبخس ثمن ممكن.. ساومي.. و«تشطرى».. وإذا أراد أحدهم استغفالك في بعض الدراهم... فتظاهري بالغفلة.. غفلة الناس الكرام.. حتى يعرفوا جميعا أنك آتية من دار كبيرة وتشتغلين مع

إلهام : خيرة الناس.. أناس مضرب الأمثال في الجود والكرم والنبل.. والغفلة الكريمة المقصودة. سي فري. مدام

حليمة : ما نحن بجائعين. ولا متهافتين.. نحن قوم نشم أظافرنا فنشبع... ولدى رجوعك من السوق والتسوق في الحادية عشرة

تماما... نبهيني إلى أنك رجعت في الوقت المحدد.. حتى أسجل في دفترك أنك لم تتأخري. وأنك تستحقي ثمن تذكرة الأطوبيس.. لا يضاف ثمن التذكرة إلى أجرتك إلا في حالة وصولك في الحادية عشرة بالضبط.. ثمن الأطوبيس مرهون بعدم التأخير فهمت...؟

إلهام : حقا أنتم أناس طيبون... وكرماء... «هامسة» هكذا يكون النبل... وهكذا تكون الطيبوبة

حليمة : الهمهمة ممنوعة... وإذا عنى لك أن تقولي شيئا ما.. فقوليه بالصوت المرفوع حتى نسمعك.. نحن أناس نحب سماع الرأي الأخر ونحترمه.. ولا نعادي من نختلف معهم... فهمت

إلهام : فهمت... احترام الرأي الآخر

حليمة : المهم يا إلهام جمال.. أو جمال إلهام.. الأمر عندي سواء.. ابتداء من الحادية عشرة... سترتدين سترة المطبخ...

إلهام : سترة للمطبخ...؟!

حليمة : لباس المطبخ. وهو موجود في مطبخنا.. كل أدوات مطبخنا حديثة. ومعاصرة من الفرن والثلاجة، والطنجرة إلى أبسط وأدق الأشياء والحاجيات آلات تشتغل بالكهرباء. وبالغاز سهلة الاستعمال سريعة الانجاز وبقليل من الجهد. والوقت يمكنك تحضير أشياء كثيرة.. كل ما تحتاجين إليه موجود في مطبخنا ليكون طعام الغذاء جاهزا على الساعة الثانية عشرة تماما بالدقيقة، باللحظة، بالمقدمات من سلاطات وفاتحات الشهية وغيرها... ومؤخرات من فواكه.. «دسير» فهمت...؟ نحن أناس متحضرون

إلهام : فهمت... أنتم أناس متحضرون.. وي مدام

حليمة : وقت الأكل عندنا مضبوط بالثانية... عزيزك جوعه حراق.. جوعه ذئبي ويريد أن يتناول طعامه بمجرد وصوله للبيت.. وغير

خاف أن الوقت ضيق والأولاد يتوجب رجوعهم للمدرسة قبل الساعة الثانية.. شيء آخر.. أنا نفسي أحب أن آخذ قيلولتي في الساعة الثانية إلا ربع

إلهام : قيلولتك...؟

حليمة : «موضحة» لا سييست. النوم بعد الغذاء يسمى القيلولة.. فهمت

إلهام : فهمت... النوم بعد أكلة الغذاء يسمى قيلولة..

حليمة : وفي هذه الفترة لا أحب أن أسمع زغننة ذبابة... أو وقع سقوط حبة قمح على الأرض... فهمت

إلهام : فهمت... «لنفسها» أناس متحضرون بشكل ملفت للنظر

حليمة : ماذا تقولين..؟!

إلهام : لا شيء... لا شيء

حليمة : سبق لي أن نبهتك إلى أن الهمهمة، والهمس... وحتى النجوى أشياء محظورة في بيتنا

إلهام : صار بالبال... وي مدام

حليمة : وخلال تناولنا للطعام.. يتوجب وقوفك بجانبنا.. إذا احتجنا لشيء نشير عليك باحضاره. من غير مناداة.. أو استعمال النواقيس... أو رفع الأصوات.. الما.. الملح.. الفلفل.. آه نسيت أن أنبهك.. إلى وجوب أخذ الحذر الشديد أثناء تحضير الطعام.. كل التوابل يجب أن توضع في الأكل بالقدر المناسب وبكل دقة.. لا حار ولا مالح.. ولا مسوس.. عزيزك ينفعل.. ويثور ويمزق ملابسه أحيانا إذا وجد الطعام مالحا. أو مسوسا، أو محروقا. أو به أي خلل مطبخي مهما ضؤل حجمه.. الصراحة أننا نغرِّم الخادمة أية خادمة إذا افسدت الطعام ولهذا وجب التنبيه..

إلهام : تغرمون الخادمة الطعام إذا أفسدته
حليمة : لا نحاسبها في الأخطاء الغير مكلفة
إلهام : وماهي طريقتكم في التغريم
حليمة : خصم ثمن الطعام الفاسد من الأجرة الشهرية.. إما دفعة واحدة وإما بالتقسيط.. حسب سلوك الخادمة نفسها وحسب ردود فعلها... وبهذه الطريقة المثلى تكون الخادمة مكرهة على الانتباه. وأخذ الحذر.. وغالبا ما تتلافى الخادمة الأخطاء الغير مرغوبة.. أو المخلة بقاعدة التعايش.. وأثناء تناولنا لطعام الغذاء.. يتحتم عليك وضع «المقرج» الابريق فوق نار هادئة.. حتى إذا ما انتهينا من الأكل كان الماء الساخن جاهزا لتحضير الشاي أو القهوة أو هما معا... واضح...؟!
إلهام : في منتهى الوضوح... مدام
حليمة : المهم يا إلهام جمال عبد القدوس عواطف فردوس... أهذا هو اسمك بكل التفاصيل...؟!
إلهام : «تكتم انفعالاتها» وهو كذلك
حليمة : المهم.. أننا عندما نشرع في احتساء الشاي. في تلك الآونة بالذات تذهبي أنت بسرعة إلى غرفة نومي.. لتعاودي استعمال رشاشة الذباب ربع ساعة.. ربع ساعة قبل أن أتهيء أنا للنوم.. ثم تغلقي النوافيد. وتسدلي الستائر، ولدى خروج الأولاد إلى المدرسة.. وعزيزك إلى عمله.. تبدئي أنت في عملية غسل الأواني.. لا تتركي عمل اليوم لغد أبدا.. ثم تضعي النفايات
إلهام : «مستوضحة» النفايات...؟!
حليمة : النفايات هي الأزبال وماشابه الأزبال.. تجمعيها في لفافاتها الخاصة.. حتى الأزبال في بيتنا لها لفافاتها الخاصة

إلهام : أنتم أناس طيبون ما في ذلك شك.. ومتحضرون.. وي مدام

حليمة : ثم تردي الأشياء. كل الأشياء. إلى قواعدها سالمة.. فهمت

إلهام : الأشياء.. كل الأشياء إلى قواعدها سالمة

حليمة : وتفقدي المطبخ. وحذار من الفوضى في المطبخ.. وبمجرد ما اتجه إلى غرفة نومي. تشرعين أنت في القيام بعملية المسح..

إلهام : مسح ماذا...؟!

حليمة : مسح الثلاجة.. مسح الفرن.. مسح المرايا.. ويجب أن أنبهك إلى أن المرايا التي تزين حيطاننا كلها من النوع النفيس الغالي الثمن كي تمسحيها وأنت على بينة من قيمة ثمنها... المسح بذوق. وحذر. ولطف. وظرف تؤدة

إلهام : بتؤدة.. تعجبني كلمة تؤدة هذه يا.. مدام

حليمة : وعلى ذكر المريا. أخبرك أن الوقوف أمام المرآة لغير مسحها ممنوع

إلهام : صار بالبال

حليمة : لاحظي أن بيتنا يتمتع بهدوء كبير.. فيجب أن تتحركي فيه بهدوء مماثل.. وخلال فترة قيلولتي أحب الهدوء التام.. وهذا لا يمنعك أنت من القيام بأعمالك كلها بسرعة. ولكن

إلهام : بذوق، وهدوء، ولطف. وظرف. وتؤدة

حليمة : وإذا تنقلت من مكان إلى مكان في هذه الفترة فسيري على رؤوس بنانك حاولي أن تكون خطواتك شاعرية هامسة.. فهمت

إلهام : «تومئ برأسها أنها فهمت»

حليمة : أجيبي..؟ لماذا سكتت..؟

إلهام : بعصبية مكبوتة» فهمت

حليمة : وعلى الساعة الرابعة.. والرابعة ليست هي الرابعة وخمس دقائق أو الرابعة إلا خمس دقائق.. انقري علي باب غرفتي.. والنقر طبعا

إلهام : بذوق. وهدوء. ولطف. وظرف. وتؤدة. وأتركك تتململين في فراشك خمس دقائق ثم أعاود النقر.. إلى أن يتأكد لي أنك استيقضت. والدليل الوحيد الأوحد على يقظتك هو الصياح

حليمة : تماما.. تماما.. أنت خادمة حاذقة لبيبة.. وبمجرد ما تتأكدين من أنني استيقظت اذهبي عند جارتنا في الزنقة الدار رقم 11. للا راضية وقولي لها إن سيدتي تنتظرك لشرب الشاي

إلهام : شاي الخيرات... يعني الشاي المثلج

حليمة :لا.. الشاي المنعنع.. ثم أن الشاي المثلج يحتسى بعد طلوع النجمة.. وشاي الرابعة زوالا هو شاي التقعيدة

إلهام : التقعيدة

حليمة : التقعيدة عندنا هي «الكاسكروط» أفهمت

إلهام : «منفعلة.. وتشير إلى أنها فهمت. ولكن بدون كلام»

حليمة : لا. لا. تكلمي.. عبري عن رأيك.. قولي : فهمت بالصوت العالي

إلهام : «صائحة» فهمت.. يا ربي أشهد أنني فهمت

حليمة : وفي الخامسة يا جمال إلهام. أو إلهام جمال... تهيئي لاستقبال الأولاد.. هم أيضا في حاجة إلى «تقعيدة» خاصة بهم

إلهام : الكاسكروط...؟!

حليمة : بدأت أحبك لأنك نبيهة. وأنا أحب النباهة

إلهام : وأنا بلا تواضع. كما تلاحظين جد نبيهة. ومنتبهة. وواعية

حليمة : سنرى.. والله لا يخيب ظني فيك.. أنا أحسن فيك الظن.. وبعد تقعيدة الرابعة بمرحلتيها الكبيرة والصغيرة تراجعي أحذية

الأولاد لتعاودي مسحها كما يجب. وطي ملابسهم. وجمع أدواتهم بعناية واهتمام وأنت تعرفين أن الأطفال يعودون من المدرسة أحيانا بملابس في حالة يرثى لها.. ثم انهم ينزعونها. ويطوحون بها حيثما اتفق. ولهذا يتوجب عليك أن تتابعي حركاتهم. وسكناتهم.. حتى لا تضيع الملابس.. فكوني يقظة حذرة مع الحرس الشديد. والتأكد من أنهم تناولوا طعام تقعيدتهم

إلهام : الكاسكروط...؟!

حليمة : اهتمامك الخاص بالأولاد. والعناية بهم شيء يقوى من حظوظ بقائك معنا

إلهام : «بعصبية» بقائي معكم...؟!

حليمة : إذا كنا قد أعجبناك..؟!

إلهام : لا ينبغي أن تشكي لحظة في هذا الإعجاب...

حليمة : وفي السادسة مساء وبعد أن تكون مهمتك مع الأولاد قد انتهت على أحسن ما يرام... تأتي توا إلى غرفة الشاي حيث تجدينني تأهبت لتوديع للا راضية ألبسيها جلبابها أو معطفها.. بكل

إلهام : لباقة. وظرافة. ولطافة. وتؤدة

حليمة : وبمجرد مغادرتها للبيت تتجهي أنت للمطبخ في التو.. لتشرعي في تحضير طعام العشاء. سيدك

إلهام : «في شبه احتجاج» سيدي...؟!

حليمة : عزيزك. رب البيت يحب الشربة. والأشياء الخفيفة كالبتزا على الطريقة الايطالية مثلا. أو ماشابه ذلك من الأكلات الخفيفة. ولكن الشربة رسمية كل يوم. وبدون استثناء. وفي الساعة الثامنة والنصف بالضبط يجب أن يكون طعام العشاء جاهزا. وعلى أحسن

ما يرام... وطبعا لديك الوقت من السادسة إلى الثامنة.. العشاء بسيط للغاية. وتحضيره لا يكاد يكلف وقتا أو جهدا يذكر.. نحن لا نريد إرهاق خادماتنا بما يشبه الأشغال الشاقة.. فهمت

إلهام : طبعا فهمت. مايشبه الأشغال الشاقة.. وي مدام

حليمة : وطبعا حضورك أثناء الأكل ضروري ومؤكد. ووقوفك إلى جانبنا يجب أن تطبعه ابتسامة مشرقة متوهجة تفتح شهية الأكل.. فسيدك لا يحب الوجوه العابسة.. البسمة هي صفتك الدائمة. وفي كل الأحوال.. ابتسمي إذن

إلهام : «تفتري ابتسامة» نعم.. نعم

حليمة : لا. لا. هذه ابتسامة باهتة صفراء مفتعلة. وفيها الكثير من التصنع والتكلف الابتسامة في بيتنا يجب أن تكون من الأعماق

إلهام : ومن يبتسم في هذا البيت من الأعماق..؟!

حليمة : نحن جميعا. وطبعا أنت معنا. في مقدمتنا

إلهام : سأبتسم.. نعم. وأبتسم من الأعماق.. وي مدام

حليمة : وإلى جانب الابتسامة.. الترحيب بالضيوف كل الضيوف بكلمات جميلة مرحبا.. أهلا.. وسهلا.. ثم عملية نزع الجلاليب أو المعاطف والعناية البالغة والاهتمام الخاص بالنساء بالدرجة الأولى. وفي كل شيء... مثلا إذا تلقيت نداء بطلب الماء من رجل وامرأة في آن واحد.. تلبي طلب المرأة أولا ولدى استقبال الضيوف يتحتم عليك ارتداء الملابس البيضاء الخاصة باستقبالهم.. وهي موجودة وجاهزة اسمعيتي جيدا يا إلهام جمال، اللطف والظرف والذوق والتؤدة.. وحتى وأنت توزعين كؤوس الشاي البارد.. النساء أولا...

إلهام : الشاي البارد...؟

حليمة : ستعرفينه - إن كنت لا تعرفينه بعد - في الوقت المناسب.. لكن إياك ثم إياك الوقوف أمام الناس... والوقوف دائما خلف الباب أو الستائر في حضرة الضيوف.. والوقوف ليس للفرجة أو التصنت.. الوقوف لانتظار إصدار الأوامر لتلبيتها. وتنفيذها.. وشيء آخر هام.. وحيوي هو تحضير الأكلات الباردة «بيفي فروا» لبعض الضيوف. وليس لكل الضيوف لعلك فهمت...

إلهام : أحاول.. صديقيني أحاول

حليمة : العشاء البارد من إعدادك طبعا... وسأتولى أنا بنفسي شرح كيفية الاعداد لهذا النوع من الأكلات الباردة.. كما سأعلمك كيف تقدمي هذا العشاء للضيوف بطريقة معاصرة حديثة حية. وجميلة «اكسترا مودرن»

إلهام : «متفجرة» طريقة تتسم باللياقة، واللباقة، واللطافة، والظرافة. والطراقة «الأتيكيت». والتؤدة.. لقد فهمت ماذا يجب علي أن أفعل ولدى خروج الضيوف في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أتولى أنا رد الأمور كل الأمور إلى نصابها والأواني. والكؤوس إلى قواعدها سالمة.. وبدون تأفف. أو تضجر.. أو نرفزة أو انفعال، العمل ينجز في هدوء ولطف وظرف وتؤدة وفي الساعة الثانية أو الثانية إلا ربع صباحا أكون قد انهيت كل مهماتي بكل بساطة. وبعدها يبقى وقتي كله لي. ملكي الخاص. وأنا حرة في أن أتصرف فيه كما أشاء... وطبعا هناك أعمال أخرى كثيرة. وهي من صميم اختصاصاتي وقد تكون من بنات وقتها.. تأكدي أنني أعرف مالي وما علي أعرف كل واجباتي حق المعرفة.. وأعرف أيضا كيف يمكن أن أتصرف.. بالذوق واللطف والظرف والتؤدة وأعرف أنك اعطيتيني مجرد نظرة خاطفة عن عملي..

وهناك أشياء كثيرة أغفلتها، أو نسيتها.. وهي من أوجب واجباتي.. أنتم أسرة صغيرة جدا زوجك، وأنت، وخمسة أطفال على عين الشيطان.. ولديكم مصبنة ومغسلة للأواني.. لكن مسح الأواني وكي الملابس وطيها موكل لهمتي وأعرف أن أعمالي كلها يجب أن تكون محبوكة متقنة ودقيقة جدا. وقديما قال حكماء المغاربة : «محبوك أو متروك» وفي اليوم الموالي يا، أنا، يا إلهام جمال... أو جمال إلهام فردوس عبد القدوس ومن الساعة الخامسة صباحا إلى السادسة سأكون في راحة شاملة. مسح أحذية عزيزي وأحذية الأولاد. وطبعا بلا هرج ولا مرج. ولا عجيج. ولا ضجيج. خصوصا وأن أصحاب البيت ما يزالون في أحلى لحظات النوم الهادي : أقوم بكل هذا هادئة بابتسامة الرضى والرزانة والاستقامة ما قولك يامدام...؟ فهمت أم لم أفهم

حليمة : تخطيت مرحلة الفهم إلى مرحلة الاستعاب

إلهام : «بشكل آلي» وفي السادسة تماما أولي وجهي شطر المرأب. الكراج وهو موجود عندكم في الحديقة والممشي المؤدي إليه طويل ويوسعي أن أشعل الضوء. أنتم أناس تحبون السير في النار عفوا في النور.. ثم علي أن أسير على رؤوس أبناني. كي لا تحدث خطواتي أي ضجيج مزعج مقلق

حليمة : عجيب. غريب. مدهش.. ثم ماذا...؟!

إلهام : أغسل السيارات. وأمسحها... والكراج. ومحتوياته. ولديكم في الكراج ما تشتهي الأنفس من كل وسائل الراحة.. كل المعدات التي تيسر العمل وتجعله متعة.. أنابيب خاصة.. صابون خاص.. مواد لمسح الزجاج خاصة وما على الخادمة إلا أن تكون نبيهة ذكية حاذقة ولديها النية الحسنة.. ولها الحرية من أن تبلل يدها بالماء، أو

لا تبللها.. فالآلة عندكم تنوب عن اليد في كثير من الأعمال.. وأنتم أناس طيبون رحماء بخادمتكم ما في ذلك شك..

حليمة : الحقيقة أنك خادمة ذكية بشكل ملفت للنظر

إلهام : أعرف ذلك «ثم تشرع في تقليدها» وفي السابعة.. أو السابعة إلا ربع أتوجه إلى غرفة الأولاد. ودائما خطواتي على رؤوس الأبنان.. خطوات هادئة.. هامسة.. شاعرية.. أبدا بغسل وجوههم. وخواشيمهم جميعا. ومسحها.. وأتولى إطعامهم. وإلباسهم إلى أن يكونوا مهيئين للذهاب للمدرسة «تمعن في تقليدها بطريقة «كاريكاتورية» سيذهبون طبعا بالسيارة للمدرسة.. لا. لا. عفوا سيذهبون للمدرسة بالسيارة وإذا تعلمت أنا السياقة.. يمكنكم الاستغناء عن خدمات ذلك السائق الأهوج.. المشاغب الغير مستقيم

حليمة : أنت خادمة لا مثيل لها في العالم

إلهام : وأنتم أناس لا مثيل لكم في العوالم.. وتوفرون أسباب السعادة والراحة لخادماتكم

حليمة : شكرا

إلهام : ومن الساعة الثامنة إلا ثلث للثامنة. أعيد النظام إلى غرفة أكل الأطفال وأرد الأمور إلى نصابها. كل حاجة بجانب أختها. بنظام، ولطف، وظرف، وتؤدة.. ثم أتجه إلى غرفة سيدتي.. عفوا للا لأقوم بعملية إيقاظها وهي عملية جد دقيقة. ومعقدة.. علي أولا أن أنقر على الباب بهدوء هادئ نقرات لطيفة ظريفة تؤدية الايقاع.. ثم أنتظر خمس دقائق. وإعاود النقر التؤدي.. ثم أنتظر وأعاود الكرة من مرة إلى ثلاثة فما أكثر إلى أن أسمع سيدتي للا تصيح.. والصياح معناه أنك ودعت عالم الأحلام الهادئة.. واستيقظت لتواجهي يومك الجديد.. أهكذا يا سيدتي للا...؟

حليمة : تماما. ما ألطفك من خادمة

إلهام : وإذا كانت لسيدتي للا. الثقة في نباهتي، ومواهبي وذاكرتي فتعليماتها كلها؛ أصبحت عندي محفوظة مسجلة

حليمة : نسيت أن أقول لك ان مسألة الغسيل

إلهام : عندكم مصبنة معاصرة من أحدث طراز.. ماكينة من النوع الممتاز

حليمة :الغسيل من اختصاص الآلة

إلهام : والكي من اختصاصي أنا. طبعا مع طي الملابس

حليمة : أنت خادمة من النوع النادر الممتاز

إلهام : وأنتم أناس طيبون.. ممتازون.. نادرون.. ثم إن مسألة كي اللابس وطيها.. هذه مهمة بسيطة. وأستطيع القيام بها في أوقات الفراغ؟!

حليمة : أبادر فأخبرك أن أجرتك عشرون درهما في اليوم الواحد...ألفان من الفرنكات.. نحن أناس أسخياء.. كرماء

إلهام : وممتازون رائعون. وتتمتعون بنزوعات إنسانية لا مثيل لها.. عشرون درهما أجرة ليوم واحد..؟ شيء من وراء العقول.. هذه أجرة لم يحلم بها خادم أو خادمة في هذا الزمن. وفي هذا البلد الكريم المضياف

حليمة : نعم عشرون درهما في اليوم.. نحن لا نؤمن بأجرة الخمس دراهم في اليوم.. لا. لا. ماهذا ماهذا...؟ هذا هو الغبن الذي ما بعده غبن. الخادمة مخلوق بشري يجب أن تحترم. وتصان كرامتها.. وتحفظ لها إنسانيتها. وحفظ الكرامة جزء من حفظ الأجور.. وفي أقصى ما يمليه الحد الأدنى.. نحن أناس

إلهام : واعون... ومثقفون متنورون...

حليمة : ستون ألف فرنك في الشهر الواحد.. هذا المبلغ الضخم كله مقابل لشهر واحد من العمل السهل البسيط

إلهام : الصراحة أنني لم أكن أحلم بهذا الأجر السخي.. التؤادي.. أنتم أناس لا مثيل ولا شبيه لنبلكم وطيبوبتكم وإنصافكم

حليمة : ولكننا وللتنبيه فقط، أخبرك.. أننا في مقابل أجرتنا السخية والمنصفة الغير مجحفة.. نغرم خادماتنا فيما يفسدن. أو يكسرن أو يتلفن

إلهام : وطبعا المسألة لا تتعلق لا بالبخل. ولا باللؤم.. وإنما هي مسألة مبدأ.. ولكل ذي حق حقه.. وفي هذه الحالة تكون الخادمة ملزمة بأخذ الحيطة والانتباه..

حليمة : تماما.. ثم أن المحاسبة تطيل العشرة.. وقديما قال المغاربة «حبني محبة أخيك وحاسبني محاسبة عدوك».

إلهام : صحيح.. وجهة نظر سليمة.. قولي لي يا سيدتي للا

حليمة : ماذا...؟

إلهام : ألديك مغازل...

حليمة : مغازل...؟

إلهام : لغزل الصوف.. للنسيج اليدوي.. الثنائي.. والأحادي

حليمة : طبعا لدينا.. ولكن لماذا...؟!

إلهام : يسعدني أن أنهي إلى علمك أنني غزالة. نساجة ماهرة.. وأتقن الغزل.. بالقضبان. فنانة في جميع فنون الغزل

حليمة :وما الفائدة من ذلك.. بالنسبة لنا...؟!

إلهام : أستطيع أن أتطوع بغزل صدريات أو «التريكويات» للأطفال من النوع الممتاز الفريد.. وطبعا أقوم بهذا العمل التطوعي التؤدي في فترات الاستراحة.. أوقات الفراغ.. عندما تنوب ألتكم عن أعمالي اليدوية.. أشتغل أنا بالنسيج. وقديما قيل : حديث ومغزل.. وإذا كانت عندكم ماكينة خياطة.. فأنا خياطة

ماهرة.. أنا بكل بساطة من حملة الشواهد.. وأتمتع بذوق لطيف ظريف تؤدي وأعرف كيف أصرف أوقات فراغي في إنجاز الأعمال المفيدة النافعة

حليمة : أنت أيضا تحسنين الغزل..

إلهام : نعم

حليمة : شيء مدهش.. شيء خطير

إلهام : غزل الصوف.. أحسن غزل الصوف فقط يا سيدتي للا...

حليمة : وقلت أيضا أنك تحذقين الخياطة

إلهام : وأشياء أخرى كثيرة لاحد لها. ولا حصر.. أنا يا سيدتي للا باختصار وبكل تواضع بلسم يشفي كل الأمراض.. واعتبارا لأنني سأكون مضطرة للنوم مبكرا.. على الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. ولهذا فالغزل قد يساعدني على استجلاب النوم.. من طبيعتي أن أشغل يدي.. ولا تتعجبي إذا رأيتني نائمة ويدي تشتغلان.. الشغل عادتي.. ومتعتي وهوايتي

حليمة : «مرتاحة» نعم فهمت

إلهام : وأنا أيضا يسعدني أن أنهي إلى علمك أنني فهمت.. إلى اللقاء مدام سيدتي للا «وتعمدت دائما لفظ للا بصيغة تضمر سخرية مريرة» وبلغي سيدي عزيزي أجمل تحياتي المتوؤدة

حليمة : سيدك عزيزك

إلهام : زوجك الذي تقولين عنه : إن جوعه حراق.. ذئبي.. ويجب أن يتغذى في الوقت المحدد. وإلا أقام الدنيا وأقعدها.. سيدتي للا قولي لسيدي عزيزي وداعا وإلى غير لقاء..

حليمة : لماذا..؟ ولكن ماذا حدث.. كنا على وشك الاتفاق

إلهام : فكرت ياسيدتي للا.. ولا أريد أن أعمل.. وأفضل البطالة..

أفضل البطالة.. أفضل التسكع.. والصعلكة.. أفهمت لماذا..؟
«تخرج»

المشهد السادس

حليمة... ثم منصورة

حليمة : آه.. من خادمات هذا الزمن.. كلهن من طينة واحدة.. هن هن مهما اختلفت. ألوانهن. وأشكالهن وأعمارهن.. وأحجامهن.. يا عباد الله من رأى منك خادمة مثالية.. طائعة ممتثلة. خدومة صبورة.. راضية قنوعة فليخبرني بوجودها. لأهب لزيارتها. والاستبراك بها... إذن منصورة خادمتنا تشخص المثل للخادمة المثالية في هذا الزمن السيئ.. نحن الآن في عهد طغيان الخادمات.. وجبروت الخادمات.. ومؤامرات الخادمات واستبداد الخادمات باسم الحقوق والمساواة. والتقدم والمعاصرة، والانسانية، وسرقة رجال وأزواج السيدات المحترمات السرقة بالكيد والدس والسحر والتآمر مع الشيطان على ذوي نعمتهن نحن في عهد تطاول الخادمات «تدخل منصورة» آه.. منصورة تعالي يا منصورة.. اخبرك أنه ليس بوسعنا أن نعطيك رخصة أو عطلة لان السيدة النائبة الخادمة التي كان من المفروض أن تحل محلك.. رفضت.. ولكن.. ماذا أرى.. لماذا ترتدين جلبابك...؟ منصورة...؟ حذار أن تسمعي كلام الشعوذة.. والتهريج. والتضليل.. منصورة

منصورة : أنني قررت أن أغادر هذا البيت.. ولن أعد للاشتغال معكم.. أنتم أناس طيبون ياسيدتي.. ولن أعود للاشتغال معكم.. سآخذ عطلتي

حليمة : ولكن الخادمة الجديدة رفضت أن تقوم بالنيابة عنك خلال مدة عطلتك

منصورة : هي حرة... وأنا أيضا حرة

حليمة : منذ متى..؟!

منصورة : ابتداء من تاريخ اليوم.. تحررت

حليمة : ومن سينوب عنك في بيتنا

منصورة : تلك مشكلتكم أنتم

حليمة : وإلى أين تذهبين.. حذار من المسك بالفارغ. والزهد في الممتلئ...!! «ترجع إلهام»

المشهد السابع

حليمة... منصورة... إلهام

حليمة : حذار من كلام المحرضين.. المضللين.. الغاضبين بالمجان.. هل وجدت عملا في بيت آخر..؟!

إلهام : نعم وجدت العمل في بيتي أنا.. وبيتي خال من كل الآلات المعاصرة والناس الطيبين المتحضرين المعاصرين الممتازين.. خيرة الناس الناس اللطاف الظراف. الذوقية المتوأدين.. منصورة

منصورة : نعم الشعيبية

إلهام : ماذا تنتظرين.. هيا بنا.. هيا بنا.. هيا بنا...

منصورة : أنا في أثرك

حليمة : وأين تشتغلين يا منصورة

إلهام : معي أنا إلهام عواطف فردوس عبد القدوس جمال الشعيبية... نعم معي ستشتغل منصورة. وستعرف طعم الراحة. وطعم العطلة وطعم السفر.. وطعم الكرامة

حليمة : البطالة باب التسكع.. والتسكع مغبة خطيرة... منصورة.. منصورة

منصورة : نعم.. نعم..

حليمة : الصعلكة آفة عواقبها وخيمة.. انتبهي، ولا تندفعي مع هذه الحمقاء.. الخرقاء

إلهام : راقبي لسانك حتى لا يزل يا سيدتي للا... وتذكري من يرمي الناس بالحمق هو الأحمق... الأهوج، والغير المتحضر بعمق.. منصورة...

منصورة : نعم الشعيبية

إلهام : قولي لسيدتك للاك بالصوت العالي : إني أفضل البطالة على العمل مع أناس طيبين.. من هذه العينة.. هذه الفصيلة.. هذا النموذج.

منصورة : إنني أفضل البطالة.. أفضل البطالة.. أفضل الصعلكة.. ببراءة واستقامة

إلهام : بذوق، وهدوء، ولطف، وظرف، وتؤدة.. أديو مدام

منصورة : أديو مدام آديو للا...

ستار النهاية

أنهيت كتابة هذه المسرحية في : بونشارا.. قرب مدينة كرونوبل بفرنسا يوم 16 غشت من سنة 1964.. وانتهيت من تحويلها إلى هذه الفصحى التي تشبه العامية في : 23 مارس 1976 بمدينة فاس.

قصة
الرأس والوسادة

مبارك ربيع(*)

استمرأ أن يبقى في الفراش، بل على الفراش بتعبير أدق؛ يداه مخلفتان تحت رأسه على الوسادة، وجسمه ببذلة النوم خارج الغطاء، فوق الغطاء؛ استمرأ لسعة البرد القارس على القدمين العاريتين. لهيب المدفأة خبا منذ منتصف الليل كعادته. والدفء استهلكته الشقة والأثاث وتكدس الأنفاس. الشمعة وحدها تبدو منتصبة نظيفة تجمد الدمع عند منتصفها.

إطار المدفأة والآجر المرصوص في حافة واجهتها يشكلان هرماً مسطحاً.. طاف بنظرة كسلى على كل شيء حوله، صورته و«أنًا» تتوسط المشهد.. رائعة في ابتسامتها، يجللها البياض.. لم يكن ثوب عرس مكتمل، لكن التاج والاكليل الحريريين المطرزين كانا حقيقيين، وكانت فرحته حقيقية لابحبه فحسب، «فأنًا» كانت حقا حبا، لكن بهجته العميقة كانت لما هو أكثر... فقد آن للفارس أن يترجل أخيرا، في مرحلة لا يهمه أن تكون طويلة.. ربما يجب أن تكون طويلة في سبيل المبدإ.. وعلى الطريق؛ إنه التاريخ وليس

(*) أستاذ جامعي وروائي.

النزوة أو الطفرة. ويكفي أن يكون الفارس جاهزا في اللحظة المناسبة، شاهرا... شاحذا... سيفه معرضا صدره ورقبته للخطر من أجل اللحظة المنتظرة.. لحظة صناعة التاريخ، لحظة الولادة..

صورة ثانية لأنًّا، وحدها في إطار صغير عليه رسومات شرقية، كان هديته إليها في إحدى المناسبات... قال لها إن صورته الأولى في الوطن، عندما كان وهو في الاعدادي، كانت ضمن إطار مشابه.. ضحكتها ما تزال.. ولم تعد... كانت تملأ الاطار وتفيض عليه إشراقا، ممتلئة عافية وشفافية. تنضح بالعفوية وصفاء العقل والوجدان.. تعود أن يقرأها من كل الأبعاد والاتجاهات. فلا تكشف إلا مزيدا من الاغراء.. ضحكة ظلت تملأ عليه الخيال والواقع. قال مرة صادقا إنه لن يتخيل ضحكة وإشراقا مثلها؛ قبلت « أنًّا » ذلك وأضافت أن المصور يحتاج إلى جائزة.. لم يترك لها الفرصة لمثل هذه الفكرة. الجائزة تستحقها صاحبة الصورة. أنت يا « أنًّا »، أنت - بعد الخالق الرزاق - التي صنعت هذا الإشراق الكوني وأبدعته؛ ويستحقها هذا البلد، هذا الوطن الذي أبدعك... أتعتقدين أن مثل هذا الاشراق وهذه الضحكة توجد في كل البلاد! آه. يا من أبدعتم هذا الوطن الغالي... الكوني! لم تكن لتهدئ من حماسته، فهي لا يمكن أن تقل عنه... وكان مدفوعا باقتناعه بمبادئه التي نذر لها كل ذرة في كيانه؛ واليوم الكوني العادل لابد آت.. في سبيل ذلك كان يرفع بصره نحو البنايات الشامخة ويشير إلى الجسور، والطائرات، وما نشتات الصحف، ونظافة الشوارع؛ كالطفل الغرير المبتهج مؤكدا لأنًّا.. كونها لا تعرف أو لا تدرك ما في بلدها الكوني من معجزات، ويقول إن عليهما.. هو وأنًّا أن يتذوقا هذه

الحياة حتى يعرفا بحق ماذا يمكن أن يتحقق يوما في ذلك المشرق الذي ينتمي إليه، وفي العالم كله.. كان يقمع تذمرها الحقيقي من الصفوف الطويلة أحيانا على بعض مواد التغذية.. كان يستنكر منها ذلك ولا يفهمه.. وكان يتطوع بكل ابتهاج وفخر ليقضي ما يجب من وقت في الصف.. ثم يعود ظافرا يقفز طربا.. إنها تجربة تاريخية يا «أنّا» وعلينا أن نساعد التاريخ من داخلنا في أحاسيسنا.. ويقمع غشاوة التذمر الخفيفة على محياها، يقبلها ويتساءل بينه وبين نفسه: لم يكتب عليه وأمه الشقاء، بينما آخرون ينعمون؟ دائما كان يغار حتى في وطنه من هذا الشعور بالحزن كلما أحس أمام مشهد أو شخص أنه يمتاز أو يتمتع بشيء. لماذا يسبقنا الغير دائما فيما هو مفيد؟

تشتد وخزات البرد على قدميه : يحس بالتجمد في رؤوس الأصابع، لكنه يكسل عن كل حركة للدخول في الغطاء.. يرنو إلى ما تبقى من شمعة الليل المحترقة ويجر بصره الى الاطار الصغير.. ضحكة أنا وعافيتها.. عندما زارتها والدتها بعد الاقتران بشهور قليلة غابت تجاعيدها القروية وهي تحتضن ابنتها وتنظر إلى كيانها المتسق المكتنز مؤكدة، أنت بخير بخير.. لم يفتر ثغرها عن ابتسامة ظاهرة أو ضحكة، لكن لهجتها واختفاء التجاعيد المؤقت دل على عظيم بهجتها بصحة «أنا» وعافيتها... وعند ذلك جلسوا حول «بطاطا الفرن»، الصحن التقليدي الذي تجيده المرأة القروية. ودبت فيه حرارة شراب القرية الريفي الذي جاءت به والدة «أنا» مع هدايا ريفية أخرى.. قالت لابنتها بصراحة : إنها تغبطها، فالمرأة حسب خبرتها وعندهم في الريف، لا تكتنز عافية إلا في

الترهل أو الترمل.. كان حياؤه الشرقي قد فارقه، وشجعته حرارة القرية الريفية فامتد نحو «أنا» يقبلها ويقول : إنه الحب يا رفيقة الحب!

تذكر أمه في وطن الأحزان : لا يستطيع المقارنة فعلا.. أمه كيان حنان يتحرك؛ لا يبدو عليها أنها ستعرف الاكتناز أبدا.. حنان يتحرك بحزن عميق، لكنها عندما تضحك؛ تبتسم وتبدو واضحة على ملامحها عودتها إلى الحزن... لا مقارنة.. أمه هناك خارج كل تجربة.. أما هذه المرأة فهي في جوف التجربة، حتى وإن لم تعرف ذلك أو تقدره حق قدره.. أمه هناك يبدو عليها أنها غير راضية عن قدرها، لكنها تقبله وقد تبتهج به... هنا الأمر غير واضح.. لكن لا يهم، التاريخ يصنعه الناس ويصنعهم.

عندما خطا خطوته الأولى هنا، أحس بأنه أخيرا قد وجد الهواء الذي يناسب رئتيه؛ أحس ببرودته تحرق خياشمه وحلقومه؛ توقظ مواته... تلهب يأسه ليزهو بالأمل الناصع نصاعة كثبان الثلج المترامية؛ الدافئ دفء البخار المترامي من أفواه المتحدثين في جو لاسع مثلج... كان يعشق المشهد.. وما يلبث أن يقفز كالطفل راميا قلنوسته الثخنية في الفضاء، فاتحا طوق صدره للهواء... وتجري «أنا» خلفه.. تدثره وتلف حوله الشال.. بهلع معقول، ويؤدي ثمن الحماقة، زكاما كونيا يحمل معه إلى المستشفى العمومي حملا، وعلى الرغم منه...

مرة أخرى.. وأخرى.. وأخرى يجد فرصة للتمتع والحديث عن التجربة التاريخية التي تهتم بصحة فرد أجنبي غير منتج ومشرد..

وعندما تهون «أنا» من الأمر، يحكي لها صورا لا منطقية عن المرض والعلاج في وطنه، فعلى كبرها المبكر، أمه لا تكاد تعرف الطبيب.. ويذكر صورا ملتبسة في الذاكرة منذ صغره عن هذه الأنثى التي تتحرك تكاد تحبو.. يسراها ممسكة ببطنها الذي انثنى عليه كل كيانها، ويمناها تدعم بها الأرض حتى تتحرك... تتحرك نحو المجمر.. تحمي أجرة أو حجرا صما، حتى إذا بلغ الغاية لفته في خرقة، ودفعت به تحت بطنها أو تكتها، تصدر عنها آهات دفينة وهي تتحرك ببطء عائدة إلى حيث تتمدد لحظة متأوهة في انكتام... حتى تهمد في شكل غيبوبة.. وإلى الآن لم يستطع أن يعرف نوع علة الألم أو مرضها الذي تشكو منه.. كان صغيرا يقف يتأمل حركاتها وهي تتلوى.. مشيرة إليه ألا يخاف.. ألا يخاف عليها.. أن يبتعد.. فلا يملك إلا أن يختفي ويظل يراقبها في هلع... وحين تصحو من غفوة الألم أو غيبوبته - وكانت دائما تصحو من ذاتها - تتحرك لما يجب أن تقوم به متكورة على بطنها، ماسحة على رأسه دون كلام.. وكان في شبابه يذكر أمامها الطبيب، فلا تزيد على أن تقول : الطبيب هو الله يا ولدي..

آه... أين ذلك من أم «أنّا»؛ من أنا أم أيوب ذاتها؟! أيوب أيها الجرح العميق الذي لا يندمل.. ماذا ينتظر براءتك وانفتاح ذراعيك الغضين وأنت تنطلق كالريح - كما تقول «أنا» - للارتماء في أحضان ماما أو بابا؟ تعجب «أنا» وهو يشرح مغزى اسم أيوب الذي يريد أن يطلقه على الجنين إذا كان وليدا ذكرا؛ قال لها إن أيوب تعني الصبر.. وعلى الوليد أن يصبر كما صبر أبوه، حتى يتحقق الحلم

البكر في نصاعة الثلج ونقائه.. قال لها إنه هو بالذات أيوب، أما ابنهما فسيكون ابن أيوب في واقع الأمر!

وتضع.. «أنا» يدها على صدغيها، تحمي سمعها من هذه «الخربقة».. فيقول: يا حبيبتي؛ أيوب لفظ عالمي يكتب وينطق صحيحا في جميع اللغات! حينئذ تقبل.

أيوب، ياضحكة الغر والبراءة.. ماذا ينتظر شبق طفولتك البريء؟! الصبر نفسه يتصدع من هول ما يقع.

الخطوات الأولى، على أرض الثلج، أحيت فيه شعورا بانسانيته، يحيا داخله من جديد؛ وأفكاره تستنبت كأرض يغسلها وابل إمطار بعد أن شققها الجدب والجفاف...

كانت «أنا» مرافقته وأستاذته في اللغة، وكانت حميته وحماسته تحرقان به المراحل، لا يلتفت إلى شيء ولا يلوي على شيء.. حتى تسوية وضعيته ومراجعة المصالح الادارية على ضرورتها، كان يؤجلها في سبيل أن يتعلم ويعرف ويحادث ويلاقي ويسأل.. إنه يريد أن يعرف سر تقدم البلد.. وصورة تخلف الوطن لا تفارقه...

هكذا كان شعلة حماسة وقّادة.. غافلة عن كل شيء غير الهدف.. وأنًا بجانبه تعلم وتجيب، وكان حريصا على أن يروي لها بكل تفصيل، بكل تدقيق، كل ما يمر به في يومه ومن يحادثهم من

رفاقه، وما يجول في ذهنه وأذهانهم؛ وعندما كانت تظهر التبرم بما تسمع، يتطوع بأن يؤكد لها أنها يجب أن تكون في خدمة وطنها، وأنه لا يمكن إلا أن يكون مثلها في خدمته مادام يستضيفه.

كان يعتقد بأن سلامة هذا البلد تمثل سلامة الكون والمستقبل، ومن ثم لا عليه أن يثقل عليها في سرد تفاصيل مجريات يومه... ومن يدري فقد تسأل في شيء عن رفيقها... وعليها أن تكون على علم! «أنا» كانت جزءا مما يجب أن يعرف، ولم ينتبه إلى أنها شيء آخر، إلا ذات يوم وهما يخطوان في حديقة المحبين بجوار الأحرف البارزة لاسم الشاعر الكبير، وقرب تمثاله البرونزي الواطيء، كان يقرأ عليها مسودة مقالته حول «أرضية الصراع في الشرق الأوسط» لتصحح لغته، حين انثنى بها كعب الحذاء أو تعثرت القدم، فانحرفت فجأة، تلقاها ولم يكن مستعدا فانكفآ معا.. برهة احتضان عفوية كانت كافية ليعرف تمام مابقي مما حوله.. وقالت له فيما بعد الزواج، إنها لم تكن تملك طريقة أخرى لإيقاظه!

«أنَّا» القلب وأم أيوب... كيف يتصدع الكون في الرأس، وتحت الأقدام وتبقى الذكرى وحدها ماثلة والزمن القريب زمن الحلم الأبيض الناصع؟! ماذا يقول لأمه.. تلك التي تحمل أوجاعها هناك منضوية على آجرة محمية أو حجر صلد؟ لماذا ترك أحلامها البسيطة وأشفق على سذاجتها، ووعدها بينه وبين نفسه بأن يدخل عليها الفرحة، عندما يجعل لها بجوار كل بيت طبيبا، ماذا يقول لها عن مستقبل حفيدها أيوب الذي لم تعرف منه إلا الاسم ولن تعرف؟

كيف يتصدع الكون في الرأس وتحت الأقدام، وأنت أنت، أنا أم أيوب، التي كنت تتبرمين بتفاصيل يومياته، وهو يتطوع بسردها في إخلاص تلميذ.. تتابعين حلقومه اليوم، لاستخراج الكلمات.. تعدين ذرات البخار من تنفسه ولهاثه...

لماذا تزداد نبضات القلب أو تنتقص أو تثبت...؟ تدققين قراءة الحروف مبنى ومعنى عمن وما وراءها.. تتنكرين لكل لقاء مرتقب أو متخيل مع رفيق؟ أنت أنت أم أيوب! كيف يتصدع كل شيء حولنا ولا تزيدين على أن ترفعي قدمك بنصف خطوة متئدة إلى الضفة الأخرى بكامل اليسر والسهولة.. ويصبح صمت أبي أيوب إدانة، وجهره تهمة، وسؤاله مؤامرة، وخطوه على الرصيف والجسر والفضاء... وكل ما كان يزهو به التاريخ.. خطرا مجروسا؟ كيف تصبح بلاغته المثيرة للاعجاب هذرا سخيفا؟ وأين أين غاص القراء والرفاق، وأيوب يا أم أيوب؟

انتفض قاعدا في الفراش، أطرافه تثلجت، مد يده يحك أطراف قدميه العاريتين، ثم قام دون أن يعبأ بوضع رجليه في الخف الليفي.. سحب ستار النافذة الشفاف ليسمح لأقصى نور بالتدفق إلى الغرفة، قصد المرآة، دقق النظر في شعر ذقنه النابت خالطه البياض، لم يكن راغبا في الحلاقة، لكنه بفعل العادة مد يده نحو الحنفية ثم توقف.. لا ماء... لا نور.. لا حب.. لا كون.. لا أيوب.. آه يا أيوب...

رنا إلى ساعته، وأسرع يرتدي لباسه.. يمكنه أن يمر على المدرسة ليرى أيوب.. يودعه بقبلة أخيرة. إنها مغامرة لا تخيفه.. مهما يكن فهو أبو أيوب، ومن حقه أن يراه للمرة الأخيرة على الأقل...

أسرع ينزل الدرجات، ملفوفا بجاكتة ثقيلة لم يعبأ بتزريرها.. وعندما لفحه هواء البرد توقف: لماذا يكلف أيوب الصغير لحظة حرجة مريرة تحفر في ضميره الهش ذكرى أليمة؟

بلع ريقه مرات.. بلع حسرة أيوب مع سائر الحسرات ورنت في سمعه فقط مكالمة الأسبوع.. بصوت كصوت «أنا» أو صوت أم أيوب، وبقلب آخر... آخر... يقول: الجواز في المطار...

*****

المساواة بين المرأة والرجل في القرآن

قال الله تعالى في سورة البقرة آية 228 **﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمعْرُوف، وللرِّجَال عليْهنَّ درجةٌ، والله عزيز حكيم﴾**

قال ابن القيم في «اعلام الموقعين» ـ ج ا ص 335/334 ـ :

و«دخل في قوله : {**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**} جميع الحقوق التي للمرأة وعليها، وأن مرد ذلك إلى ما يتعارفه الناس بينهم ويجعلونه معروفا لا منكرا، والقرآن والسنة كفيلان بهذا أتم كفالة».

وقال الشوكاني في «فتح القدير» ـ ج 1، ص 236 ـ : «أي لهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن، فيحسن عشرتها بما هو معروف عادة للناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه لأزواجهن من طاعة وتزين وتحبب ونحو ذلك».

وقال محمد رشيد رضا في «تفسير المنار» ـ م 2، ص 380/375

﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ هذه كلمة جليلة جدا جمعت على إيجازها مالا يؤدى بالتفصيل إلا في سفر كامل، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق إلا أمرا

واحدا عبر عنه بقوله : {**وللرجال عليهن درجة**} وسيأتي بيانه، وقد أحال في معرفة مالهن وما عليهن على المعروف بين الناس في معاشراتهم ومعاملاتهم في أهليهم، وما يجري عليه عرف الناس، هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم، فهذه الجملة تعطي الرجل ميزانا يزن به معاملته لزوجه في جميع الشؤون والأحوال، فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه، ولهذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : إنني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي لهذه الآية، وليس المراد المثل بالمثل بأعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة وأنهما أكفاء، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها، إن لم يكن مثله في شخصه، فهو مثله في جنسه، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال، كما أنهما بشر تام له عقل يفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ملا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر، ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه في مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية، والدخول في الحياةالمشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه.

قال الأستاذ الامام قدس الله روحه : هذه الدرجة التي رفع النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق، ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الاسلام ولا بعده، وهذه الأمم الأروبية التي كان من آثار تقدمها في الحضارة والمدنية أن بالغت في تكريم النساء واحترامهن، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن العلوم والفنون، لا تزال دون هذه الدرجة التي رفع الاسلام النساء إليها،

ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون إذن زوجها، وغير ذلك من الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الاسلامية من نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف، وقد كانت النساء في أوربا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء في كل شيء، كما كن في عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالا، ونحن لا نقول إن الدين المسيحي أمرهم بذلك لأننا نعتقد أن تعليم المسيح لم يخلص إليهم كاملا سالما من الاضافات والبدع، ومن المعروف أن ما كانوا عليه من الدين لم يرق بالمرأة، وإنما كان ارتقاؤها من أثر المدنية الجديدة في القرن الماضي.

وقد صار هؤلاء الافرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا في إعلاء شأن النساء يفخرون علينا بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء، ويزعم الجاهلون منهم بالاسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا. ذكر الأستاذ الامام في الدرس أن أحد السائحين من الافرنج زاره في الأزهر وبينما هما ماران في المسجد رأى الافرنجي بنتا مارة فيه، فبهت وقال : ماهذا؟ أنثى تدخل الجامع، فقال له الامام : وما وجه الغرابة في ذلك؟، قال : إننا نعتقد أن الاسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح، وليس عليهن عبادة، فبين له غلطه، وفسر له بعض الآيات فيهن، قال : فانظروا كيف صرنا حجة في ديننا؟ وإلى جهل هؤلاء الناس بالاسلام حتى مثل هذا الرجل الذي هو رئيس لجمعية كبيرة فما بالكم بعامتهم؟.

إذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل مالهم عليهن إلا ما ميزهم به من الرياسة، فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة

الرياسة أن يعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن، ويجعل لهن في النفوس احتراما يعين على القيام بحقوقهن ويسهل طريقه، فإن الانسان بحكم الطبع يحترم من يراه مؤدبا، عالما بما يجب عليه عاملا به، ولا يسهل عليه أن يمتهنه أو يهينه، وإن بدرت منه بادرة في حقه رجع على نفسه باللائمة، فكان ذلك زاجرا له عن مثلها.

خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال، وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهن، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة، وبايع النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنات كما بايع المؤمنين، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن في الدنيا والآخرة، أفيجوز بعد هذا كله أن يحرمن من العلم بما عليهن من الواجبات والحقوق لربهن، ولبعولتهن، ولأولادهن، ولذي القربى، وللأئمة والملة؟، العلم الاجمالي بما يطلب فعله شرط في توجه النفس إليه اذ يستحيل أن تتوجه إلى المجهول المطلق، والعلم التفصيلي به المبين لفائدة فعله ومضرة تركه يعد سببا للعناية بفعله، والتوقي من إهماله، فكيف يمكن للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بهما إجمالا وتفصيلا؟، وكيف تعد في الدنيا والآخرة أمة نصفها كالبهائم لا يؤدي ما يجب عليه لربه ولا لنفسه، ولا لأهله، ولا للناس، والنصف الآخر قريب من ذلك، لأنه لا يؤدي إلا قليلا مما يجب عليه من ذلك ويترك الباقي، ومنه إعانة ذلك

النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه من علم وعمل، أو إلزامه إياه بما له عليه من السلطة والرياسة.

إن ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود، ولكن ما يطلبه منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات - إن كانت في بيت غنى ونعمة - يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال، ألا ترى الفقهاء يوجبون على الرجل النفقة والسكنى والخدمة اللائقة بحال المرأة؟ ألا ترى أن فروض الكفايات قد اتسعت دائرتها؟ فبعد أن كان اتخاذ السيوف والرماح والقسي كافيا في الدفاع عن الحوزة صار هذا الدفاع متوقفا على المدافع والبنادق والبوارج، وعلى علوم كثيرة صارت واجبة اليوم ولم تكن واجبة ولا موجودة بالأمس، ألم تر أن تمريض المرضى ، ومداواة الجرحى كان يسيرا على النساء في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء رضي الله تعالى عنهم، وقد صار الآن متوقفا على تعلم فنون متعددة وتربية خاصة، أي الأمرين أفضل في نظر الاسلام؟ أتمريض المرأة لزوجها إذا هو مرض، أم اتخاذ ممرضة أجنبية تطلع على عورته وتكتشف مخبآت بيته؟، وهل يتيسر للمرأة أن تمرض زوجها أو ولدها إذا كانت جاهلة بقانون الصحة وبأسماء الأدوية؟، نعم قد يتيسر لكثيرات من الجاهلات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الأدوية السامة أو بجعل دواء مكان آخر.

روى ابن المنذر والحاكم وصححه، وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في تفسير قوله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا**

قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم، والمراد بالأهل النساء والأولاد ذكورا وإناثا، وزاد بعضهم هنا العبد والأمة، وهو من : أهل المكان أهُولا عمر، وأهل الرجل وتأهل تزوج. وأهل الرجل زوجه وأهل بيته الذين يسكنون معه فيه، والأصل فيه القرابة، وجمع الأهل أهلون، وربما قيل الأهالي (المصباح)، وإذا كان الرجل يقي نفسه وأهله نار الآخرة بتعليمهم وتأديبهم، فهو كذلك يقيهم بذلك نار الدنيا، وهي المعيشة المنغصة بالشقاء وعدم النظام.

والآية تدل على اعتبار العرف في حقوق كل من الزوجين على الآخر ما لم يحل العرف حراما، أو يحرم حلالا مما عرف بالنص، والعرف يختلف باختلاف الناس والأزمنة، ولكن أكثر فقهاء المذاهب المعروفة يقولون إن حق الرجل على المرأة أن لا تمنعه من نفسها بغير عذر شرعي، وحقها عليه النفقة والسكنى... إلخ، وقالوا لا يلزمها عجن ولا خبز ولا طبخ ولا غير ذلك من مصالح بيته أو ماله وملكه، والأقرب إلى هداية الآية ما قاله بعض المحدثين الحنابلة، قال في حاشية المقنع بعد ذكر القول بأنه لا يجب عليها ما ذكر، وقال أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني : عليها ذلك، واحتجا بقضية علي وفاطمة رضي الله عنهما، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قضى على ابنته بخدمة البيت، وعلى علي ما كان خارجا من البيت من عمل. رواه الجوزجاني من طرق، قال : وقد قال عليه السلام : «**لو كنت آمر أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولو أن رجلا أمر امرأته أن تنتقل من جبل أسود إلى جبل أحمر أو من جبل أحمر إلى جبل أسود لكان نولها (أي حقها) أن**

تفعل ذلك». ورواه بإسناده قال: فهذا طاعة فيما لا منفعة فيه فكيف بمؤنة معاشه؟.

وقال الشيخ تقي الدين: يجب عليها المعروف من مثلها لمثله، قال في «الانصاف» والصواب أن يرجع في ذلك إلى عرف بلده.

وما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم بين بنته وربيبه وصهره (عليهما السلام) هو ما تقضي به فطرة الله تعالى، وهو توزيع الأعمال بين الزوجين: على المرأة تدبير المنزل والقيام بالأعمال فيه، وعلى الرجل السعي والكسب خارجه، وهذا هو المماثلة بين الزوجين في الجملة، وهو لا ينافي استعانة كل منهما بالآخر في عمله أحيانا اذا كانت هناك ضرورة، وانما ذلك هو الأصل والتقسيم الفطري الذي تقوم به مصلحة الناس، وهم لا يستغنون في ذلك ولا في غيره عن التعاون: **﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾**، وسورة المائدة: 2 - **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله﴾**.

وما قاله الشيخ تقي الدين وما بينه به في «الانصاف» من الرجوع إلى العرف لا يعدو ما في الآية قيد شعرة، واذا أردت أن تعرف مسافة البعد بين ما يعمل أكثر المسلمين وما يعتقدون من شريعتهم، فانظر في معاملتهم لنسائهم تجدهم يظلمونهن بقدر الاستطاعة لا يصد أحدهم عن ظلم امرأته الا العجز، ويحملونهن مالا يحملنه الا بالتكلف والجهد ويكثرون الشكوى من تقصيرهن، ولئن سألتهم عن اعتقادهم فيما يجب لهم، عليهن ليقولن كما يقول

أكثر فقهائهم : انه لا يجب لنا عليهن خدمة ولا طبخ ولا غسل، ولا كنس ولا فرش، ولا ارضاع طفل ولا تربية ولد، ولا اشراف على الخدم الذين نستأجرهم لذلك، إن يجب عليهن إلا المكث في البيت والتمكين من الاستمتاع، وهذان الأمران عدميان أي عدم الخروج من المنزل بغير إذن، وعدم المعارضة بالاستمتاع، فالمعنى أنه لا يجب عليهن للرجال عمل قط، ولا للأولاد مع وجود آبائهم أيضا، وأقول إن هذه مبالغة في اعفائهن من التكاليف الواجبة عليهن في حكم الشرع والعرف، يقابلها المبالغة في وضع التكاليف عليهن بالفعل ولكن الجاهلين بالمذاهب الفقهية يتهمون رجالها بهضم حقوق النساء وما هو إلا غلبة التقاليد والعادات مع عموم الجهل.

وقال محمد الطاهر بن عاشور في «تفسير التحرير والتنوير» ـ ج 2، ص 396/401 ـ :

وفي الآية احتباك، فالتقدير : ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن، فحذف من الأول لدلالة الآخر، وبالعكس، وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال وتشبيهه بما للرجال على النساء لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة، مسلمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاونا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتى جاء الاسلام فأقامها، وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية.

وتقديم الظرف للاهتمام بالخبر، لأنه من الاخبار التي لا يتوقعها السامعون، فقدم ليصغي السامعون إلى المسند إليه، بخلاف ما لو

آخر فقيل : «ومثل الذي عليهن بالمعروف»، وفي هذا اعلان لحقوق النساء، واصداع لها واشادة بذكرها، ومثل ذلك من شأنه أن يتلقى بالاستغراب، فلذلك كان محل الاهتمام.

ذلك أن حال المرأة إزاء الرجل في الجاهلية، كانت زوجة أم غيرها هي حالة كانت مختلطة بين مظهر كرامة، وتنافس عند الرغبة، ومظهر استخفاف، وقلة انصاف عند الغضب، فأما الأول فناشئ عما جبل عليه العربي من الميل إلى المرأة، وصدق المحبة، فكانت المرأة مطمح نظر الرجل، ومحل تنافسه، رغبة في الحصول عليها بوجه من وجوه المعاشرة المعروفة عندهم وكانت الزوجة مرموقة من الزوج بعين الاعتبار والكرامة، قال شاعرهم وهو مرة بن محكان السعدي :

يا ربة البيت قومي، غير صاغرة   ضمي إليك رحال القوم والقربا

فسماها «ربة البيت» وخاطبها خطاب المتلطف حين أمرها، فأعقب الأمر بقوله «غير صاغرة»، وأما الثاني فالرجل، مع ذلك، يرى الزوجة مجعولة لخدمته فكان إذا غاضبها أو ناشزته، ربما اشتد معها في خشونة المعاملة، وإذا تخالف رأياهما أرغمها على متابعته، بحق أو بدونه، وكان شأن العرب في هذين المظهرين متفاوتا بحسب تفاوتهم في الحضارة والبداوة، وتفاوت أفرادهم في الكياسة والجلافة، وتفاوت حال نسائهم في الاستسلام والإباء والشرف وخلافه، وروى البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال : «كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار اذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار، فصخبت

علي امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني قالت : ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ليراجعنه، وان احداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فراعني ذلك، وقلت : قد خابت من فعلت ذلك منهن، ثم جمعت عليَّ ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها : أي حفصة أتغاضب احداكن النبي اليوم حتى الليل؟، قالت : نعم، فقلت «قد خبت وخسرت» الحديث، وفي رواية عن ابن عباس عنه : «كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئا فلما جاء الاسلام، وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقا من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا»، ويتعين أن يكون هذا الكلام صدرا لما في الرواية الأخرى، وهو قوله : كنا معشر قريش نغلب النساء.. إلى آخره، فدل على أن أهل مكة كانوا أشد من أهل المدينة في معاملة النساء وأحسب أن سبب ذلك أن أهل المدينة كانوا في أزد اليمن، واليمن أقدم بلاد العرب حضارة، فكانت فيهم رقة زائدة «الحكمة يمانية»، وقد سمى عمر ابن الخطاب ذلك أدبا، فقال : فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار.

وكانوا في الجاهلية اذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ان شاء بعضهم تزوجها اذا حلت له، وان شاؤوا زوجوها بمن شاؤوا، وإن شاؤوا لم يزوجوها فبقيت بينهم، فهم أحق بذلك، فنزلت آية : **﴿ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾**، سورة النساء، آية 19.

وفي حديث الهجرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة مع أصحابه، آخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بين عبد

الرحمان بن عوف، وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض سعد بن الربيع على عبد الرحمان أن يناصفه ماله، وقال له : «انظر أي زوجتيَّ شئت أزل لك عنها»، فقال عبد الرحمان : «بارك الله لك في أهلك ومالك» الحديث.

فلما جاء الاسلام بالاصلاح، كان من جملة ما أصلحه من أحوال البشر كافة، ضبط حقوق الزوجين بوجه لم يبق معه مدخل للهضيمة، حتى الأشياء التي قد يخفى أمرها قد جعل لها التحكيم، قال تعالى : **﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما﴾**، وهذا لم يكن للشرائع عهد بمثله.

وأول اعلان هذا العدل بين الزوجين في الحقوق، كان بهاته الآية العظيمة، فكانت هذه الآية من أول ما أنزل في الاسلام.

والمثل أصله النظير والمشابه، كالشبه والمثل، وقد تقدم ذلك في قوله تعالى : **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا﴾**، ـ سورة البقرة، آية 17 ـ وقد يكون الشيء مثلا لشيء في جميع صفاته، وقد يكون مثلا له في بعض صفاته، وهي وجه الشبه، فقد يكون وجه المماثلة ظاهرا فلا يحتاج إلى بيانه، وقد يكون خفيا فيحتاج إلى بيانه، وقد ظهر هنا أنه لا يستقيم معنى بالمماثلة في سائر الأحوال والحقوق : أجناسا أو أنواعا أو أشخاصا لأن مقتضى الخلقة، ومقتضى المقصد من المرأة والرجل، ومقتضى الشريعة التخالف بين كثير من أحوال الرجال والنساء في نظام العمران والمعاشرة،

فلا جرم يعلم كل السامعين أن ليست المماثلة في كل الأحوال وتعين صرفها إلى معنى المماثلة في أنواع الحقوق على اجمال تبينه تفاصيل الشريعة. فلا يتوهم أنه إذا وجب على المرأة أن تقيم في بيت زوجها وأن تجهز طعامه، أنه يجب عليه مثل ذلك، كما لا يتوهم أنه كما يجب عليه الانفاق على امرأته أنه يجب على المرأة الانفاق على زوجها بل كما تقيم في بيته وتجهز طعامه يجب عليه هو أن يحرس البيت، وأن يحضر لها المعجنة والغربال، وكما تحضن ولده يجب عليه أن يكفيها مؤونة الارتزاق كي لا تهمل ولده، وأن يعهده بتعليمه وتأديبه، وكما لا تتزوج عليه بزوج في مدة عصمته، يجب عليه هو أن يعدل بينها وبين زوجة أخرى، حتى لا تحس بهضيمة فتكون بمنزلة من لم يتزوج عليها، وعلى هذا القياس، فاذا تأتت المماثلة الكاملة فتشرع، فعلى المرأة أن تحسن معاشرة زوجها، بدليل ما رتب على حكم النشوز، قال تعالى **﴿واللاتي تخافون نُشُوزَهُنَّ﴾**، وعلى الرجل مثل ذلك، قال تعالى : **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعروف﴾**، وعليها حفظ نفسها عن غيره ممن ليس بزوج، وعليه مثل ذلك عمن ليست بزوجة **﴿قُل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾**، ثم قال : **﴿وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾** الآية، **﴿والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم﴾** الا إذا كانت له زوجة أخرى فلذلك حكم آخر، يدخل تحت قوله تعالى : **﴿وللرجال عليهن درجة﴾**، والمماثلة في بعث الحكمين، والمماثلة في الرعاية، ففي الحديث الرجل راع على أهله، والمرأة راعية في بيت زوجها، والمماثلة في التشاور في ا لرضاع، قال تعالى : **﴿فإن أرادا فِصَالاً عن تراض منهما وتشاور﴾**، وقال : **﴿وأتَمِرُوا بينكُم بمعروف﴾**.

وتفاصيل هذه المماثلة، بالعين أو بالغاية، تؤخذ من تفاصيل أحكام الشريعة، ومرجعها إلى نفي الأضرار، وإلى حفظ مقاصد الشريعة من الأمة وقد أومأ إليها قوله تعالى «بالمعروف» أي لهن حق متلبسا بالمعروف، غير المنكر من مقتضى الفطرة والآداب والمصالح، ونفي الأضرار، ومتابعة الشرع، وكلها مجال أنظار المجتهدين، ولم أر في كتب فروع المذاهب تبويبا لأبواب تجمع حقوق الزوجين.

وفي سنن أبي داود، وسنن ابن ماجة، بابان أحدهما لحقوق الزوج على المرأة والآخر لحقوق الزوج على الرجل، باختصار كانوا في الجاهلية يعدون الرجل مولى المرأة، فهي ولية، كما يقولون، وكانوا لا يدخرونها تربية، واقامة وشفقة وأحيانا واختيار مصير، عند ارادة تزويجها، لما كانوا حريصين عليه من طلب الاكفاء، بيد أنهم كانوا مع ذلك، لا يرون لها حقا في مطالبة بميراث ولا بمشاركة في اختيار مصيرها، ولا بطلب مالها منهم، وقد أشار الله تعالى إلى بعض أحوالهم هذه في قوله : **﴿وما يُتلى عليكم في الكتب في يتامى النساء اللاتي لاَ تُؤتُونَهُنَّ ما كُتب لهن﴾** ـ سورة النساء آية 127 ـ وقال : **﴿فَلاَ تَعضُلُوهُنَّ أن ينكحنَ أزواجَهُنَّ﴾** ـ سورة البقرة آية 232 ـ فحدد الله لمعاملات النساء حدودا، وشرع لهن أحكاما، وقد أعلنتها على الاجمال هذه الآية العظيمة، ثم فصلتها الشريعة تفصيلا، ومن لطائف القرآن في التنبيه إلى هذا عطف المؤمنات على المؤمنين عند ذكر كثير من الأحكام أو الفضائل وعطف النساء على الرجال.

وقوله «**بالمعروف**» الباء للملابسة، والمراد به ما تعرفه العقول السالمة المجردة من الانحياز إلى الأهواء، أو العادات أوالتعاليم الضالة، وذلك هو الحسن، وهو ما جاء به الشرع نصا، أو قياسا، أو اقتضته المقاصد الشرعية، أو المصلحة العامة، التي ليس في الشرع ما يعارضها، والعرب تطلق المعروف على ما قابل المنكر. أي وللنساء من الحقوق مثل الذي عليهن ملابسا ذلك دائما للوجه غير المنكر شرعا، وعقلا، وتحت هذا تفاصيل كبيرة تؤخذ من الشريعة، وهي مجال لأنظار المجتهدين في مختلف العصور والأقطار، فقول من يرى أن البنت البكر يجبرها أبوها على النكاح قد سلبها حق المماثلة للابن، فدخل بذلك تحت الدرجة، وقول من منع جبرها، وقال لا تزوج الا برضاها قد أثبت لها حق المماثلة للذكر، وقول من منع المرأة من التبرع بما زاد على ثلثها إلا بإذن زوجها، قد سلبها حق المماثلة للرجل، وقول من جعل للمرأة حق الخيار من فراق زوجها اذا كانت به عاهة، قد جعل لها حق المماثلة، وقول من لم يجعل لها ذلك قد سلبها هذا الحق، وكل ينظر إلى أن ذلك من المعروف، ا و من المنكر، وهذا الشأن في كل ما أجمع عليه المسلمون من حقوق الصنفين، وما اختلفوا فيه من تسوية بين الرجل والمرأة، أو من تفرقة، كل ذلك منظور فيه إلى تحقيق قوله تعالى : ﴿**بالمعروف**﴾ قطعا أو ظنا، فكونوا من ذلك بمحل التيقظ، وخذوا بالمعنى دون التلفظ.

ودين الاسلام حري بالعناية باصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف النوع الانساني، والمربية الأولى، التي تفيض التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولا لم تمسها

وسائل الشر، وقلوبا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان، فإذا كانت تلك التربية خيرا، وصدقا وصوابا، وحقا، كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك الفطر السليمة، فهيأت لأمثالها من خواطر الخير منزلا رحبا ولم تغار لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبا.

ودين الاسلام دين تشريع ونظام، فلذلك جاء باصلاح حال المرأة ورفع من شأنها لتتهيأ الأمة الداخلة تحت حكم الاسلام إلى الارتقاء وسيادة العالم».

*****

المرأة شقيقة الرجل(*)

الاستاذ علال الفاسي

نظرتان في التاريخ مختلفتان في الحكم على المرأة تبلورت فيهما روح الديانات والفلسفات والحضارات البشرية قبل الاسلام.

الأولى، النظرة الغربية المستمدة من روح الديانة المسيحية ومن تكييفها لقصة بدء الخلق ودور المرأة في إخراج آدم من الجنة عن طريق الاغراء والغواية. وهذه هي النظرية التي جعلت المسيحيين والمعتمدين على الحضارات المسيحية في أوربا وأمريكا يرون في المرأة شيطانا خلق ليفسد على الانسان روحانيته وينزل به إلى أسفل سافلين. وكان لهذه النظرية أثرها العميق في تكوين مبدأ الخطيئة الأصلية الموروثة للانسان والمصاحبة له في كل زمان ومكان؛ والقاضية عليه بأن لا يرتفع الا عن طريق الآلام والزهد الدائمين، ولذلك فهو لا يفتأ يلعن المرأة التي كانت السبب المهم في تنغيص حياته في الوقت الذي ما ينفك يهواها ويستمتع بها ويطيعها.

وطبعي أن تصبح المرأة بهذا الاعتبار شيئا حقيرا ملعونا ليس ذا روح أو أنها تملك روحا خبيثة لا تقترب بحال من روح الرجل،

(*) من كتاب : «مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها»، ص 241، ط 2، ماي 1979.

ونتيجة لذلك فيجب أن تبقى المرأة بعيدة عن كل حق غير مطالبة بأي واجب؛ إلا أن تستغفر في كل حين من ذنبها وإساءتها للانسان.

وعلى هذا المنهاج بنيت الحضارات المسيحية؛ فليس للمرأة أن تنال مكانة الراهب في الدين؛ وحسبها أن تعينه وتخدمه اذا شاءت.

وليس لها أن تشارك في تسيير المجتمع أو في تدبير السياسة وغيرها من وسائل الحياة؛ وهي إن فعلت ذلك فإنما تتعرض للمساس بطبيعة الأشياء؛ وسيكون أثر عملها سوء. وهي متى تدخلت في شيء أفسدته؛ وإن أعياك أن تجد سبب عيب أو خصومة أو نقص ففتش عن المرأة.

تلك آراء الغربيين في المرأة؛ استنبطوها من عقيدتهم الدينية؛ وخوفهم المحيط بهم من الخطيئة الأصلية.

وطبيعي أن تسير النهضة الفكرية ضدا على هذه الآراء، وطبيعي أن يصل الناس بعقولهم وعلومهم إلى أن المرأة خلق كالرجل لا محل لأن يعامله الدين ولا المجتمع المبني عليه هذه المعاملة. وهكذا تجعل الثورات التي قامت في الغرب تحرير المرأة في مقدمة شعاراتها والغايات التي تعمل لها وان كانت العقلية الأوربية وذهنيتها لا ينقطعان عن العمل بمقتضى ما وقر في نفوسهم من قصة بدء الخلق ودور المرأة في تكون الخطيئة الأصلية للانسان.

أما النظرة الثانية فهي النظرة العربية والشرقية على العموم إلى المرأة. وهي نظرة مدنية لا صلة لها بالدين؛ وإنما تتصل بواقع التجربة العربية في أطوار الجاهلية. وما أدت إليه أحكام عنجهيتها الأخاذية؛ وهي تقضي بأن المرأة مخلوق ضعيف لا يقوى على حماية نفسه ولا على الوقاية من أدواء الجسم والخلق وهي بذلك محتاجة إلى عائل يعولها؛ وراع يرعاها؛ وهكذا تصبح ثقلا على أصحابها وكلا على أسرتها لا تنفع في كسب ولا تقوم بحراثة ولا تغني غناء الرجل في الحروب؛ وإنما هي انسان لابد منه للنسل؛ وبما أنه ضعيف فيجب أن يحترم الاحترام الكامل، ويكون محط وقاية الانساب من الاختلاط والأسرة من الانحلال.

فالمرأة في نظر العرب حرمة تنبغي العناية بها والدفاع عنها والقيام بشؤونها. ومتعة يتطلبها الرجل ويجد فيها هواه ومطلبه؛ ولكنها مع هذا وذاك أو بسببهما كل على الرجل؛ قد تمس عرضه وترميه بالعار إذا هي انحرفت عن المعتاد؛ وقد تصل الأسرة بمن لا يليق بها من الاصهار. وقد تؤدى بنداءات الحماية والثأر التي تصدر عنها إلى الحروب وموت الرجال؛ وتلزم الأب والعائل بالبحث عن أسباب الرزق للقيام بها وقد تؤدي به إلى الاملاق.

فالعرب لم يحتقروا المرأة ولم يحكموا عليها بخطيئة أصلية لأنهم لا يعرفونها بل هم برئوا منها على جاهليتهم. وإنما اوقعوا المرأة في جو اعتبرها مجرد متاع وحماية للعرض فقد أدى بهم الأمر إلى التحكم فيها وحرمانها من حقوق كثيرة وبما أنهم القائمون عليها فقد حاولوا أن يتحرروا منها أحيانا بالوأد؛ أو

يعيشوا برئاستهم في معاملتها. وبذلك منعوها من المساواة مع الرجل في الحقوق وفي الواجبات فأصبحت بمثابة الأمة الخادمة وإن كانت محترمة كأم ومقدسة كحريم.

أما الاسلام فقد جاء مقوما لما أعوج من الدين وما طغى من جاهلية فأعلن قبل كل شيء ان الغواية وقعت لآدم وحواء على السواء أغواهما الشيطان؛ وإن الله تعالى تاب عليهما بعد ما غويا وهدى. وإن الميراث الوحيد الذي يعترف به القرآن هو عداوة آدم وذريته رجالا ونساء للشيطان وعداوة الشيطان لهما، والحياة البشرية على وجه الأرض صراع بين الخير الذي تمثله الانسانية والشر الذي يمثله الشيطان.

وإذن فلا مسؤولية على المرأة في تلك الغواية المغفورة. ولا ميراث للخطيئة عند الناس؛ لأن الأبناء لا يؤاخذون بذنوب الآباء؛ (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت).

ثم أعلن الرسول ان (النساء شقائق الرجال في الأحكام) فليس للرجل من حق لا تملكه المرأة أو ما يقابله؛ وليس يجب على المرأة الا ما يجب على الرجل اذا تساوت المهمات.

فالواجبات والمحظورات الشرعية يخاطب بهما الرجل والمرأة. والثواب والعقاب متساو في الجزاء اذا تساوت الأعمال.

ومن هنا ابتدأ تحرر المرأة.

فهي كالرجل في الكرامة وهي كالرجل في حقها في الحياة. وهي مثله في الحرية. وهي مثله في المسؤولية.

ولن أذهب في تفصيل معالم التحرير الذي قام به الاسلام للمرأة؛ ولكن حسبي أن أقول : انها انسان مكلف كالرجل سواء بسواء وذلك هو الفرق الذي تفوق به الدين الحنيف عن غيره من الديانات والحضارات.

حرر المرأة من الجاهلية العربية وحررها من الوضع الذي وضعتها فيه خرافة الخطيئة الأصلية فأصبحت انسانا كالناس لها ما لهم وعليها ما عليهم وذلك هو الحق المبين.

*****

المرأة المسلمة(*)

الاستاذ محمد حسن الوزاني

.... ومما يدل على عناية الإسلام بالمرأة الحقوق التي فرضها الله لها والتي تجعل منها امرأة راقية كاملة والتي تغبطها عليها نسوة الأمم المتمدنة الحديثة. هذه الحقوق هي التي أشار إليها الرسول في خطبة الوداع ـ وهي لنا بمثابة دستور عام ـ لما أوصى المسلمين خيرا بالنساء. ومن الخير أن نضمن للمرأة حقوقها الشرعية ونكفل لها حقها في العلم الذي بدونه لا تكون مسلمة كاملة عارفة بحق الله وحق نفسها وحق ملتها (1).

ولا نجد في الاسلام ولا عند الشارع ما يصد المرأة عن طلب العلم، بل نجد التصريح بوجوب تعليمها كما ذكرنا آنفا سواء في ذلك الحرائر والإماء: قال رسول الله: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» في هذا الحديث الشريف يتجلى بوضوح سمو الروح الاسلامية، ومنه تفيض نبالة العاطفة المحمدية، فالرسول يرغب المسلم في تحرير الولائد من ذل الجهل وذلك بحسن التعليم والتأديب، كما يرغبه في إعتاقهن من الوجهة الاجتماعية بتمليكهن من أنفسهن واتخاذهن أزواجا.

(*) فصل من كتاب: الاسلام والمجتمع والمدنية، وهو بحث كتبه المرحوم محمد حسن الوزاني في المنفى. ط. مؤسسة محمد حسن الوزاني، 1987.

وللمرأة المسلمة خير قدوة في بعض نساء الرسول. فقد كان بعضهن يكتبن كحفصة وأم كلثوم. ومكان عائشة في العلم معروف حتى إن الرسول قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » هذا دليل صريح على أن الرسول جعل المرأة شريكة الرجل في العلم كما هي شريكته في الحياة الاجتماعية. فليس لها أن تتعلم العلم فحسب، بل لها كذلك أن تكون معلمة الرجل ومهذبة عقله بالعلوم والمعارف. ولا ينبغي للرجل الذي سماه الله قَوَّاماً على المرأة أن يجد غضاضة في التلمذة لها في كل ما تحسنه، فالعلم مشاع بين الرجل والمرأة، فعلى العالم أن يعلم الجاهل وعلى الجاهل أن يأخذ من العالم، وذلك بصرف النظر عن الجنس والسن. وفي الحديث : لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه. « من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »، « ما أتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه » إنما بُعِثْتُ معلِّما. وقال تعالى : **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه﴾**.

فهذا القرآن وهذا الحديث كلاهما يأمر العالم ببذل علمه للجاهل والجاهل بالتعلم من العالم. ولا نجد في كلام الله ولا في حديث رسول الله ما يفهم منه تخصيص الرجال بذلك دون النساء. فهم جميعا شركاء في الواجب وميثاق الله. ومثال عائشة زوجة الرسول خير مصداق لهذا. فقد أشار الرسول بالأخذ عنها كما تقدم، ومكانتها في كثرة رواية الحديث هي بعد أبي هريرة. وقد كان لها بين الصحابة منزلة عالية يستشيرونها في مسائل دينية وقضائية.

والشرع يطلب من الرجل أن يعلم زوجته الضروري من العلم. قال حجة الاسلام أبو حامد الغزالي : على الزوج أن يُعَلِّم زوجته أحكام الصلاة وما يقضي منها في الحيض وما لا يقضي، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾. فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه... فإن كان الرجل قائما بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل ولكن ناب في السؤال فليس لها الخروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصي الرجل بمنعها. ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه. ومهما أهملت المرأة حكما من الأحكام ولم يعلمها الرجل خرج الرجل معها وشاركها في الاثم.

يُستفاد من هذا أنه على المرأة أن تتعلم الضروري من علوم الدين مثل الرجل، وإن واجبا على الزوج أن يعلم زوجته هذه الحصة اللازمة من العلم. فإذا قصر الرجل فلها بل عليها أن تطلب العلم الواجب في الخارج. ويعد من العصيان حيلولة الرجل دون امرأته وما يلزمها من العرفان. وسواء أخذت علمها الضروري عن زوجها أو عن غيره فليس لها أن تخرج لأجل العلم الكمالي إلا بإذنه ورضاه، وهو أمر معقول. وخلاصة القول أن المرأة مطالبة شرعا بالضروري من العلم مثل الرجل. أما المعارف الكمالية فلها أن ترغب عنها مثل الرجل ولها أن ترغب فيها فتتلقنها خارج البيت أي في مجالس العلم وهي المدارس لكن بوفاق الزوج الذي هو القيم

عليها. وليس في هذا الشرط المعقول ما يجعله من الموانع التي لا تغلب. وما أشبه هذه المسألة بموقف الأولاد من الوالدين. وفي بيان هذا يقول الغزالي : وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما. والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الاسلام نفل لأنه على التأخير. والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الاسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين. إن «رضى الوالدين حتم» كما يقول الغزالي ولكن من غير إطلاق. والتقييد بإذن الوالدين لا يمنع حاجا من حجه ولا متعلما من علمه، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. كما أن شرط الاذن من الزوج لا يصد الزوجة عن تعلم الفضل والكماليات. إن الشرع يجعل من حقوق الأبناء أن يؤدبهم أبوهم فيحسن تأديبهم. قال رسول الله : «من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه». وليس في هذا الحديث الشريف ما يعرض هذا الحق للبنين دون البنات. فعبارة الولد تشمل الذَّكَر والأنثى. وإذا عملنا بالحديث القائل : «سوُّوا بين أولادكم في العطية»، وكذلك لقوله عليه السلام : «نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها» بذلنا العلم للبنين وللبنات على السواء، لأن حقهم علينا آكد من كل حق إذ هم أمس رحما بنا، وهم «ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة وبهم نصول على كل جليلة» (الأحنف بن قيس)...

لماذا يجب تعليم المرأة المغربية ؟

1ـ تعليم المرأة واجب في الشريعة الاسلامية السمحة كما تقدم. فالمرأة مطالبة شرعا مثل الرجل بتعلم الضروري من علوم الدين.

قال تعالى : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين﴾، والتفقه يشمل المسلم ذَكَراً وأنثى ويقتضي البَصارة بعلوم العقائد والعبادات والأحكام وبعلوم اللسان التي هي الأداة لذلك وبها تدرك معاني القرآن الكريم والحديث الشريف والنصوص الشرعية عامة». فتقصير المرأة في التفقه في دينها عصيان لأوامر الله ومتلفة للشريعة التي حياتها بمعرفتها من المسلمين رجالا ونساء. وبديهي أن كثيرا من معالم الدين لم تدرس بيننا إلا لأننا غدونا مع الجهل لا نتشبث من الاسلام إلا بالاسم. وما أكثر الأعمال التي نظنها من الاسلام وهو منها براء! وما أجدرنا بالرحمة! ولكن الله لا يرحم من لا يرحم نفسه ولا يعمل ما به يستحق الرأفة.

2 ـ نهضة الأمة برجالها ونسائها لا بفريق من أعضائها دون فريق. فكل نهضة تقوم على الرجل دون المرأة إنما هي نصف نهضة. وإنما لتكون ناقصة بَتْراء مختلفة عقيمة بقدر ما يكون في الأمة من نساء جاهلات. فالرقي العام التي تنشده البلاد في طور النهضة، وتسعى له العناصر الحية النيرة من أبناء الأمة، وتتطلبه حياة المجتمع الجديدة لا يدرك حقا ولا يتيسر كاملا إلا إذا سار رقي البنات جنبا لجنب مع رقي البنين. ولا رقي لهم جميعا إلا بالعلم الصحيح الذي يناسب كل فريق من ناشئة الأمة. فالعلم يجب أن يكون رائد المرأة والرجل معا في سير النهضة المغربية، هذه النهضة التي نريد أن تصبح مثال الرشد والتوفيق والكمال. وفي المثل : الجهل مطية من ركبها ذل، ومن صحبها ضل.

3 ـ تربية الأولاد منوطة بالنساء. والتربية الرشيدة الفاضلة مسألة عسيرة المنال إلا على العارفات من الأمهات. ولا سبيل إلى

ادراك أسرارها عن طريق الفطرة والالهام والعادة مجردا. وبعبارة فالمرأة الجاهلة ليس من شأنها أن تتوفق في تربية الأولاد تربية ترضي العقل والدين والمصلحة، لأن التربية هي قبل كل شيء علم وخبرة ودراية. فإذا اعتبرنا المرأة «أم الوطن» - وهي كذلك بصفة مصدر النسل والثمرة. وحاضنة الأولاد زمن تربيتهم، وقيمة البيت - أدركنا أهمية الغاية بتعليمها وفظاعة الجرم الذي نقترفه بتركها مهملة لا علم ينير عقلها ويهديها، ولا دراية تهذب نفسها وتعليها، ولا سلاح يسندها في القيام بوظيفتها ويقويها. فالمرأة إذا صلحت بالعلم والتهذيب صلح الأبناء الذين هم عمدة الأمة في مستقبلها، وإذا أفسدها الجهل ساءت أحوال النشيء وقامت الأمة في ضلال وضعف وفوضى.

4 - حسن مستقبل الأسرة مقيد بصلاح جميع أعضائها. والأم التي تسمى عادة ربة البيت وملكة المنزل هي الركن الثاني الذي تشاد عليه الأسرة. فجهل الأم التي تلك مكانتها وذلك شأنها شر فساد تتضرر منه العائلة. وبما أن العائلة الجديرة بهذا الاسم عبارة عن جماعة محكمة الروابط متراصة الأجزاء وأن لكل من أعضائها حقوقا وواجبات، ففساد الأم بالجهل له تأثير سيء ظاهر أو خفي في صفة الروابط العائلية وكيفية أداء تلك الحقوق والواجبات بين الأعضاء. وإذا سلمنا أن كل عائلة إنما هي خلية في عميرة الأمة، وحلقة من سلسلتها المحكمة شخصنا الداء العضال الذي تصاب به الجماعة من جراء جهل النساء، وأيقنا بعظم المسؤولية التي تثقل كواهلنا بسبب ما نرتكبه غيا وجمودا من التقصير الشنيع في تعليمهن وتهذيبهن. فصلاح المجموع بصلاح القطعة وهي العائلة،

وصلاح العائلة إنما هو بالعلم الذي يعم جميع أفرادها : الأب والأم والأولاد ذكورا وإناثا. فإذا عرى داء الجهل أحد هذه الأقانيم العائلية الثلاثة وهو الأم تردت العائلة في هلكة هلكاء وساءت مصيرا.

وحُسْن مصير الأسرة بانتظام سيرها. فلكل عضو منها وظيفةُ الخاص له ما يناسبه من الحقوق والواجبات. والمصلحة هي في أداء كل وظيف على أكمل صورة. وكيف يستطيع ذلك ناقص العقل قصير الباع وهو كل جاهل ذكرا كان أو أنثى؟ وبإحكام النظام في العائلة هو في إحلال كل عضو في المحل الخليق به : فالأب بصفته الرئيس له السلطة والسيطرة على الجميع. والأم تابعة له وهو قيم عليها من الوجهة القانونية الشرعية. لكنها شريكته في الحياة والولدة، وهي وإياه سواء من الوجهة المعنوية. فسلطة الزوج تزري بشأن المرأة لأنها سلطة ناشئة عن المسؤولية وليست قائمة على مجرد التسلط والاذلال. فلكل منهما منزلته ولكل منهما حرمته ولكل منهما مجال عمله. وازدياد الأولاد يزيد روابطهما إحكاما وتثبيتا. وخير العائلة في حسن تناسق وضعيتي الأبوين. وهذا التناسق إنما يكون مضمونا في العائلة التي أفرادها عارفون وعالمون بما لهم وعليهم من حق وواجب.

5 ـ مكافحة الأميَّة بين قومنا أول واجب على الأمة شعبا ودولة. والأمية تفتك بالنساء أكثر من فتكها بالرجال، لأنها تحيق بجنس ضعيف حسا ومعنى وويلها في الأمة يشتد على قدر ما يوجد فيها من نسوة جاهلات وهن جميع النسوة تقريبا. وإن أكبر ما يشين المرأة ولو كانت « ملكة جمال » لهو الجهل[2] فإليه يعزى كثير من

فساد التربية واختلال كثير من شؤون العائلة. والمسؤول عن هذه الأسواء كلها الرجل قبل المرأة لأنه قوام عليها وله عليها السلطة والنفوذ. ورب قائل يعترض علينا بوجوب تعليم الرجال قبل النساء ظنا منه أن المصلحة العامة تتطلب تقديم البنين على البنات في العلم والتهذيب. وهذا من الحماقة والخور، وليس هو من المصلحة العامة في شيء».

إن الأمة تتركب من رجال ونساء. فالاهتمام بجنس دون الأخر تفريط عظيم وتقصير فظيع. والأمة لا ترقى إلا برقي جميع أعضائها رجالا ونساء، وصلاح الأولاد تابع لصلاح الأمهات، لأنهن الحاملات المرضعات المربيات وهن المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأطفال مبادئ التربية الأولى. وهن الأقطاب اللائي تدور حولهن الحياة العائلية، وهن في البيئة المنزلية السماء الممطرة والشمس المشرقة والأرض الخصبة. فالمرأة غيث ونور وثمر. إن علمنا هذا حق العلم اقتنعنا بوجوب تعليم المرأة لأنها أساس تربية الأبناء والنهوض بالعائلة من خفض الوهاد وضمان مستقبل زاهر للبلاد.

الأم مدرسة إذا أعددتها	أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم أستاذ الأساتذة الأولى	شغلت مآثرهم مدى الآفاق
ليست نِسَاءُكُمْ أثاثا يُقتنى	في الدور بين مخادع وطباق
تتشكلَ الأزمان في أدوارها	دولا وهنَّ على الجمود بواق
فتوسطوا في الحالتين وأنصِفوا	فالشر في التقييد والاطلاق

(حافظ).

الجهل لا تحيي عليه جماعة — كيف الحياة على يَدَيْ عِزْريلا؟
وإذا النساء نشأنَ في أمية — رضع الرجالُ جهالةً وخمولا
ليس اليتيم مَن انتهى أبواهُ منَ — همِّ الحياة وخلَّفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما — ويحسن تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له — أمًّا تخلَّت أو أبًا مشغولا

(شوقي).

6 ـ حُسْن الأسوة بالملك في تعليم الفتاة المغربية واجب لا محيد عنه. فإذا كانت مشكلة تعليم المرأة المسلمة قد أثارت في المشرق زوابع من الكلام وأسالت جداول من المداد وشغلت حقبا من الزمان. فإنها ما كادت تظهر في فجر نهضتنا لحيز الوجود وتفرض نفسها على حملة الأقلام من المغاربة المفكرين والمصلحين، وتُرَوِّج ذكرها في الصحف والأندية والمجالس حتى هب جلالة الملك ـ أعزه الله ـ فأعلن في صراحة واعتزام بين العلماء وطلبة العلم بالقرويين : «هناك أمر آخر نهتم به كل الاهتمام وهو تعليم بناتنا وتثقيفهن لينشأن على سنن الهدى ويهذبن بما ينبغي حتى يتصفن بما يتعين أن تتصف به المرأة المسلمة حتى تكون على بينة من الواجب عليها لله ولزوجها وبنيها وبيتها».

بهذا التصريح أنهى جلالة الملك موقفه الحاسم إزاء مشكلة تعليم المرأة المغربية المسلمة وصدع في الأمة بوجوب ترقية الفتاة بالعلم الصحيح والتربية الفاضلة كي تصبح أهلا لوظائفها في العائلة والمجتمع. تكلم جلالة الملك في وسط العلماء بالقرويين وفي هذا من المغزى ما لم يفت أحدا من أبناء الأمة ولا غرب عن فطنة هؤلاء

العلماء أنفسهم الذين هم أعرف الناس بمسألة الشريعة والمرأة الذين يلزم أن يكونوا أكثر الناس خفوفا إلى تعليم البنات.

ما كدنا نسمع جلالته الشريفة يجهر بالواجب الآكد علينا للمرأة في مجال نهضتنا العامة حتى رددنا مع المثل : قطعت جهيزة قول كل خطيب! نعم بذلك القول أراد جلالة الملك أن يوفر على الأمة خصومة قلمية عريضة كالتي قامت في المشرق يوم وضعت مسألة المرأة على البساط أمام الرأي العام، لأن خصومة كهذه يجب أن لا تستفحل وتستحكم بيننا فتشغلنا بالكلام دون العمل، وتؤدي بنا إلى طول الجدال الذي لا نظفر معه بنتيجة إلا بعد أن تفنى أزمان وتضيع أعمار ونزداد شقاء على شقاء وضغثا على إبالة.

الخصومة في شأن تعليم المرأة المغربية قد تطورت بعد أن قال فيها الملك كلمته التي هي فصل الخطاب في الموضوع. فلم تبق خصومة تموج فيها الأهواء، وتتضارب في شأنها الاراء وتتعارض في مجالها الخصوم والأنصار. بل انقلبت سريعا معركة في سبيل تعليم المرأة المغربية المسلمة تخوض معمعتها الأمة لا يشذ عنها أحد بقول ولا عمل. فكل ما يقال ويكتب ويعمل يجب أن يكون وسيلة وسلاحا في يد المجاهدين المتظافرين على غزو وجهالة المرأة المستميتين حتى يربحوا المعركة ويفوزوا فوزا مبينا.

قال الملك الامام كلمته النهائية فأصبحت كمّاما لكل خصم معاند ونبراسا لكل من ينهج سواء السبيل. ولم يتكلم جلالته إلا بعد أن عمل هو نفسه في الميدان ما رأى أن يكون خيرا وقدوة للأمة جمعاء (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

لا نريد بعد أن نطق الملك بالحق وأفصح عما فيه صالح الأمة أن يبقى بيننا صوت مخالف ينازع في تعليم المرأة بل نريد أن تتحد الآراء كلها وتتبارى الهمم جميعها كي تزاح غشاوة الجهل المقيت عن عقول بنات هذا الجيل الذي هو جند النهضة وعمدة المستقبل. وفي المثال الذي سار عليه جلالة الملك في تعليم كريماته الجليلات خير مبدد لمخاوف المضطربين، وهواجس المحافظين، ووساوس المتزمتين. فلو رأى جلالته أي مانع ديني أو آفة خلقية في تعليم بناته لأحجم عن ذلك بتاتا، ولكن حاشا الدين أن يرضى للمرأة المسلمة جهلها، وحاشا الملك أن يعمل ما لا يوافق الدين الحنيف ولا يطابق المصلحة. ومتى كفل الجهل للمرأة الصون والعفاف، والحصانة لا يضمنها الجهل حتما بعهد الله وميثاقه. وقد يتوفر هذا في الجاهلة لكن العالمة أجدر بأن تعرف ما لها وما عليها وتميز الخبيث من الطيب والفضيلة من الرذيلة. وقد حمدنا كل ما عمل وقال جلالة الملك في شأن ترقية المرأة بالعلم والتربية، وتفاءلنا خيرا بتزعمه هذه الحركة الجليلة التي سار فيها كثير من قومنا خطوات مشكورة والتي نأمل أن ينضم الناس إليها أفواجا أفواجا أسوة بصاحب العرش العظيم. وقديما قالوا : الناس على دين ملوكهم. فواجب على الأمة أن تهب من غفلتها وتحذو في تعليم بناتها مثال الأميرات الجليلات، وتأتمر في إنجاز هذا الاصلاح الضروري الخطير بالأمر المولوي. وإن جلالة الملك لحارص حرص الرعية على أن يكون تعليم الفتاة المغربية موافقا لتعاليم الاسلام. لذلك أمر جلالته بأن يوضع برنامج التعليم تحت إشرافه لئلا يلحقه شطط أو تحريف ليضمن رقي الأمة من كل الحيثيات ويحفظ من الاهمال كما يحفظ من الآفات، ويتسنى لها أن تسابق الأمم من غير خروج على مبدإ

دينها الأقوم، تتعلم ما ينفعها ويحييها وتجنب ما يؤخرها. مقصدها العلم الحقيق النافع، ورائدها الرشد البين، لا تحيد عن طريق الهدى ولا تلوي على مهاوي الردى ودينا الزكي الطاهر يسر لا عسر ومنهجه القويم الظاهر سهل لا قسر. أفبعد هذا يبقى أي مجال للتردد لحظة في اقتفاء الأثر واستنهاج السبيل والاندراج في الحركة؟ لينهض العلماء الذين أرادهم الله هداة للملة وليكونوا في هذا العمل الصالح خير من يؤازر جهود أمير المومنين ويهدي هديه في الدعوة إلى العلم والتقدم بالمرأة إلى الأمام.

هل يراد بتعليم المرأة تحريرها ؟

إن المرأة المسلمة ليست رقيقا فتحتاج إلى إعتاق وتحرير. قد يتوهم بعض الأجانب أن مركز المرأة في الاسلام ينبني على القهر والاستبداد والاستعباد، وأن ليس لها من الحق إلا الرضوخ والاستسلام لارادة الرجل. ومما يدفعهم إلى هذا الظن أن حظ المرأة في الارث نصف حظ الرجل وأن الزواج بأكثر من واحدة مباح، وأن الطلاق بيد الزوج دون الزوجة، وأن للزوج سيطرة بصفته قواما على زوجته. فكل هذا - في ظن الأجانب - يؤدي إلى هضم حقوق المرأة وجعلها في منزلة وضيعة بالنسبة للرجل. وقد فات أصحاب هذا الظن ما في تلك المسائل من حكمة ومصلحة ليس هنا مجال تبيانها. والحقيقة أن الاسلام خول المرأة من الحقوق ما يكاد يماثل حقوق الرجل، وأنه لم يخص الرجل بشيء دون المرأة إلا راعيا لمصلحة العائلة والمجتمع، على أن الشريعة لم تترك المرأة أمام الرجل عزلاء من كل سلاح، بل عملت لصيانة حقوقها بما فرضته من الشروط والقيود التي تعد ضمانات كافية. أما دعوى استرقاق

المرأة فباطلة، إذ ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق اسرى حرب شرعية لم تقم إلا على إعلاء كلمة الله تعالى. مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم. أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شُبْهة كَعَبَدة الأوثان فقال مالك والشافعي وأحمد في إحدى رواياته إن ذلك لا يجوز مطلقا»[3] وإني لأستحيي أن أستعبد إنسانا يقول ربي الله. (علي بن أبي طالب).

أما ما آل إليه أمر المرأة المسلمة من الجهل والانزواء فلا يقره الاسلام السمح. وبصفة عامة يجب أن لا يستدل على الاسلام بما عليه المسلمون اليوم في كثير من أحوالهم. ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فإذا كان لابد من التحرر فلا يكون هذا باسم المدنية الحديثة ولكن باسم الاسلام، وذلك بتطبيق تعاليمه السامية الخاصة بالنساء. وإنها لتضمن لهن من الحقوق ما لا تتمتع به نسوة كثيرة من الأمم المتحضرة اليوم، ومن الحرية ما يناسبهن في الحياة الاجتماعية الراقية. والحجاب الشرعي لا يحول بين المرأة المسلمة وما تبتغيه من رقي وصلاح. كما أن مجرد السفور لا يضمن للمرأة رفعة ولا يجلب لها منفعة، فقيمة المرأة إنما هي بكمال عقلها وحسن خلقها. وكمال العقل بالعلم الصحيح وحسن الخلق بالتربية الفاضلة. وكلاهما في متناول المرأة المتحجبة والمرأة السافرة معا. فمسألة المرأة التي نعنى بها ليست مسألة حجاب أو سفور، ولكن مسألة جهل أو علم. فالمرأة المتعلمة لا يضرها الحجاب، والمرأة السافرة إن بقيت جاهلة لا يجديها السفور نفعا ولا فضلا، وخير منها مهذبة العقل والنفس ولو ظلت من وراء

حجاب. وتعجبني في الموضوع كلمة حكيمة قالها أحد أفذاذ العلم والاصلاح من المسلمين في هذا العصر، وهي : إذا طالبنا بوجوب تحرير المرأة فإنما نطالب بتحريرها من رق الجهل وسلطان الغباوة فلا تعود تستسلم للخرافات وتنقاد لسيء العادات. وليس المراد بتحريرها أن تنزع عنها برقع الحياء والحشمة وتركب رأسها فتتصرف في شؤونها حسبما تشاء وتريد. ولم تخلق المرأة مستعبدة لمثل تلك الحرية وهذا التصرف، ولا يمكن أن تصادف وسطا يلائم أن تعيش فيه هذه المعيشة المحفوفة بالأسواء والمخاطرة »...

مستقبل الفتاة المغربية :

يجب علينا أن لا نخبط في تعليم الفتاة وتهذيبها خبط عشواء، بل يلزمنا أن نسير في هذا كله على بصيرة وهدى.

ونحن لا نريد في بيان ما يكفل المصلحة الراهنة ويضمن مستقبل هذا الجيل أن نتوسع كثيرا ونرمي بالنظر إلى أبعد الأفاق. لهذا سنقتصر على ما نراه الآن ممكنا وضروريا.

قلنا إن جلالة الملك يشرف على وضع برنامج صالح لتعليم البنات المسلمات، لكن رغبة الأمة هي أن يتولى جلالته الاشراف دائما على مدارس البنات. ولكن الاشراف الملكي المباشر لا يمكن باستمرار. ولكي تراقب تلك المدارس عن كثب ينبغي أن يناط ذلك برجال يستوفون الشروط اللازمة ويستحقون ثقة جلالة الملك. وفي هذه المراقبة خير ضمان لتنفيذ البرنامج الشريف الخاص

بتعليم الفتيات ولاطمئنان الآباء على حياتهن المدرسية وتعليمهن تعليما بريئا نافعا. ومما يحسن التنبيه إليه تمكين الآباء من المشاركة في الاشراف على سير التعليم بالمدارس النسوية، وذلك في صورة لجنة استشارية منتدبة لذلك. ففي هذا أكبر مشجع للناس على إدخال بناتهم للمدارس والمضي في ترقيتهن بالتعليم والتهذيب.

*****

الهوامش :

(1) قال أنس : ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حديث : «خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي».

حديث : «إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك».

(2) ولانقر المثل القائل : عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في عقله، فلا جمال للرجل وللمرأة إلا في العقل وحسن الخلق.

(3) عبد العزيز جاويشي : الإسلام دين الفطرة.

تعليم البنات[*]

الاستاذ محمد الحجوي

ان فكري في هذه المسألة مشهور من لدن جهرت به سنة 1341 في محاضرتي بالمؤتمر الذي انعقد بالرباط وهو أن يعلمن تعليما عربيا اسلاميا على نحو تعليم السلف الصالح نساءهم من غير أن يؤدي ذلك إلى السفور ورفع الحجاب الذي يأباه الدين والقرآن ومكارم الأخلاق وحفظ النسل لأنه مثار الشهوة مضاد للحياء والحشمة.

أما ادلته فمنها أني لم أقف في الكتاب والسنة على دليل يمنع المرأة من العلم أي علم كان أو يوقفها عند حد محدود في التعليم العربي الديني بل الأصوليون صرحوا بأن المرأة يجوز أن تصل إلى مرتبة الاجتهاد في علوم القرآن والسنة وما يوصل إليهما من العلوم الاسلامية حتى تكون كمالك والشافعي وأضرابهما ومنها أن الاسلام ثقافة وعلم وتهذيب أخلاق فكيف يتصور عاقل أن يمنع من تعلم المرأة ويترك نصف المتدينين به خلوا من الثقافة والفضيلة وفي الصحيح ثلاثة يوتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، والعبد المملوك اذا أدى حق الله تعالى وحق مواليه. ورجل كانت له أمة فأدبها

(*) نص محاضرة للأستاذ محمد الحجوي. مجلة المغرب ـ السنة الرابعة ـ جمادى الثانية 1354 هـ موافق غشت/شتنبر 1935.

وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم اعتقها فله اجران » فإذا كان الاسلام يندبنا إلى تعليم الاماء حفظا لمجتمعنا من مفسدة جهلهن فما ظنك بتعليم الحرائر ومنها قوله عليه السلام طلب العلم فريضة على كل مسلم رواه ابن ماجة والبيهقي وابن عدي وغيرهما قال العلقمي جمعت له خمسين طريقا في جزء خاص وحكمت بصحته لغيره وقال العراقي صحح بعض الأيمة طرقه وقد الحق بعض المصنفين بآخر الحديث ومسلمة وليس لها ذكر في شيء من طرقه. وهذه الزيادة غير محتاج إليها فكل حكم ورد في الشريعة لمسلم أو مؤمن إلا والمسلمات والمؤمنات داخلات فيه اما بطريق اللفظ أو القياس لأن النساء شقائق الرجال في الأحكام الا ما ورد فيه استثناء كاحكام الحيض والنفاس ومنها أن الأمة مجمعة على أن لا يجوز لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه وان الله لا يعبد الا بالعلم والمرأة داخلة في ذلك بلاشك، ويجب على وليها تعليمها فإن فرط في ذلك فعلى الزوج تعليمها وهذا من ضروريات الفقه والدين، فهذا الدليل والذي قبله ينتجان وجوب تعليمها ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجعل لهن يوما مخصوصا لتعليمهن وكانت تأتيه نسوة الأنصار يسألنه عن الدين وهو في جمع الصحابة من غير أن ينكر عليهن كما كن يأتينه في منزله الشريف لذلك وكان إذا خطب الرجال ووعظهم تقدم للنساء فخطبهن ووعظهن وعلمهن، وهذا كله معلوم في الصحاح وكتب السير لا يمتري فيه مسلم وكذلك كن يأتين مجلس عمر وابن مسعود وغيرهما يسألن ويتعلمن بل ينتقدن ويتحاججن بكل صراحة في أمور دينهن ودنياهن لا منكر ولا مستقبح، كالمرأة التي ردت على عمر حين أمر أن يقتصر في الأصدقة على ما كان النبي

صلى الله عليه وسلم يقتصر عليه في صداق أزواجه وبناته بقولها أتبع قولك أو قول الله : وآتيتم إحداهن قنطارا، فرجع لقولها، والمرأة التي قالت لابن مسعود لما روى حديث لعن الله الواشمة والمستوشمة ان زوجتك تفعل ذلك فقال لها لو كانت تفعل ذلك ما جامعتنا اذهبي إليها وانظري والحديث في أصح الصحيح وقد قال تعالي إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الآية وقال إذا جاءك المؤمنات يبايعنك الآية إلى غير ذلك، فما من منقبة سبق إليها الرجال كالهجرة والبيعة والجهاد والنصرة في الدين واعلاء شأنه الا وكان للنساء حظهن في ذلك، ويظهر من لفظ القرآن الكريم انهن تطوعن بذلك وتسابقن إليه اختيارا منهن للفضيلة والمشاركة للرجل في الخير، فليست خديجة عليها السلام الا كأبي بكر في سبقها للاسلام وتقديم مالها ونفسها لله تعالى، وكم فيهن من مهاجرات للحبشة كأم سلمة وأم حبيبة، وقد حضر لبيعة العقبة الثانية بضعة وسبعون رجلا وامرأتان والكل بايع علي الذب عن الاسلام وحمايته من اعدائه ونشر دعوته وإحدى المبايعات أم عمارة الانصارية النجارية ليلة العقبة وشاهدت مشاهد معه صلى الله عليه وسلم فجرحت في غزوة أحد وشهدت اليمامة بعده عليه السلام فجرحت اثنتا عشرة جراحة وقطعت يدها وقتل ولدها، وكم فيهن ممن كن يحضرن الجهاد يداوين المرضى ويضمدن الجرحى كما فعلت فاطمة بنت رسول الله بأبيها في غزوة أحد، وكما كانت أم عطية وغيرها يفعلن في سائر المغازي وكنا يغزون حتى في البحر كما وقع لأم حرام بنت ملحان التي غزت قبرص مع زوجها عبادة بن الصامت وماتت هناك أو ببيروت عند أوبتها وهي التي طلبت النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بأن تكون من أول من يغزو في البحر

كما في البخاري، فقبل الحجاب كن يداوين الجرحى ويغزون وهن غير محجبات وبعده كن يفعلن ذلك محجبات ولا تدل هذه الأعمال على رفع الحجاب أصلا، وكن يحفظن القرآن وينشرن الدين وهل كان اسلام عمر الذي هو من أعظم أركان هيكل الاسلام الا على يد أخته التي وجدها تتعلم القرآن خفية في منزلها هي وزوجها سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل والنبي إذ ذاك مختفٍ في دار الأرقم بن الأرقم وكم منهن من استشهدت في سبيل الله كسمية والدة عمار بن ياسر التي قتلها أبو جهل بعدما عذبت عذابا شديدافي ذات الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليها وهي تعذب هي وزوجها بمكة فيقول : «صبرا آل ياسر». فالمرأة أول شهيد في الاسلام.

ولما ظهر من النسوة الصحابيات ما ظهر من النصرة والنضال عن الدين ورفع مناره حررهن الاسلام مما كن فيه من الذل والهوان واعتبرهن عضوا عاملا في المجتمع البشري واعترف لهن بحقوق عظيمة لم تتمتع بها المرأة قبله فقد اعتبر الاسلام المرأة منبت الانسان فمنها تتكون العائلة وهي قرارة النطفة المكينة المؤتمنة على استيداع أمانتها وهي بذرة العائلة التي هي بذرة الأمة ومربية الأولاد ومدبرة البيت وسائسه ورئيسة العيال ومصلحة شؤون المنزل والقيمة على الدار والحافظة الأمانة والكاتمة للسر والمسلية عن الأكدار والمريحة للزوج من كل ما يعانيه من مشاق عراك الحياة فالزوج يعارك في معترك الحياة خارج البيت والمرأة توطىء له الأكناف وتهيىء له ما ينجم به لاستعادة قواه والاستعداد للميدان فالشريعة قسمت لهما الحياة وخصصت الرجل للأعمال الشاقة العظيمة وملاقات الأخطار والدواهي وخصصت

الجنس اللطيف لكل لطيف يستدعي شفقة ورقة فأعطى لكل واحد من النوعين ما يليق به على مقتضى الحكمة والخلقة و الفطرة الثابتة التي لا تتحول وناموس الكون المشاهد والشريعة لا تكون ضد الفطرة.

ولما كان المسلمون متمسكين بنظامهم الاسلامي موفين المرأة حقوقها في التعليم وغيره سائرين على نهج القرآن والسنة لا على العوائد والمألوفات كانت المرأة المسلمة أرقى نساء أهل الأرض ومنها تكونت تلك الأمة الماجدة الحافلة التاريخ والتي بشرت سكان المعمور بكل المكارم.

وأكثر من رأيته ينتقد النظام الإسلامي ليس هو المرأة، فالمرأة المسلمة قابلة لنظامها حامدة مولاها عليه وشاكرة وما سمعنا منها تأففا ولا شكوى منذ ثلاثة عشر قرنا مضت وقد بلغ الاسلام فيها شأوا في التقدم والمدنية لم تبلغه دولة من الدول بعد تمدنا أدبيا أخلاقيا حقوقيا ونظاميا، وكان للمرأة حرية النضال عن حقوقها زمن نزول الوحي وتشريع الحجاب وما بلغنا ان امرأة انتقدت الحجاب أو تقززت منه أو عدته مهينا أو شينا لجنسها بل قبلته بطيب خاطر وقلب رحب وقد كان عمر يريد أن يزاد فيه تشديد عليهن بعدم بروزهن من البيوت كليا فناضلت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم إن الله أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن كما في أصح الصحيح، ومما يدل على حريتهن في النضال والمراجعة قوله تعالى : **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾**

وغيرها من الآيات والأحاديث، قال ابن عبد الله في الاستيعاب جاءت أسماء بنت يزيد بن السكن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إني رسول من ورائي من جملة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم وان الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز والجهاد وإذا خرجوا إلى الجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت بوجهه إلى أصحابه فقال هل سمعتم مقالة امرأة احسن سؤالا عن دينها من هذه فقالوا بلى يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم انصرفي يا أسماء واعلمي من وراءك من النساء ان حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال فانصرفت وهي تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نعم الانتقاد إنما وقع من الرجال وأقول مع الأسف ليسوا هم برجال أجانب بل رجال يدعون الاسلام وولدوا في الاسلام ولكن حرموا لذته واشربوا في قلوبهم حب الشهوة فراموا أ يشهروا أسماءهم في العالم ولو بشر فرفعوا عقيرتهم بتحرير المرأة جهلا منهم بنظام الاسلام الذي يزعمون أنه دينهم أو عنادا والحال أنهم أرقاء فهم هم أرقاء ما تمتعوا بحرية حقيقية ولا فهموا لها معنى ومع ذلك يزعمون أنهم يدافعون عن تحرير المرأة ومتى كانوا هم أحرارا ومتى كانت المرأة رقيقة في الاسلام بل المرأة قانعة بما قسمه لها الاسلام من الحرية وبما اختارته لها الشريعة من الأحكام،

والحرية المطلقة مذمومة منافية لمكارم الأخلاق والنظام ولابد لكل حرية من تقييد الدين والنظام والأخلاق ليقع الاعتدال والا كانت فسادا وشرا مستطيرا.

نعم أنا لا أنكر أن المرأة تأخرت في الاسلام بتأخره فأصابها حظها من التأخر أو أكثر من حظها وليس الذنب على الشريعة بل على المسلمين حيث اهملوا تعليم المرأة كأنه منكر من الأمر وفجور، فالمرأة في القرون المتأخرة ليست هي المرأة في زمن زهرة الاسلام وعظمته.

لقد كانت عائشة أم المؤمنين مفتية الاسلام وراويته في زمنها كما كان بقية أزواجه عليه السلام وكن يقرأن ويكتبن وكم من واحدة من أمهات المؤمنين كان لها مصحف تقرأ فيه كعائشة وحفصة وأم سلمى رضي الله عنهن وقد تعلمن القرآن والكتابة على عهده صلى الله عليه وسلم فحفصة بنت عمر علمتها السفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية قال لها النبي صلى الله عليه وسلم علميها رقية النملة كما علمتها الكتابة رواها أبو نعيم وغيره كما في الاصابة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمر مع أزواجه يعلمهن الأدب والعلم ويدل على ذلك قصة حديث أم زرع في الصحيح والشمائل وغيرها، وهكذا كانت سيرة السلف في سمرهم في بيوتهم مع أزواجهم وبناتهم وعيالهم للتعليم والتهذيب وبسبب ذلك انتشر العلم في نسوة الإسلام إذ لم يكن لديهم مسارح ولا مقاصف ولا مقاهي ولا محلات التمثيل والصور المتحركة التي يزعم بعض أهل العصر أنها مهذبة سفسطة ومكرا وهي منبع فساد

الأخلاق لتمثيلها أنواع الجرائم والمآثم والغرام والخيانات فهي التي تنبه الغافل وتعلم الجاهل، وماكانت نساء المسلمين إلا كما وصف القرآن محصنات عاملات مؤمنات.

ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم اهتمام بتعليم المرأة ففي أصح الصحيح قصة المرأة التي وهبت نفسها للرسول ليتزوجها ولم يردها فقام رجل وقال زوجنيها يا رسول الله إلى أن قال له زوجناكها بما معك من القرآن وفي رواية ابن عباس أزوجها منك على أن تعلمها أربع أو خمس سور من كتاب الله تعالى.

وقالت عائشة كما في الصحيح نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين.

وقد انتشر تعليم المرأة في الاسلام بانتشاره وسرعة امتداده بعد الجهل العظيم فظهر فيه عالمات مقرئات مفتيات راويات شاعرات ماهرات أديبات واعظات مربيات مدرسات، فقد كانت أم سعد بنت سعد بن الربيع الأنصارية مقرئة يقصدها القراء لأخذ كتاب الله روى أبو داوود أن داوود بن الحصير قال كنت أقرأ عليهامع ابنها أبي موسى وكانت يتيمة في حجر أبي بكر الصديق فقرأت عليها والذين عقدت إيمانكم فقالت لا ولكن والذين عاقدت إيمانكم الحديث، وهذه السفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية من المهاجرات السابقات وعاقلات النسوة كانت تعلم النسوة القراءة والكتابة على العهد النبوي لأنها من أهل مكة الذين لهم اعتناء معلوم بالكتابة وسبقوا إليها لضرورة التجارة التي هي أحوج

المهن إليها بخلاف أهل المدينة الذين كانوا فلاحين. ولقد كان عمر يقدمها في الرأي ويرعاها ويفضلها وربما ولاها شيئا من أمر السوق قاله ابن سعد وابن عبد البر وابن حجر وانظر الجزء الرابع من الاصابة والاستيعاب تر بعضا من تراجم عالمات الصحابيات، وهكذا كان الذي يؤلفون في تواريخ الرجال يخصصون جزءا للنساء العالمات الأديبات ومنهم من خصصهن بالتأليف كأبي الفضل أحمد بن طاهر البغدادي صاحب كتاب بلاغات النساء الذي ذكر جملة من خطيبات النساء وشاعراتهن المتوفى سنة 280.

وأذكر لك من التابعيات حفصة بنت سيرين التي روى عنها أصحاب الصحيح كلهم قال اياس بن قرة ما أدركت أحدا أفضله عليها، ورابعة العدوية ومعاذة العدوية وغيرهن.

ولقد نبغ في زمن التابعين ومن بعدهم نسوة كثيرة نبوغا فائقا مثل الرجل أو أكثر فكن كعبة علم وأدب ودين وفضل وزهادة ووعظ وإرشاد محجوبات لطلاب العلم والآداب عى عهد زهرة الاسلام مثل كريمة بنت محمد المروزية التي كانت تقصد من الآفاق وتشد لها الرجال الرحال ليرووا عنها صحيح البخاري وتصحح الطلاب النسخ على نسختها وكان مجلسها بمكة يجمع الطلاب من كل فن تلقي عليهم أنواع المعارف، وفاطمة بنت علي بن المظفر البغدادية التي كانت تلقن النساء رواية صحيح مسلم، وفاطمة بنت محمد بن سعد البغدادية الواعظة مسندة اصبهان، وأم مالك بنت الامام مالك راوية الموطأ، وكريمة بنت عبد الوهاب القرشية مسندة

الشام، وشهدت بنت أبي نصر الدنيوري الكاتبة وغيرهن ممن يضيق بذكرهن مجلد، كل ذلك كان مع الحجاب والوقوف مع آداب الشريعة الغراء.

وان أبا داوود الطيالسي وحده روى عن سبعين امرأة، وقد كان بالربض الشرقي من قرطبة أيام بني أمية مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، وهذا الامام ابن حزم الظاهري يقول عن نفسه في كتابه طوق الحمامة : «وهن علمنني العزاء ورويتني كثيرا من الأشعار ودربنني في الخط»، وكان في اشبيلية خمسمائة محبرة للنساء.

وعلى كل حال لما كان الاسلام متقدما زاهرا كانت المرأة عالمة كاتبة شاعرة وهي محجبة تبتدئ التعليم خارج المنزل وعندما تحتجب تكمل معلوماتها في منزلها أو تخرج لتلقيه في المساجد محجبة ولما وقع التأخر وقع في الجميع ولكنه كان في النساء أكثر وأظهر، وليس المراد انعدام تعلمها بل قلته فقط، فإنا نرى في أخريات الأيام كان لا يزال بعض النساء عالمات أديبات كالأستاذة الأديبة الشاعرة سارة بنت أحمد بن عثمان الحلبية ثم الفاسية المتوفاة بفاس آخر المائة السابعة أول الثامنة لها شعر كثير وأدب وفير ينظر بعضه في الجذوة، وأم هانيء بنت محمد العبدوسي الفاسية الفقيهة المفتية آخر هذا البيت من الفقهاء بفاس توفيت سنة 866 وأختها فاطمة كذلك وغيرهن، فالعلم والفضل والأدب لم ينقطع قط من نساء الاسلام وإنما قل ورق عند تأخره وقلته فيهن من أسباب تأخر الاسلام، ولقد أدركنا فاسا قبل عهد الحماية وفي

جل حوماتها دور لتعليم البنات القرآن والكتابة والقراءة وفيها معلمات صالحات زيادة عن دور تعلم الصنائع اليدوية الرقيقة المتنوعة تعليما ممزوجا بأدب المنزل وكان في كل درب منها عدد ليس بقليل بحيث نقول عن تحقيق أن جل بنات فاس كن يتعلمن الصنائع ويتهذبن وكثير منهن يتعلمن القراءة والكتابة ولا يبقى دون تعلم الا نزر زهيد جدا، وهكذا كانت الحواضر عندنا كسلا والرباط ومراكش وتطوان والصويرة وغيرها من بلدان المغرب الا ما قل والذي حدث على عهد هذه النهضة الأخيرة هو تكثير تلك الدور وتسميتها مدارس وتنظيمها تنظيما يساير الرقي العصري في سائر الأقطار الاسلامية وغيرها.

كان المغاربة أزهد الناس في هذه المدارس التي فتحت للبنات حتى أن إدارة المعارف لحرصها على التعليم فتحت واحدة بفاس سنة 1333 وبقيت فارغة لم يقصدها أحد واضطرت لغلقها ولاكن لما وقفوا في الأيام الأخيرة منذ سنة 1341 على حسن نوايا الحكومة حين أعربت لهم عما في هذا المشروع من المصالح الحيوية وعدم منافاته للدين الاسلامي في المسامرة التي نشرت من قبل، عند ذلك أقبلوا عليها بتسابق ونشاط فلا تفتح مدرسة الآن إلا وتمتليء آخر الشهر الأول من عمرها حتى بفاس، وقدزادت التلميذات في هذه المدة الوجيزة على ثلاثة آلاف وكل يوم في الزيادة ولم تكن سنة 1341 عندنا الا تلميذات (125)، ففي مدة نحو ثمان سنين تضاعف عددهن خمسا وعشرين مرة، فإقبال المغاربة على تعليم البنات مدهش وهو أعظم من اقبالهم على تعليم البنين بكثير إذ عدد البنين الآن يتجاوز خمسة عشر ألفا فقط والحال أنه بدأ قبل

سنة ثلاثين فعمره ينيف عن اثنين وعشرين سنة مع عمومه في المدن وأكثر القرى بخلاف تعليم البنات فإنه لم يزل في بعض المدن خاصة.

وقد آن الآن أن أشرح ما أؤمله في تعليم الفتاة المغربية وترقيته وحده الذي ينتهي إليه، فإن تربية البنت وتعليمها ضروري من حيث الدين والاجتماع معا وليس هو بكمالي كما يظن من لم يمعن في المسألة تأملا ونقدا وقد أجمع الرأي العام داخل المغرب وخارجه على أن تربية الأمم هي صلاح الكون أو فساده ولا سبيل لأمة أن تحل المحل اللائق من الرقي الا بتعليم البنت وتهذيبها وبقدر تعميم رقي البنت الفكري والأخلاقي ترقى الأمة وبقدر نقصان ذلك التعميم تنحط الأمة، لهذا يروى أن بعض مهرة القواد سئل عن أي حصون بلاده أمنع فقال المرأة الصالحة وهذا لعمري حد جامع مانع للمرأة كاف في التنبيه على خطر أمرها ووجوب تعليمها وحجابها وصونها والاعتناء بها وأن العلم آكد حاجة للانسان في حياته بعد القوت وبقدر انتشاره في الأمم تشتد الحاجة إليه في الذكور والاناث معا وهو الغاية التي يسعى إليها كل من يريد السعادتين، إذا كان ذلك فلا يكفي في تعليم البنت القراءة والكتابة على الطراز القديم الصعب القليل الجدوى وحفظ يسير من القرآن أو كله من غير فهم ولا استفادة فكر ولا يكفي تعلم صنعة أو صنائع بدون تهذيب وهذا هو جل ما هو موجود في المدارس الآن (إلا من أراد أن يعلم ابنته شيئا من مبادئ الفرنسية وطلب ذلك) فمدارس البنات الآن مدارس أولية صناعية ولم تصل إلى أن تكون ابتدائية أو تهذيبية وأعظم سبب في ذلك عدم وجود معلمات مغربيات يعرفن

شيئا من العلم أو التهذيب غير قراءة لفظ القرآن العظيم ولا يحسن شيئا من العلوم الدينية المفروض علينا تعليمها للبنات عينا ولا حتى قراءة القرآن أو رسمه كما ينبغي وإن هذا لشيء غير مفيد إفادة يحسن السكوت عليها، وهناك بنات يتعلمن عند الراهبات الانكليزيات وغيرهن في الجديدة وفي مدن أخرى غيرها والكل يعلم ذلك وما فيه وخطره على الناس وعلى الدين وعليه فالواجب أن يرقى تعليم البنات إلى قدر أعلى من ذلك وأن نزيده نظاما وتحسينا حتى يحصل منه المقصود الذي بيناه آنفا تعليما ابتدائيا أدبيا إسلاميا صناعيا.

فنحب أن ترقى البنت ترقية صحيحة متينة تجمع بين تهذيب الأخلاق والعلم والعمل وذلك بأن تعلم البنات زيادة على قراءة ما تيسر من القرآن الذي تتعلمه الآن القراءة والكتابة والخط والرسم بطريق أسهل وأتقن طبق ماهو جار في المدارس الابتدائية للذكور وأرقى تعلم ضروريات الدين من عقائد وعبادات ومبادئ النحو والآداب العربية كذلك تعليما ابتدائيا مع المطالعة والاملاء والانشاء المناسب تعلم الحساب كذلك وعلى الأقل قواعده الأربع بحيث إذا مات زوجها وأصبحت وصية على أولادها أو تصرفت لنفسها تعرف ضبط ماهي مضطرة إليه حسابا وكتابا لئلا يذهب مالها ومال المحاجير ضحية الجهل والغلط والنسيان، وتتعلم الجغرافية والتاريخ ومبادئ العلوم ومنها الهندسة العملية وكل ماله علاقة بالأدب والثقافة تعليما ابتدائيا يصيرها قادرة على التفكير الصحيح تتعلم الأخلاق الاسلامية تعليما وتخلقا فحسن الخلق يقدم عند عقلاء الناس على حسن الخلق وما سعادة المرأة إلا في أخلاقها الكريمة الدائمة لا في جمالها الذاهب فلتكن عروسة

صالحة وأما رؤوفا لتصلح لسيادة البيت ورياسته أما الجمال أو المال وحدهما فلا يؤهلانها لذلك لا سيما مع انتشار العلم في الذكور تتعلم تدبير المنزل بمعناه الحقيقي والاقتصاد والرشد في الأحوال تتعلم تدبير الصحة والرياضة البندية لما في ذلك من حفظ صحتها وصحة أولادها لتربيتهم جسما وروحا وأدبا تتعلم فن التربية لتحسن تربيتهم به وتسبك منهم جواهر نفيسة تكون حلية في تاج البلاد المغربية تتعلم صنعة أو أكثر كالخياطة والطرز والفنون الجميلة والطهي وغير ذلك استعدادا للطوارئ ولاسيما إذا كانت فقيرة فالصنعة لها ضرورية، فإذا حصلت الفتاة على هذا القدر من التهذيب أمكنها أن تؤدي وظيفتها وكانت خيرا على أمتها، فإن بقيت جاهلة كانت عضوا أشل وشقا ذا شلل ولعله عن قريب سيجيء يوم نندم غاية الندم فيه على عدم ترقية البنت ونجدها أفلتت من يدنا جاهلة بعلومنا الصالحة لنا فتتعلم علوما لا تليق بنا وتكون أعظم كارثة عاناها المغرب.

فهذا القدر من التعليم الابتدائي الديني الأدبي الدنيوي هو الذي أقوله جهرا وأطلبه وأحض عليه وأعتقد أنه لا سبيل لرقينا وانتشالنا مما نحن فيه من تأخر أحوالنا ونقصان مدارك رجالنا وسوء نظام مجتمعنا إلا به، ويمكن الفتاة أن تحصل عليه قبل أوان الحجاب إذا أدخلت المدرسة وهي بنت خمس سنين فلا تأتي السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة إلا وهي محصلة لذلك فعند ذلك يسدل الحجاب وتكمل تعلمها ان شاءت داخل الباب إذ لكل نفس حق طبيعي في طلب الكمال وتنمية الملكة الفاضلة إلى أقصى حد ممكن.

ولست أرى من حاجة لبنت المغرب الذي يرى الحجاب دينا حقا وشريعة محكمة يجب حفظها وعليه مبنى نظام العائلة أن تدخل مدرسة ثانوية لتحوز إجازة دبلوم أو باكلوريا أو غيرها مما يفعلونه في الشرق وإني أرى سد الذرائع هنا واجبا فلنقتصر بهن على التعليم الابتدائي الذي يقتصر عليه سواد الأمم الراقية فضلا عن أمة مثلنا لا يحصله منها إلا القليل من الذكور.

*****

المرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسؤولة عن رعيتها(*)

للفقيه محمد بن العربي العلوي

الحمد لله حمدا كثيرا والصلاة والسلام على من بعثه الله بشيرا ونذيرا

أيها السادة الكرام وأعني ذكرانكم وإناثكم جريا على سنة القرآن وهدي سيد ولد عدنان ومتعارف العرب أهل اللسان من جميع الذكور والاناث في خطاب واحد بصيغة المذكر اشارة إلى أنهما شيء واحد لا فرق بينهما في مسؤولية الحياة إلا فيما اقتضته وجهة كل منهما من الاختصاص كما هو مقرر في الأصول الفقهية والقواعد البيانية واحتراما وإجلالا للمرأة ان تواجه بالخطاب على رؤوس الملأ والأشهاد وغيرة عليها اقتضتها الحشمة والصيانة ولله در ابن زيدون إذ يقول:

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ... فقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

إذا انفردت وما شوركت في صفة ... فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا

(*) حديث إذاعي ألقاه الفقيه محمد بن العربي العلوي (وزير العدلية)، بتاريخ 1943/10/3، جريدة السعادة، ع 5953، السنة 40، 13 شوال 1362هـ موافق 13 أكتوبر 1943.

سادتي

إذا كانت المرأة راعية على بيت زوجها وولده كما في الحديث النبوي المتفق عليه بمعنى أنها اميرة على ذلك ومكلفة بتدبيره كان الواجب أن تدرع بدرع من العلم حصين وتسلح بالمعارف والأخلاق الدينية الفاضلة للقيام برعايتها وإمارتها أتم قيام وأحسنه، اما إذا أسندت إليها هذه المهمة وحملت هذا العبء الثقيل وهي عزلاء من كل علم ومعرفة خالية من كل تربية وتجربة فإنها تعجز لا محالة فتضيع ولايتها ويبنى بيتها على جرف هار.

سادتي

إن المرأة هي أساس المنزل الذي تنبني عليه جدرانه وأركانه، وأوتاده التي ترسى بها عمده وأسبابه كما أن الزوج هو عمده وجدرانه ولله درّ الأفوه الأودي في قوله :

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ... ولا عمود إذا لم ترس أوتاد

إن المرأة هي قهرمانة البيت والقيمة عليه فهي المسؤولة عن إصلاحه وترتيبه ووضع كل شيء موضعه وأنى للجاهلة أن تقوم بذلك كما ينبغي فقد يفعل الجاهل بنفسه مالا يفعل العدو بعدوه ويرحم الله القائل :

رام نفعا فضر من غير قصد ... ومن البر ما يكون عقوقا

إن المرأة هي المدرسة الأولى للأولاد وهي القالب الذي يصب فيه الناشىء اذ يخرج للدنيا على الفطرة قابلا لكل ما يلقنه وكالماء شفافا يتلون بلون إنائه فالواجب أن يكون ذلك القالب وذلك الإناء

على أجمل شكل وأكمل هندام وأخلاق ولا يكون ذلك الا بالعلم الصحيح وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه.

إن المرأة مسؤولة عن معاشرة قرينها وشريكها في البيت وروحها الثانية فلابد أن تعلم حقوق الزوج وواجبات الزوجية لتجلب السعادة لزوجها ولنفسها ولبيتها ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف كما يقول الله جل ذكره.

هذا بعض ما أجمله مهذبنا الأكبر ومربينا الأطهر صلى الله عليه وعلى آله وسلم في قوله : والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسؤولة عن رعيتها.

سادتي :

إن المرأة مكلفة قبل ذلك بمعرفة ربها وخالقها ومنشئها وممدها فلا مناص من تعليمها ما تيسر من القرآن ومن سنة النبي عليه الصلاة والسلام لتعلم أن لا إله إلا الله حق العلم وأن معنى هذه الكلمة التي هي مفتاح الاسلام انه لا خالق ولا رازق ولا معطي ولا مانع ولا نافع ولا ضار ولا ولا إلخ. الا الله تعالى فإذا تحصنت بهذا الحصن المنيع وتدرعت بهذه الدرع السابغة سلمت أمرها كله إلى خالقها آمنة من كل قوة غيبية غيره مستهزئة بالخرافات والمنحرفين والساحرين والمشعوذين إلى غير ذلك مما هو غير خفي.

إن المرأة مسؤولة عن نبيها ومبلغها رسالة ربها لتعلم حقيقة قولها محمد رسول الله فيكون قوله وما جاء به هو قائدها

ومرشدها وسيرته هي مقتداها وأسوتها، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فلا محيد لها عن معرفته ومعرفة سيرته لتأمن بسبب ذلك من مخالفته وتقديم هدي غيره على هديه كما انه لابد لها من معرفة سيرة سلفنا الصالح من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه وأهل بيته وتابعيهم بإحسان لتأمن الغلط والخطأ في الاتباع والاقتداء.

فكل خير في اتباع من سلف　　　وكل شر في ابتداع من خلف
وخير أمور الدين ما كان سنة　　　وشر الأمور المحدثات البدائع

هذا إجمال فيما على المرأة تعلمه وقل من كثير لا تسمح هذه العجالة ببسطه.

تكفي اللبيب اشارة مرموزة　　　وسواه يفهم بالنداء العالي

سادتي

إن العلم هو العلم وكفى مدحا :

اشر لي بوصف واحد من صفاته　　　تكون كمن سمى وكنى ولقبا

وقد قال عليه السلام كفى بالعلم شرفا أن كلا يدعيه وبالجهل خسة أن كلا يتبرأ منه فبالعلم يمتاز النوع الانساني من أخيه في الجنس النوع العجماوي فكلما ازداد الانسان عليا ازداد انفصالا عن الحيوان الأعجم وازداد قدرا وعلاء وقيمة وكرم الله وجه علي اذ يقول : قيمة الانسان ما يحسنه ونظم ابن الوردي فقال :

قيمة الانسان ما يحسنه　　　أكثر الانسان منه أو أقل

فلو لم يكن العلم هو الوسيلة لكل خير والوقاية من كل شر لما كان طلبه متعينا على كل انسان لأن به كماله وشرفه.

لذلك تضافرت آي القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم على مدحه والحث عليه، قال تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء وقال يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، وقال ما يعقلها إلا العالمون وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقل ربي زدني علما مع أنه سيد العالمين إرشادا لنا وتعليما، لنكون متعطشين إلى العلم ولذلك قال سلفنا أطلب العلم من المهد إلى اللحد وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عدي والبيهقي وابن عبد البر اطلبوا العلم ولو بالصين وقال فيما يرويه ابن عدي والطبراني في معاجمه والخطيب والبيهقي طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كما بينا سالفا من شمول خطاب المذكر للأنثى ولذلك يزيد بعضهم في الحديث ومسلمة فهو بيان وتفسير للمراد وليس المراد انه وردت الرواية بذلك فلا يعترض عليه على أن في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأمره للنساء بالخروج لمصلى العيد وحضور الجمعات والجماعات ليشهدن الخير ودعوة المسلمين حتى العواتق وذوات الخدور ولم يعذر في ذلك من لا جلباب لها أمرا اختها يعني في الاسلام أن تسترها معها بجلبابها وإفراده النساء بالوعظ والنصيحة لما ظن أنهن لم يسمعن خطابه وسيرة ازواجه الطاهرات وغيرهن من الصحابيات وما علمن من العلم ونقلن للمسلمين من سيرة سيد المرسلين وتبعهن على ذلك نساء المؤمنين في كل وقت

وحين فالمطلع على التاريخ يجد في كل وقت منهن طائفة صالحة في كل فن وخصوصا رواية الحديث النبوي فلا زلن يأخذن عن الرجال ويأخذ الرجال عنهن إلى الآن نقول ان في ذلك كله ما لا يترك ريبة في وجوب تعليم المرأة شرعا كما يجب طبعا. والنهاية القصوى في الترغيب في تعليم البنات هو الحديث المتفق عليه وترجم له البخاري بقوله باب تعليم الرجل أمته وأهله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يوتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فاحسن تعليمها ثم اعتقها فتزوجها وتصور ربة بيت ربيت تربية دينية وتعلمت تعليما اصلاحيا، ألا تتصور السعادة ضاربة أطنابها على أهل ذلك البيت والاصلاح ناشرا أجنحته عليهم فلا غش ولا خيانة ولا خداع ولا مكر ولا تبذير ولا إسراف ولا كسل ولا عجز ولا افراط ولا تفريط ولا انخداع ولا قبول تلبيس.

ثم تصور بيتا بني على امرأة فاقدة للتربيتين الدينية والدنيوية جاهلة بحق ربها ونبيها وسلفها وبعلها وأولادها وسيرة سلفها لاشك أنك تتصور بؤرة فساد أخلاق وغش خداع ونفاق وتلبيس وتبذير وانخداع لكل مشعوذ وملبس لطلب المكانة عند الزوج من طرف الطلسمات والجداول وضرب الفال وغير ذلك مما يستحي من ذكره.

ولا باس أن نكرر على الاسماع حكاية يكثر الناس من ذكرها للاعتبار ذلك أنهم قالوا إن رجلا عرض عبدا للبيع على أنه لا عيب

فيه الا أنه يكذب كذبة في السنة فاستهان مشتريه بهذا العيب فبقي مدة على استقامة حتى اطمأن له أهله الجدد فقال للزوجة يوما إن سيدي يريد أن يتزوج عليك وجعل يفتل منها في الدروة والغارب إلى أن صدقته فاستشارته ما المخلص من هذا فقال لابد من سحره ليكف عن التزوج وذلك متوقف على شعرات من ذقنه فواطأته على ذلك فذهب إلى سيده وقال له إن سيدتي تراكنت مع غيرك على التزوج بها واتفقت معه على ذبحك فتناعس لترى فأظهر السيد النوم فأتت البلهاء بموسى فحنت على الزوج لتأخذ الشعر فأيقن بما قاله له العبد فقتلها واعلم العبد اقاربها فقتلوه واحتدم القتال بين أوليائهما حتى خلت القرية وبقي هو يتفرج على ذلك. هذا منشأ المثل العامي ـ اخلاها برك واقعد يشوف ـ فلو كانت المسكينة محصنة بالعلم الصحيح لما أمكن لذلك الوغد خداعها وكم من ضحية جهل سقته زوجه ما فيه حتفه قاصدة بذلك التقرب إليه والتودد ولكن جهلها وعدم الاعتماد على خالقها تركها تنقاد لكل غاش ومخادع من أصحاب الطلاسم والعزايم ومن عجايز النحس، من الشوافات والطلاعات وحم وميرة وأولاد ابن الأحمر أسماء ما انزل الله بها من سلطان فلو كانت تلقن المبادئ الإسلامية الحقة والعلوم الصحيحة المبنية على سنن الكون وأسبابه المعقولة لما وجد السبيل إليها غاش ولا خائن ولما بذرت ثروتها وثروة زوجها في السفاسف والأوهام وقد ذكروا أن امرأة غني كانت معه في مذاكرة فقالت له إن الخير امرأة والشر امرأة فمر حطاب في غاية البوس يتعثر بحزمة حطبه فقال لها هل يمكنك أن تصلحي من حال هذا لو كنت عنده فقالت نعم فطلقها وتزوجت الحطاب فأخذت تقتصد له من ثمن الحطب ما اشترى به بهيمة تريحه وتنمي كسبه، ثم

ادخرت له من ذلك ما يشتري به مسكنا يسكنه بلا كراء وهكذا اتخذ دكاناوصار يبيع ويشتري إلى أن أثري فدارت الأيام دورتها فإذا زوجها الأول يتكفف على باب دارها من غير أن يعرفها فتعرفت له وأخبرها أنه تزوج امرأة جاهلة فصار بتبذيرها وسوء تدبيرها إلى هذه الحالة والأمر ما قال عامتنا - محولت كشينة تبني مدينة - يريدون بالمحاولة الاقتصاد وقد ورد ما عال من اقتصد كما في المسند عن ابن مسعود، والاقتصاد نصف العيش.

إذا فالعلم أيها السادة هو طريق النجاح والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه وقد قال جل وعلا **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** قال السموأل :

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم　　فليس سواء عالم وجهول

لا تقل أيها المستمع الكريم قد اطلت الاحتجاج على الواضح المسلم واقمت الدلائل على الشمس في رابعة النهار.

وليس يصح في الأذهان شيء　　اذا احتاج النهار إلى دليل

فعذري إليك أيها الألمعي هو أنه قد يخال بعض من لم ينظر إلى بواطن الأمور أن بالتعلم يمكنها أن تتوسل إلى بعض الأغراض السيئة، لما يراه مز التهتك في بعض المتعلمات غافلا عن كون ذلك إنما نشأ عن تلقين مذهب الماديين الإباحيين لا عن العلم الصحيح كما بينا.

سادتي

بهذا التعليم الصحيح تكون المرأة كفوءاً لولاية بيت زوجها ورعايته.

فلذلك انبعثت همة مولانا ولي النعم إلى القيام بحق رعيته وولايته العامة إذ هو أول الأمراء في الحديث الشريف المتفق عليه وهو قوله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها إلخ.

فبعد ما شملت عنايته أرشده الله وأعانه نصف الأمة وهو ذكورها بما أسسه وما هو عازم علي تأسيسه من المدارس والمعاهد، التفتت إلى النصف الثاني اذ به يتم بناء الأمة على الوجه الصحيح فاقتضى نظره أعزه الله بعد الاستشارة مع ذوي الخبرة بأحوال الأمة وأصحاب العلم الصحيح من شيوخ وشبان المغاربة لما لهم من الاطلاع على أحوال قومهم وعلى مقتضيات دينهم الاسلامي ومن رجال الدولة الحامية لاطلاعهم الواسع وخبرتهم التامة بأساليب الاصلاح والتعليم أن يدخل بعض التعديل على مدارس البنات لتكون أكثر ملاءمة مع التربية الدينية والأهلية وإنشاء مدارس أخرى علمية على نمطها وأخرى صناعية يكون حظ القرآن والأخلاق الدينية وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح كافيا وافرا في الجميع وكذا حظ اللسان العربي والتدبير المنزلي، وحيث كان لا يتيسر للفقيهات والمعلمات

المسلمات القيام به على وجهه الآن تعين أن يندب له من الذكور من فيه الأهلية علما ودينا على أن يسند اختيارهم لرؤساء العلم الاسلامي وللقضاة حيث لا رئيس علم بالمحل وعلى أن يسابق بين المرشحين انتخابا للأفضل كما يعين مفتشون أهليون بحسب المصلحة، لكل ناحية مفتش تراعى فيه الأهلية معرفة وأخلاقا وذلك ريثما ينبغ من بناتنا من تصلح للقيام بوظيفي التعليم والتفتيش لأن تعليم المعلمات للبنات أبعد عن القيل والقال على أن تعليم الرجل للمرأة والمرأة للرجل في دائرة الدين والحشمة مما لا نزاع فيه وإذا كان لا يقبل في المدرسة الا من لم تتجاوز السنة الثالثة عشرة من غير تقييد لسنة الدخول إلا بكونها لا تقل عن الخامسة كما اقتضاه نظره السامي فلا محل للخوف على البنت حتى لو لم تكن هذه الاحتياطات، وكيف معها، نعم قد وقعت المسامحة لبعض التلميذات اللاتي أشرفن على إحراز الشهادة الابتدائية في السنة المقبلة فقط أن يتممن دروسهن وإن جاوزن الثالثة عشرة الى الرابعة عشرة والمقصود من هذا هو أن تحصل البنت على الشهادة الابتدائية، ولمن شاءت إتمام دروسها في المدارس الأخرى أو حيث يمكنها فلا تحجير وسينشر عليكم باقي البرنامج في فرصة أخرى إن شاء الله.

إنما المهم في المسألة هو أن سيدنا أعزه الله ارتكب كل ما يمكن به نجاح بناتنا في دائرة قوميتهن ودينهن خاطيا بنا خطوة إلى الأمام على قدر استعدادنا وأهليتنا وأول الغيث قطر ثم ينهمر.

وإذا رأيت من الهلال نموّه　　أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

فالواجب أن نقدم له يد المساعدة والمناصحة شكرا له على جده واجتهاده ونصحه وإخلاصه سائلين الله تبارك وتعالى أن يمد في حياته وأن يمده بتوفيقه وإعانته وأن يقر عينه بولي عهده وبباقي أنجاله الكرام آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمين.

*****

تحرير الاسلام للمرأة، وتطويره لوضعها الاجتماعي :
صورة تطبيقية من السنة النبوية

لعل أصدق وأدق ما يعكس الانقلاب الذي حدث لوضع المرأة الإجتماعي الذي أحدثه الاسلام فحقق لها حرية التصرف والتعبير بدرجة مساوية لما كفله للرجال، ما جاء في قصة ايلاء رسول الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام من نسائه - رضي الله عنهن - كما رواها ابن عباس عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - فيما أخرجه كل من :

أحمد في «المسند» ج 1، ص 80/78، ح 222 - قال :

حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزُّهْري، عن عبيد الله بن أبي ثور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى : **﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما﴾**، حتى حج عمر رضي الله عنه وحججت معه، فلما كنا ببعض الطريق عدل عمر رضي الله عنه وعدلت معه بالإِدَاوَة، فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت : يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالى : **﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما﴾**، فقال عمر رضي الله عنه : واعجبا لك يا ابن عباس قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه عنه، قال : هي حفصة وعائشة، قال : ثم أخذ

يسوق الحديث، قال : كنا معشر قريش قوما تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة، وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال : وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي، قال: فتغضبت يوما على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت : ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وتهجره احداهن اليوم إلى الليل، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، قالت : نعم. قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت : نعم، قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن احداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئا، وسليني ما بدا لك؟ ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله منك، يريد عائشة رضي الله عنها. وساق باقي الحديث.

وأخرج البخاري هذا الحديث مختصرا أحيانا، ومفصلا أحيانا أخرى في صحيحه، في كل :

- ج 2، ص 741/739، ك : المظالم ب : الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها، ح 2468 - قال :

حدثنا يحيى بن بكير : حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عبيد الله بن أبي ثور، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر رضي الله عنه، عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، اللتين قال الله لهما : ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما﴾، فحججت معه، فعدل

وعدلت معه بالاداوة، فتبرز، حتى جاء فسكبت على يديه من الاداوة فتوضأ، فقلت : يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، اللتان قال الله عز وجل لهما : **﴿ان تتوبا إلى الله﴾**، فقال : واعجبي لك يا ابن عباس، عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه، فقال : اني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم : فينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت : ولم تنكر أن أراجعك، فوالله ان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وان احداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني، فقلت : خابت من فعل منهن بعظيم، ثم جمعت علي ثيابي فدخلت على حفصة، فقلت : أي حفصة، أتغاضب احداكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل؟ فقالت : نعم، فقلت : خابت و خسرت، أفتامن أن يغضب الله لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكين، لا تستكثري على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه، واسأليني مابدا لك، ولا يغرنك ان كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يريد عائشة - وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضربا شديدا، وقال : أنائم هو، ففزعت، فخرجت إليه، وقال : حدث أمر عظيم، قلت : ماهو، أجاءت غسان ؟ قال : لا، بل أعظم منه وأطول، طلق

رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، قال : قد خابت حفصة وخسرت كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علي ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل مشربة له فاعتزل فيها، فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي، قلت: ما يبكيك، أو لم أكن حذرتك، أطلقكن رسول الله صلي الله عليه وسلم؟ قالت : لا أدري، هو ذا في المشربة، فخرجت فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلا، ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي هو فيها، فقلت لغلام له أسود : استأذن لعمر، فدخل فكلم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم خرج فقال : ذكرتك له فصمت، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت فذكر مثله، فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام، فقلت : استأذن لعمر، فذكر مثله، فلما وليت منصرفا فإذا الغلام يدعوني، قال : أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلت عليه، فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش قد أثَّر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم، حشوها ليف، فسلمت عليه، ثم قلت وأنا قائم : طلقت نساءك؟ فرفع بصره إلي، فقال : « لا »، ثم قلت وأنا قائم : طلقت نساءك؟ فرفع بصره إلي، فقال : « لا » ثم قلت وأنا قائم استأنس : يا رسول الله، لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، فذكره فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قلت : لو رأيتني ودخلت على حفصت فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم - يريد عائشة - فتبسم أخرى، فجلست حين رأيته تبسم، ثم ساق باقي الحديث.

وفي ج 1، ص 56، ك : العلم ب : التناوب في العلم، ح 89، قال :
حدثنا أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري قال أبو عبد الله : وقال ابن وهب : أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن عبد الله ابن عباس، عن عمر، وساق من الحديث طرفا.

وفي ج 4، ص 1671/1669، ك : النكاح ب : موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ح 5191 ـ وساق الحديث المتقدم في المظالم رقم 2468 بنفس السند واللفظ.

ثم، ص 1678، ح 5218 قال :
حدثنا عبد العزيز بن عبد الله : حدثنا سليمان، عن يحيى، عن عبيد بن حنين سمع ابن عباس عن عمر. وساق طرفا من الحديث.

وفي ص 1863/1862 ك : اللباس ب : ما كان النبي يتجوز من اللباس والبسط ح : 5843، قال :

حدثنا سليمان بن حرب : حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن عبيد بن حنين، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لبثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم، فجعلت أهابه، فنزل يوما منزلا فدخل الاراك، فلما خرج سألته فقال : عائشة وحفصة، ثم قال : كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئا، فلما جاء الاسلام وذكرهن الله، رأينا لهن بذلك علينا حقا، من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا، وكان

بيني وبين امرأتي كلام، فأغلظت لي، فقلت لها : وانك لهناك ؟ قالت : تقول هذا لي وابنتك تؤذي النبي صلى الله عليه وسلم فأتيت حفصة فقلت لها : اني أحذرك أن تعصي الله ورسوله، وتقدمت إليها في أذاه، فأتيت أم سلمة فقلت لها، فقالت : أعجب منك يا عمر، قد دخلت في أمورنا فلم يبق الا أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه؟ فرددت. وساق باقي الحديث.

وفي ج 5، ص 2267 ك :أخبار الآحاد ب : ماجاء في اجازة خبر الواحد الصدوق ح : 7256، قال :
حدثنا سليمان بن حرب : حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد عن عبيد بن حنين، عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم قال. وساق طرفا من الحديث.

وفي ص : 2269، ب : قوله تعالى **﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾**، فإذا أذن له واحد جاز ح : 7263 :
حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان بن بلال، عن يحيى عن عبيد بن حنين : سمع ابن عباس، عن عمر رضي الله عنهم قال : وساق طرفا من الحديث.

وفي ج 3، ص 1568/1567 ك : التفسير ب : 2، ح : 4913، قال :
حدثنا عبد العزيز بن عبد الله : حدثنا سليمان بن بلال، عن يحيى، عن عبيد بن حنين : أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يحدث أنه قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجا فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الاراك لحاجة له، قال :

فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت : يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه، فقال : تلك حفصة وعائشة، قال : فقلت : والله ان كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك، قال : فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به، قال : ثم قال عمر : والله انا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، قال : فيما أنا في أمر أتأمره، اذ قالت امرأتي : لو صنعت كذا وكذا، قال : فقلت لها : مالك ولما هاهنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟، فقالت لي : عجبا لك يا ابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان، فقام عمر، فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة، فقال لها : يا بنية انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة : والله انا لنراجعه، فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يا بنية لا تغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها - يريد عائشة - قال : ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة : عجبا لك يا ابن الخطاب، دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه، فأخذتني والله أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها.

(18) وأخرجه مسلم في «الصحيح»، ج 2، ص : 1106/1105، ك : الطلاق ب : (5) الايلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى :

ان تظاهرا عليه، ح : 1479، قال :
حدثني زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار عن سماك أبي زميل، حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال : لما اعتزل نبي الله صلى الله عليه وسلم نساءه قال : دخلت المسجد فاذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، فقال عمر : فقلت : لأعلمن ذلك اليوم، قال : فدخلت على عائشة، فقلت : يابنت أبي بكر، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟. فقالت : مالي ومالك يا ابن الخطاب؟ عليك بعيبتك، قال : فدخلت على حفصة بنت عمر، فقلت لها : يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله، فبكت أشد البكاء فقلت لها : أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت : هو في خزانته في المشربة، فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا على أسكفة المشربة، مدل رجليه على نقير من خشب، وهو جدع يرقي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر، فناديت : يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إلي فلم يقل شيئا، ثم قلت : يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إلي، فلم يقل شيئا، ثم رفعت صوتي فقلت : يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاني أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظن أني جئت من أجل حفصة، والله، لئن أمرني رسول الله صلى الله عليه

وسلم بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إلي أن ارقه، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه ازاره، وليس عليه غيره، واذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق قال : فابتدرت عيناي، قال : «ما يبكيك؟ يا ابن الخطاب» قلت : يا نبي الله، ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والانهار، وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته، وهذه خزانتك، فقال : «يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت : بلى، قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت : يا رسول الله، ما يشق عليك من شأن النساء؟ فان كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلما تكلمت، وأحمد الله، بكلام الا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية، آية التخيير **﴿عسى ربه إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزواجًا خيرًا مِنكُنَّ﴾**، التحريم5، **﴿وان تَظَاهَرا عليه فإنَّ اللهَ هو مَوْلاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظهير﴾**، التحريم4. وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت : يارسول الله، أطلقتهن؟ قال : «لا» قلت : يا رسول الله، اني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال : «نعم، إن شئت» فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى كشر

فضحك، وكان من أحسن الناس ثغرا، ثم نزل نبي الله صلى الله عليه وسلم ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده، فقلت : يا رسول الله، انما كنت في الغرفة تسعة وعشرين، قال : «ان الشهر يكون تسعا وعشرين» فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي : لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه. ونزلت هذه الآية : **﴿وإذَا جَاءَهم أمرٌ من الأمنِ أو الخوف أذَاعُوا به ولو ردُّوهُ إلى الرسول، وإلى أولِي الأمرِ منهم لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنبِطُونَهُ مِنهم﴾**، النساء 83، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وأنزل الله عز وجل آية التخيير.

ثم قال، ص 1108 :

حدثنا هارون بن سعيد الأيْليّ، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني سليمان (يعني ابن بلال)، أخبرني يحيى، أخبرني عبيد بن حنين، أنه سمع عبد الله بن عباس يحدث. ثم ساق الحديث المتقدم عند البخاري رقم (4913) في كتاب التفسير.

وقال، ص 1110 :

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرني يحيى بن سعيد عن عبيد بن حنين عن ابن عباس، قال : أقبلت مع عمر، حتى اذا كنا بمرّ الظّهران، وساق الحديث بطوله، كنحو حديث سليمان بن بلال، غير أنه قال : قلت : شأن المرأتين؟ قال : حفصة وأم سلمة وزاد فيه : وأتيت الحجر فاذا في كل بيت بكاء، وزاد أيضا : وكان آلى منهن شهرا، فلما كان تسعا وعشرين نزل اليهن.

وقال :

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب (واللفظ لأبي بكر) قالا : حدثنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد، سمع عبيد بن حنين (وهو مولى العباس) قال : سمعت ابن عباس يقول : كنت أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم ساق طرفا من الحديث.

وقال في، ص 1111 :

حدثنا اسحاق بن ابراهيم الحنظلي ومحمد بن أبي عمر (وتقاربا في لفظ الحديث) (قال ابن أبي عمر : حدثنا، وقال اسحاق : أخبرنا عبد الرزاق)، أخبرنا معمر عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس قال : وساق الحديث بلفظه المتقدم في رقم (2468) من صحيح البخاري.

وأخرجه الترمذي في «الجامع»، ج : 5 ص : 423/420، ك : (48) تفسير القرآن ب : (66) من سورة التحريم، ح 3318 :

حدثنا عبد بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : لم أزل حريصا أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله عز وجل **﴿ان تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما﴾**. وساق لفظ الحديث المتقدم في صحيح البخاري رقم (2468). وعقب عليه : هذا حديث حسن صحيح، قد رُوي من غير وجه عن ابن عباس. ولعله يشير إلى الطرق السالفة وإلى التي ستعقب.

وأخرجه النسائي في «المجتبي»، ج : 4 ص : 138/137، ب : كم الشهر ح 2132 :

أخبرنا عبيد الله بن سعد بن ابراهيم قال : حدثنا عمي قال : حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب أن عبيد الله بن عبد الله ابن أبي ثور حدثه.

أخبرنا عمرو بن منصور قال : حدثنا الحكم بن نافع قال : أنبأنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن ابن عباس قال : لم أزل حريصا أن اسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله فيهما ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما﴾ وساق الحديث، وقال فيه : فاعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعا وعشرين ليلة، قالت عائشة : وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حين حدثه الله عز وجل حديثهن، فلما مضت تسع وعشرون ليلة، دخل على عائشة، فبدأ بها، فقالت له عائشة : انك قد كنت آليت يا رسول الله أن لا تدخل علينا شهرا، وإنا أصبحنا من تسع وعشرين ليلة نعدها عددا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الشهر تسع وعشرون ليلة».

وأخرجه ابن حبان في «علاء الدين الفارسي : الاحسان في تقريب صحيح ابن حبان» ج : 9 ص : 495/492، ك : (14) النكاح ب : (8) معاشرة الزوجين، ح : 4187 :

أخبرنا محمد بن الحسن بن قتيبة، قال : حدثنا حرملة بن يحيى قال : حدثنا ابن وهب، قال : أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن ابن عباس قال: وساق الحديث المتقدم بلفظه في صحيح البخاري رقم (2468).

وفي - ج 10، ص 89/85 ك : (16) الطلاق ب : ذكر البيان بأن عائشة لما خيرها المصطفى صلى الله عليه وسلم اختارت الله جل وعلا وصفيه صلى الله عليه وسلم ح : 4268 - قال :

أخبرنا ابن قتيبة، قال حدثنا ابن أبي السري، قال : حدثنا عبد الرزاق، قال : أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثورعن ابن عباس قال : لم أزل حريصا أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قال الله : **﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾** - التحريم : 4، حتى حج عمر فحججت معه، فلما كان في بعض الطريق عدل ليتوضأ، وعدلت معه بالاداوة فتبرز، ثم أتاني، فسكبت على يديه، فتوضأ فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله : **﴿إن تتويا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾**؟ فقال عمر : واعجبا لك يا ابن عباس، ثم قال : هي عائشة وحفصة : ثم ساق الحديث.

وأخرجه البيهقي في «السنن الكبرى». ج : 7 ص : 38/37 ك : النكاح ب : ما وجب عليه من تخيير النساء - قال :

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الجبار السكري ببغداد أنبأ اسماعيل بن محمد الصفار حدثنا أحمد بن منصور حدثنا عبد الرزاق أنبأ معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم أزل حريصا أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى **﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما﴾** حتى حج عمر رضي الله عنه وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر رضي الله عنه لحاجته وعدلت معه بالاداوة فتبرز، ثم أتى فسكبت على يديه فتوضأ فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالى **﴿ان تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما﴾** فقال عمر رضي الله عنه : واعجبا لك يا ابن عباس، قال الزهري رحمة الله تعالى كره والله ما سأله ولم يكتمه قال : هي حفصة وعائشة، ثم أخذ يسوق الحديث فقال : كنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم قال : وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي، فتغضبت يوما على امرأتي فإذا هي تراجعني فانكرت أن تراجعني فقالت : ما تنكر أن أراجعك فوالله ان ازواج النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه وتهجره احداهن اليوم إلى الليل، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : نعم، وتهجره احداهن اليوم إلى الليل؟ قالت : نعم، قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن، وخسر أفتأمن احداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئا

وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك ان كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ـ يريد عائشة ـ وساق باقي الحديث.

*****

قاسم أمين وتحرير المرأة

مقتطفات من كتابيه «تحرير المرأة» ، «المرأة الجديدة».

يقول قاسم أمين في كتابه : «تحرير المرأة»[1] :

إني أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معي في حالة النساء المصريات، وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التي وصلت إليها. وهي : ضرورة الاصلاح فيها. هذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وامتحنها واحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني، وزاحمت غيرها، وتغلبت عليه، وصارت تشغلني بورودها، وتنبهني إلى مزاياها، وتذكرني بالحاجة إليها، فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر....

سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة. فأقول : نعم أتيت ببدعة، ولكنها ليست في الاسلام، بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها.

لِمْ يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها إلى الأبد؟ ولم يجري على هذا الاعتقاد في عمله، مع أنه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل

في كل آن؟ ايقدر المسلم على مخالفة سنة الله في خلقه، اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم، والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح أمة على سلوك طريق خاصة في معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان؟ ومن ذا الذي يمكنه أن يتصور أن العوائد لا تتغير بعد أن يعلم أنها ثمرة من ثمرات عقل الانسان، وأن عقل الانسان يختلف باختلاف الأماكن والأزمان؟ المسلمون منتشرون في أطراف الأرض، فهل هم انفسهم متحدون في العادات وطرق المعاش؟ من ذا الذي يمكنه أن يدعي أن ما يستحسنه عقل السوداني يستحسنه عقل التركي أو الصيني أو الهندي. أو أن عادة من عادات البدوي توافق أهل الحضر، أو يزعم أن عوائد أمة من الأمم مهما كانت، بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير؟

والحقيقة أن لكل أمة في كل مدة من الزمن عوائد وآدابا خاصة بها، موافقة لحالتها العقلية. وان تلك العوائد والآداب تتغير دائما تغيرا غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية وغير ذلك. وان كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتما اثر يناسبها في العادات والآداب. وعلى ذلك يلزم أن يكون بين عوائد السوداني والتركي مثلا من الاختلاف بقدر ما يوجد بين مرتبتيها في العقل. وهو الأمر المشهور الذي لا ريبة فيه. وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصري والأوروباوي.

ولا يمكن أن يتصور احد ان العادات، التي هي عبارة عن طريق سلوك الانسان في نفسه ومع عائلته ومواطنيه وأبناء جنسه، تكون في أمة جاهلة أو متوحشة مثل ما تكون في أمة متمدنة، لأن سلوك كل فرد منها إنما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته.

ولهذا الارتباط ا لتام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية، نرى أن سلطان العادة انفذ حكما فيها من كل سلطان، وهي أشد شؤونها لصوقا بها، وابعدها عن التغيير، ولا حول للأمة عن طاعتها إلا اذا تحولت نفوس الأمة وارتفعت أو انحطت عن درجتها في العقل، ولهذا نرى انها تتغلب دائما على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع. ويؤيد ذلك ما نشاهده كل يوم في بلادنا من ان القوانين واللوائح التي توضع لاصلاح حال الأمة تنقلب في الحال إلى آلة جديدة للفساد. وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه.

وهذا هو الأصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخي من التلازم بين انحطاط المرأة وتوحشها، وبين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها. فقد علمنا أن في ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء، وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت سلطة أبيها ثم زوجها ثم من بعده أكبر أولادها. وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام أن يقتل الآباء بناتهم، وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا عدد

محدود. ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقيا وأمريكا المتوحشة. وبعض الأمم الأسيوية يعتقد أن المرأة ليس لها روح خالدة، وانها لا ينبغي أن تعيش بعد زوجها. ومنهم من يقدمها إلى ضيفه اكراما له كما يقدم له أحسن متاع يمتلكه.

كل هذا يشاهد في الجمعيات الناشئة التي لم تقم على نظامات عمومية، بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة، والقوة هي القانون الوحيد الذي نعرفه. وهكذا الحال الآن في البلاد التي تدار بحكومة استبدادية لأنها تحكم كذلك بقانون القوة....

سبق الشرع الاسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الأمم، وخولها كل حقوق الانسان، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الأحوال المدنية، من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على اذن أبيها أو زوجها. وهذه المزايا، التي لم تصل إلى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات، كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل. بل أن شريعتنا بالغت في الرفق بالمرأة فوضعت عنها احمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافا لبعض الشرائع الغربية التي سوت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط وميزت الرجل في الحقوق.

والميل إلى تسوية المرأة بالرجل في الحقوق ظاهر في الشريعة الاسلامية حتى في مسألة التحلل من عقدة الزواج. فقد جعلت لها في ذلك طرقا جديرة بالاعتبار.

ولم أر الا مسألة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهي تعدد الزوجات. والسبب في ذلك واضح يتعلق بمسألة النسب، التي لا يقوم للزواج حياة بدونها. وبالجملة فليس في أحكام الديانة الاسلامية ولا فيما ترمي إليه من مقاصدها ما يمكن أن ينسب إليه انحطاط المرأة المسلمة. بل الأمر بالعكس فانها اكسبتها مقاما رفيعا في الهيئة الاجتماعية.

ولكن، وا أسفاه... قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التي انتشر فيها الاسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد وأوهام، ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الأمم حدا يصل بالمرأة إلى المقام الذي أحلته الشريعة فيه، وكان أكبر عامل في استمرار هذه الأخلاق توالي الحكومات الاستبدادية علينا.

تجردت الجمعيات الاسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام. بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائما، فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة، فحكموا كيف شاؤوا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة، وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون لها صوت فيها.

نعم إن كان الحاكم صغيرا أو كبيرا فهو ملزم باتباع العدل واجتناب الظلم، لكن من المجرب أن السلطة غير المحدودة تغري بسوء الاستعمال إذا لم تجد حدا تقف أمامه ورأيا يناقشها وهيئة تراقبها. ولهذا مضت القرون على الأمم الاسلامية وهي تحت حكم الاستبداد المطلق، وأساء حكامها في التصرف، وبالغوا باتباع أهوائهم، واللعب بشؤون الرعية. بل لعبوا بالدين نفسه في أغلب الأزمنة. ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبهم.

إذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف أثره في الأنفس عند ما هو في نفس الحاكم الأعلى. ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم إلى من دونهم وينفث روحه في كل قوي بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه. يسرى ذلك في النفوس، رضي الحاكم الأعلى أو لم يرض.

كان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية ان الرجل في قوته أخذ يحتقر المرأة في ضعفها وقد يكون من أسباب ذلك أن أول أثر يظهر في الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق.

قد يمكن أن يتوهم من أول وهلة ان الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل إلى الشفقة، لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه. ولكن المشاهد يدل على أن الأمة المظلومة لا يصلح جوها ولا تنفع أرضها لنمو الفضيلة ولا يربو فيها الا نبات الرذيلة. وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين

ـ وما العهد منهم ببعيد ـ يعلمون أن شيخ البلد الذي كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مئة من الأهالي، والعمدة الذي كان يضرب مائة كرباج عند عودته إلى بلدته ينتقم من مئة فلاح.

فمن طبيعة هذه الحالة أن الانسان لا يحترم الا القوة ولا يردع الا بالخوف. ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها وأخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بأرجله على شخصيتها. عاشت المرأة في انحطاط شديد أيا كان عنوانها في العائلة، زوجة أو أما أو بنتا، ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأي، خاضعة للرجل لأنه رجل ولأنها امرأة. فنما شخصها في شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنازل، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات، واستعملها الرجل متاعا للذة، يلهو بها متى أراد، ويقذف بها في الطريق متى شاء، له الحرية ولها الرق، له العلم ولها الجهل، له العقل ولها البله، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن، له الأمر والنهي ولها الطاعة والصبر. له كل شيء في الوجود وهي بعض ذلك الكل الذي استولى عليه (...).

ويقول في مكان آخر من كتابه [2] :

إني أكرر ما قلته من أنه يستحيل تحصيل رجال ناجحين، إن لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئنهم للنجاح، فتلك هي الوظيفة السامية التي عهد التمدن بها إلى المرأة في عصرنا هذا، وهي تقوم بأعبائها الثقيلة في كل البلاد المتمدنة، حيث نراها تلد الأطفال ثم تصوغهم رجالا.

وبديهي أن العمل الأول، وهو الولادة، هو عمل بسيط مادي، تشترك فيه المرأة مع الحيوانات، فلا يحتاج إلا بنية سليمة، أما العمل الثاني، وهو التربية، فهو عمل عقلي امتاز به النوع الانساني، وهو محتاج في تأديته إلى تربية واسعة واختيار عظيم ومعارف مختلفة.

والأمر الذي يلزم أن تلتفت إليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية، هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الأمة، لأن العائلة هي أساس الأمة. ولما كانت المرأة هي أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية أول مؤثر في تقدم الأمة وتأخرها.

المرأة ميزان العائلة. فإن كانت منحطة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها، وعاشوا جميعا متحلين لا يرتبط بعضهم ببعض، ولا يعرفون نظاما ولا ترتيبا في معيشتهم، فتفسد آدابهم وعوائدهم. أما إن كانت المرأة على جانب من العقل والأدب، هذبت جميع العائلة، واحترمها أفرادها، واحترموا أنفسهم، وعاش الجميع في نظام تام تحت لواء محبتها، متضامنين، أقوياء باتحادهم، وهذه الصفات التي تشاهد في العائلة، هي الصفات التي تشاهد في الأمة، اذ كل منا يسلك في أمته مسلكه في عائلته. ومن المحال أن يكون للانسان من الصفات والأخلاق في أمته ما ليس له نموذج في منزله، وأن يعامل مواطنيه بأخلاق غير التي يعامل بها أفراد عائلته، فإن كان حسن الأخلاق في عائلته كان ذلك في أمته، وإن كان سيء الأخلاق في عائلته ساءت أخلاقه في أمته أيضا. ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة في تقدم الأمم وتأخرها.

وبالجملة فإن ارتقاء الأمم يحتاج إلى عوامل مختلفة متنوعة، من أهمها ارتقاء المرأة، وانحطاط الأمم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضا، من أهمها انحطاط المرأة.

فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم إلى ما فيه صلاحنا. وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التي ينتظر لها مرور الأزمان، ويجوز الابطاء في إعداد الوسائل لها، كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات، وإنما هي من الحاجيات، بل من الضروريات التي يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات، وهي الواجب الخطير الذي ان قمنا به سهل علينا كل اصلاح سواه، وإن اهملناه أفسد علينا كل اصلاح سواه.....

وعندي أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من أعمال النساء الخيرية، لأن الميل إلى الخير من غرائز المرأة الفطرية، ويقودها إليه رقة الاحساس وحنو القلب، ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى مالا يتحمله أعظم الرجال جلدا، ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي، وهذه الصفات توجد عند النساء في الغالب، غير أن المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشدا يهديها إلى سبل الخير فتصرف ما أودعه قلبها من كنوز الرحمة في أصغر الأمور وأحقرها....

والناظر في الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة، مثل الخلافة والامامة، والشهادة في بعض الأحوال، لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها، وان الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة، وحصر الوظائف العمومية في الرجال، وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه إلى الآن التمدن في أوربا، ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها. وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية إلى المرأة في جميع الأعمال المدنية ـ ومنها اهليتها لأن تكون وصية على الرجل ـ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق.

والقارئ الذي تتبع سلسلة القواعد الكلية التي سردتها بغاية الايجاز لابد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تتلخص في عبارة واحدة: هي أنه لابد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة. فإذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسماً، يرى المرأة التي يهيئها المستقبل تتلألأ في أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولابسة حلة كمالها النسائي : الجسم والعقل.

يقول قاسم أمين في كتابه «المرأة الجديدة»[3] :

لا يمكن معرفة هال المرأة اليوم إلا بعد معرفة حالها في الماضي. تلك هي قاعدة البحث في المسائل الاجتماعية، فإننا لا يمكننا أن نقف على حقيقة حالنا في أي شأن من شؤوننا الا بعد استقراء الحوادث الماضية والالمام بالأدوار التي تقلبت فيها، وبعبارة أخرى يلزم أن نعرف من أي نقطة ابتدأنا حتى نعلم إلى أي نقطة نصل....(ص 123)

..... عاشت المرأة حرة في العصور الأولى حيث كانت الانسانية لم تزل في مهدها ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي.

ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق، واعترف للمرأة بشيء من الحق، ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها بأن لا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها.

ثم لما بلغت الانسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة والرجل في جميع الحقوق، أو على الأقل في معظمها.

أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن في العالم.

فالمرأة المصرية هي اليوم في الدور الثالث من حياتها التاريخية، بمعنى أنها في نظر الشرع إنسان حر له حقوق وعليه واجبات، ولكنها في نظر رئيس العائلة وفي معاملته لها ليست بحرة، بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية، وهذه الحال التي عليها المرأة اليوم هي من توابع الاستبداد السياسي الذي كان يخضعنا ونخضع له..... (ص 132).

.... وهذا يدل على أن سلطان الأخلاق القديمة لا يزال نافذا في نفوسنا، وله أثر ظاهر في أعمالنا، فقوانيننا وضعت لأمة حرة، وأخلاقنا لا تزال أخلاق أمة مسترقة. لهذا نرى رجالا وردوا موارد العلم، وتنقلوا من مدرسة إلى مدرسة، ومن درجة إلى درجة، حتى حازوا على لقب علمي، وفقهاء يعلمون الحقوق، وشعراء من نوابغ العصر، على ما يقول العارفون بفنهم، وكتابا نصبوا أنفسهم لافادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية أو الأدبية أو الفنية أو ما شئت من هذه الألقاب، وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال، رأينا جميع من ذكرنا عندما سمعوا القول بأن للمرأة حقا مهضوما، وأنها إنسان محروم، أخذوا يتساءلون : هل يسوغ لها أن تخرج من سجنها؟ أو يرفع عنها غطاء من جهلها؟ وبعد طول التساؤل رجعوا إلى ما هو مركوز في طباعهم فأنكروا عليها هذا الحق، وحكموا عليها بأن تبقى في ظلمات الجهل وفي السجن المؤبد!.... (ص 133).

.... أما نحن فإننا لا ننظر إلى المرأة نظرنا إلى الرجل، ولم تستعد عقولنا إلى ادراك هذه الحقيقة الظاهرة وهي أن المرأة إنسان مثل الرجل، فجردناها عن استعمال جميع حقوق الانسان، وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة.... (ص135).

.... يتعجب بعض الناس من طلبي تخويل الحرية للنساء، ويتساءلون : هل هن في قيد الرق؟ ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا في الرأي.

ليس مرادنا أن نقول إن المرأة اليوم تباع وتشترى في الأسواق، لكن ليس الرقيق هو الانسان الذي يباح الاتجار به فقط، بل الوجدان السليم يقضي بأن كل من لم يملك قياد فكره وارادته وعمله ملكا تاما، فهو رقيق.

لا أظن أن القارئ المنصف يختلف معي في الرأي إن قلت : إن المرأة في نظر المسلمين، على الجملة، ليست إنسانا تاما، وإن الرجل منهم يعتبر أن له حق السيادة عليها، ويجري في معاملته معها على هذا الاعتقاد، والشواهد على ذلك كثيرة.

فليس من الأدب في كثير من العائلات ان لا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه، ولا من الأدب أن يجلس النساء مع الرجال، ولا من الأدب أن يأكلن معهم، وقد رأيت مرارا بعيني أن الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل قلة الماء.

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد في الغالب في بعض الطبقات، خصوصا في بلاد الأرياف، لكن استعباد المرأة في الطبقات الأخرى وفي المدن موجود على أشكال أخرى.... (ص 139)

.... ولو أخذ المسلمون برأي الجهال من فقهائهم، وهم أهل الرأي عندهم، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوهن وان لا يسمحوا لهن بالخروج الا لزيارة الأقارب في العيدين، ورأوا من الأفضل أن لا تخرج من بيتها في جميع الأحوال، وقد عدوا من مفاخرهم أن لا تخرج المرأة من خدرها إلا محمولة إلى قبرها.

ولا شك أن تقرير الحق للرجل في سجن زوجته ينافي الحرية التي هي حق طبيعي للانسان.

والمرأة التي يسوقها والدها كالبهيمة إلى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئا عن أحواله معرفة تسمح لها بأن تتبين حقيقة أمره وتحصل لنفسها رأيا فيه لا تعتبر حرة في نفسها، بل تعد في الحقيقة رقيقة، ومن المعلوم أن عموم الآباء في جميع طبقات الأمة يزوجون بناتهم على هذه الطريقة، فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج، اما هن فلا رأي لهن في هذا الأمر الخطير الذي تتعلق به سعادتهن وشقاؤهن في المستقبل، ولا يقال إن حال الرجل في ذلك كحال المرأة اذ هو أيضا لا يعلم من أحوال خطيبته شيئا، إلا أن الرجل يمكنه أن يتخلص من عواقب جهله بأن يطلقها في أي وقت شاء أو يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع، أما المرأة التي تبتلى برجل لا ترضى نفسها بمعاشرته فليس لها إلى الخلاص منه سبيل، فتزويج المرأة برجل تجهله، وحرمانها حق التخلص منه، مع اطلاق الارادة للرجل في إمساكها وتسريحها كيف يشاء، هو استعباد حقيقي.

والمرأة التي يجب أن لا تتعلم الا فروض العبادة، كما يقول الفقهاء ومن أخذ عنهم، أو يجب الا تتعلم الا مقدارا محدودا من مبادئ بعض العلوم، تحسب رقيقة، لأن قهر الغرائز الفطرية والمواهب الالهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النمو إلى أن تبلغ الكمال الذي اعدت له، يعد استعبادا معنويا.

والمرأة التي تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشي ولا من الركوب، بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم الا بمشقة، تعد رقيقة، لأن تكليفها بالاندراج في قطعة من قماش إنما يقصد منه أن تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الانساني الطبيعي في نظر كل رجل ماعدا سيدها ومولاها.

وبالجملة، فالمرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هي رقيقة، لأنها لا تعيش بنفسها ولنفسها، وإنما تعيش بالرجل وللرجل، وهي في حاجة إليه في كل شأن من شؤونها، فلا تخرج إلا مخفورة به، ولا تسافر إلا تحت حمايته، ولا تفكر إلا بعقله، ولا تنظر الا بعينه، ولا تسمع إلا بإذنه، ولا تريد الا بارادته، ولا تعمل إلا بواسطته، ولا تتحرك بحركة إلا ويكون مجراها منه، فهي بذلك لا تعد انسانا مستقلا، بل هي شيء ملحق بالرجل... (ص 140- 141)

.... رأى العلماء أنه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الانساني بآثارها التي صدرت منها إلى الآن. وإنما يصح ذلك بعد أن تملك من حريتها ما يملك الرجل وبعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوي المدة التي قضاها

الرجال في تربية ملكاتهم العقلية والأدبية، غير أنهم حكموا بأن المرأة ليست مثل الرجل في الخلقة وانه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفيسيولوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر، ولكن ليس في هذه الاختلافات ما يدل على أن أحد الصنفين أرقى من الآخر أو أحط منه....

فالمرأة في رأي أعظم العلماء وأدقهم بحثا مساوية للرجل في القوى العقلية، وتفوقه في الاحساسات والعواطف. وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما في العقل لأن الرجال اشتغلوا اجيالا عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فإنهن حرمن من كل تربية، فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي.

لا نريد بهذا التساوي أن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه، ولكنا نريد أن مجموع قواها وملكاتها يكافئ مجموع قواه وملكاته، وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما، لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر.

فعلى أي دليل علمي يستند الرجال لاستعباد النساء، وبأي حق جاز لهم أن يحرموهن من حريتهن؟ لنفرض جدلا أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل، فهل نقصان العقل في شخص يبيح أن يجرد من حريته؟ ألا يوجد بين أفراد الرجال اختلاف في العقول أكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء؟ أليس عقل المصري

يختلف باختلاف طبقات الأمة المصرية، ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين في تمتعهم بحريتهم البدنية؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هن أكبر عقلا وأكمل أخلاقا من أزواجهن أو آبائهن أو أبنائهن؟.

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سببا لتجريد الانسان عن حريته، بل الذي يجر إليه الاختلاف إنما هو أن يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الاقناع أو تسود إرادة على إرادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها....(ص 144 و146)

*****

(1) صدر كتاب «تحرير المرأة» سنة 1899م
أنظر الاعمال الكاملة لقاسم أمين، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة الجزء الثاني، ابتداء من ص 11 الى ص 17. المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، لبنان، 1976.

(2) الاعمال الكاملة، ج 2، ص، 78-79.

(3) صدر كتاب «المرأة الجديدة» سنة 1900م
أنظر الاعمال الكاملة لقاسم أمين، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة الجزء الثاني، ابتداء من ص 123 الى ص 146. المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، لبنان، 1976.

تعدد الزوجات(*)

للأستاذ محمود شلتوت

تعدد الزوجات إحدى المسائل التي كان لصوت الغرب المتعصب، ودعايته المسمومة أثر في توجيه الأفكار إلى نقدها، حتى حاول فريق من أبناء المسلمين في فترات متعاقبة - ولا يزالون يحاولون - وضع تشريع لها يقيد من إطلاقها بما لم يقيده الله به.

وقد وقعت هذه المسألة بين نص تشريعي، وحالات اجتماعية، وقد تجاذبت كلا منهما الأفهام و التقديرات.

فبينما نرى بعض الناظرين في النص الشرعي يقرر أن الأصل في تعدد الزوجات هو الحظر. وأنه لا يباح إلاّ لضرورة ملجئة، نرى بعضا آخر يقرر أن الأصل هو الاباحة، وأنه لا يحظر إلا إذا خيف أن يغلب خيره شره.

وبينما نرى بعض الباحثين الاجتماعيين، يقرر - كما أسلفنا - أن تعدد الزوجات جريمة اجتماعية تقع على الأسرة والأمة فيجب الحد منها بقدر المستطاع، نرى آخر يقرر أن هذا إسراف في تقرير الواقع، وتحكيم لحالات شاذة لا يصح أن تتخذ أساسا للحد من

(*) الفصل الثاني من كتاب «الاسلام عقيدة وشريعة» للأستاذ محمود شلتوت، ط، 16، القاهرة، 1992.

تشريع له من الآثار الطيبة في الحياة الخلقية والاجتماعية معا ما يربو كثيرا عن تلك الحالات الشاذة.

هذا هو وضع المسألة، وهو يقتضينا عرض الموضوع من ناحيتيه : الشرعية والاجتماعية، وأن نزن جانبي التفكير في كل من الناحيتين بميزان العدل الذي طلبه الله في كتابه وقضى به في خلقه، وبذلك يجيء الكلام في :

أولهما : تعدد الزوجات في ظل النصوص الشرعية.

ثانيهما : التعدد في ظل الحالات الاجتماعية الواقعة.

أولا : التعدد في ظل النصوص الشرعية

التعدد شرعة قديمة :

1 ـ مما لاشك فيه أن القرآن جاء بمشروعية تعدد الزوجات، ونراه في الآية الثالثة من سورة النساء : **﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾**[1].

وقد جاء متصلا بها الآية 129 من السورة نفسها : **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم. فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾**[2].

والإسلام لم يكن في شرع تعدد الزوجات، ولا في شرع أصل الزواج مبتكرا لشيء لم يكن معروفا من قبل، وهذا شأنه في كثير

من وجوه المعاملات والارتباطات البشرية التي تقضي بها طبيعة الاجتماع، وإنما كان مقررا ما تقتضيه الطبيعة من ذلك معدلا فيها بما يرى من جهات التهذيب التي تكفل للطبيعة الوقوف في الحد الوسط، وتقيها شر الانحراف والميل، وتحفظ للاجتماع خير مقتضيات هذه الطبيعة.

عرف الزواج في طبيعة البشر الأولى، وعرف كذلك تعدد الزوجات في الحقب الماضية، وكان له في كثير من الشرائع السماوية وجود واسع، وامتداد إلى عدد كثير، كما يحدثنا التاريخ عن ابراهيم، ويعقوب، وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين.

وكما يحدثنا عن العرب وغيرهم من أكثر بلاد المعمورة حتى عند أهل أوربا، فقد كان مباحا عندهم إلى عهد شرلمان الذي كان متزوجا بأكثر من واحدة، ثم أشار القساوسة في ذلك الوقت على المتزوجين بأكثر من واحدة أن يختاروا لهم واحدة من بينهن، يطلق عليها «زوجة» ويطلق على غيرها اسم «خدن».

ومن هنا أخذ التعدد في أوربا لونا بغيضا يقزز النفس، ويحرج الصدر، وينزل بالخلق، وهكذا ظل التعدد محظورا عندهم بالارتباط الشريف مباحا بالمخادنة.

حكمة التعدد :

2 ـ هذا وللباحثين في تعليل تعدد الزوجات آراء. فمنهم من يرى أنها أثر لأثرة طبع عليها الرجل بالنسبة للمرأة، تدفعه هذه الأثرة

إلى الإستيلاء على ما يستطيع الاستيلاء عليه من النساء، وظاهر أن هذه الأثرة إن صح وجودها وصح التعليل بها لظاهرة تعدد الزوجات، فمن الواضح أنها لا تهدف إلى مجرد الاستيلاء والحوز إنما تهدف إلى تلبية طبيعة خلق عليها الرجل، وهذا يوضحه التعليل الآخر وهو : أن التعدد أثر لعامل جنسي في طبيعة الذكر والأنثى، يقضي هذا العامل باستمرار القوة الفاعلة واتساع الأمد في استعدادها، ويقضي في الوقت نفسه بطروء فترات يعدم فيها استعداد القابلية في المرأة كفترات الحيض، والحمل والوضع والنفاس، ويقضي بقصر الأمد في استعداد القابلية فيها عن أمد استعداد الفاعلية في الرجل، فإن أمد الاستعداد عندها ينتهي ببلوغها سن اليأس المحدد في أكثر حالاته بالوصول إلى العقد السادس، وبهذا تظل القوة الفاعلة مهددة للرجل في صحته، أو خلقه، أو فيهما معا، مدة قد تصل إلى أربعين سنة أو خمسين. ومن العلماء من يرى أنها لسنة كونية قضت بسخاء الطبيعة على الوجود بالأنثى أكثر من سخائها بالرجل، وقضت أيضا بقسوة الطبيعة على الرجال قسوة جعلت تعداد متوفيهم أكثر من تعداد متوفى الإناث. وإذا لم يكن من عوامل تلك القسوة سوى تلك الحروب التي تشن على الدوام غاراتها في أرجاء العالم لكفت في تحقق هذه القسوة، فما بالنا إذا ضم إلى ظاهرة الحرب التي تغتال الرجال وتجعل كثرة الأمم أطفالا ونساء، ظاهرة التعرض لمآزق الحياة المرهقة وبخاصة في طبقات العمال الذين يباشرون أعمالهم بين الحديد والنار، وفي قاع البحار وأمواجها، وفي ظلمات المناجم وصيفها، وفي رفع أنقاض البيوت المهدمة وقطع الأحجار ونقلها وما إلى ذلك مما لا تعرف فيه عاملا سوى الرجل، ومما لا تؤمن فيه السلامة من الموت والهلاك.

الشريعة هذبت ما تقضي به الطبيعة :

3 ـ هذه هي تعليلات تلك الظاهرة الاجتماعية فيما يرى العلماء والباحثون، وهي تعليلات يرسمها الواقع المحس بحروف واضحة على صفحة الوجود، وبها استقر تعدد الزوجات شأنا اجتماعيا قديما، واستمر إلى الاسلام فلم تنقض شريعة الإسلام فيه ما تقضي به الطبيعة وهو أصل التعدد، وإنما هذبته من ناحيتين :

وقفت به عند عدد يكفل حاجة الرجل على وجه لا يؤثر فيه طروء الفترات التي تعدم فيها قابلية المرأة.

وأوجبت على الرجل أن يعدل في مطالب الحياة بين هذه الزوجات حتى يكون أعون على بقاء أصل الهدوء والاطمئنان، وأبعد عن الظلم والميل والانحراف، وهذا قدر اتفقت عليه النصوص الشرعية وأجمع عليه فقهاء الشريعة، واقرأ فيها قوله تعالى : **﴿مثنى وثلاث ورباع﴾**[3] وقوله : **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾**[4] وقوله : **﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾**[5].

وقد يكون من أعجب ما استنبط من هذه الآيات أنها تدل على أن التعدد غير مشروع، بحجة أن العدل جعل شرطا فيه بمقتضى الآية الأولى، وأنبأت الآية الثانية أن العدل غير مستطاع، وبذلك حال معنى الآيتين : يباح التعدد بشرط العدل، والعدل غير مستطاع، فلا إباحة للتعدد.

وواضح أن هذا عبث بآيات الله، وتحريف لها عن مواضعها؛ فما كان الله ليرشد إلى تزوج العدد من النساء عند الخوف من ظلم

اليتامى ويضع العدل بين الزوجات شرطا في التعدد بأسلوب يدل على استطاعته والقدرة عليه ثم يعود وينفي استطاعته والقدرة عليه.

المعنى الصحيح للآيتين :

4 ـ وإذن فتخريج الآيتين الذي يتفق وجلال التنزيل وحكمة التشريع، ويرشد إليه سياقهما وسبب نزول الثانية منهما أنه لما قيل في الآية الأولى : **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا﴾** فهم منه أن العدل بين الزوجات واجب، وتبادر إلى النفوس أن العدل بإطلاقه ينصرف إلى معناه الكامل الذي لا يتحقق إلا بالمساواة في كل شيء، ما يملك ومالا يملك، فتحرج بذلك المؤمنون، وحق لهم أن يتحرجوا؛ لأن العدل بهذا المعنى الذي تبادر إلى أذهانهم غير مستطاع، لأن فيه مالا يدخل تحت الاختيار، فجاءت الآية الثانية ترشد إلى العدل المطلوب في الآية الأولى، وترفع عن كواهلهم هذا الحرج الذي تصوروه من كلمة **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا﴾**.

وكأنه قيل لهم : العدل المطلوب ليس هو ما تصورتم فضاقت به صدوركم، وبه تحرجتم من تعدد الزوجات الذي أباحه الله لكم، ووسع به عليكم، وإنما هو : ألا تميلوا إلى إحداهن كل الميل، فتذروا الأخرى كالمعلقة.

فهذا بيان إلهي كان ينتظره المؤمنون بعد نزول الآية الأولى، وفهمهم منها ما فهموا، ويرشد إلى هذا قوله تعالى في مفتتح الآية الثانية : **﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾**، ثم عدد

أمورا كانت موضع استفتائهم، وكان خاتمها قوله تعالى : **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾**.

عمل الأمة أوضح شاهد :

وبهذا يتضح جليا أن الآية الثانية تتعاون مع الآية الأولى على تقرير مبدأ التعدد بما يزيل التحرج منه، وفي ضوء هذا المبدأ عدد النبي صلى الله عليه وسلم زوجاته، وعدد الأصحاب والتابعون زوجاتهم، ودرج المسلمون في جميع عصورهم وبجميع طبقاتهم يعددون الزوجات متى شاءوا، ويرونه مع العدل الذي طلبه الله من الأزواج، حسنة من حسنات الرجال إلى النساء، وحسنة إلى الرجال أنفسهم، وحسنة إلى الأمة جميعا.

ومضت على ذلك سنة المسلمين أربعة عشر قرنا وجد فيها الأئمة المجتهدون في جميع الأمصار، ودونت مذاهبهم، وخدمت بالنشر والتعليم، جيلا بعد جيل، ولم نسمع عن أحد من هؤلاء جميعا أن الآية الثانية تنقض أو تحاول أن تنقض شيئا قررته الآية الأولى، وإنما هي توضيح وبيان لما طلب فيها من العدل الذي جعل الخوف من عدمه موجبا لالتزام الواحدة.

تقرير العدل إلى الفرد :

5 ـ وكانوا جميعا مع ذلك يعرفون أن قوله تعالى : **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾** خطاب موجه للأفراد في شأن لا يعرف إلا من جهتهم يرجعون فيه إلى نفوسهم، ويتحاكمون فيه إلى نياتهم

وعزائمهم، وليس له من الأمارات الصادقة المطردة أو الغالبة ما يجعل معرفته وتقديره داخلين تحت سلطان الحاكم حتى يرتب على تلك الامارات تشريع المنع أو الاباحة.

وكم من شخص يرى بأمارات تدل على غلظ الطبع ثم يكون في المعاشرة أو الاقتران مثالا حيا لحسن العشرة والقيام بالواجب.

وإذن فالشخص وحده هو المرجع في تقدير خوفه من عدم العدل، وهو المطالب فيما بينه وبين الله بتطبيق الحكم المناسب لما يعرف من نفسه ولا سبيل ليد القانون عليه، وشأنه في ذلك، هو شأنه في سائر التكاليف التي تحاكم الشريعة فيها المؤمن إلى نفسه، كالتيمم، أو الإفطار في رمضان إذا خاف المرض أو زيادته باستعمال الماء أو الصوم.

متى يتدخل القانون؟

6 - نعم يجد القانون سبيله إلى من تزوج فعلا بالثانية أو الثالثة، ووقع منه الجور على إحدى زوجاته، وأعلنت الحاكم بضررها وعندئذ يتدخل القانون بالردع والزجر ثم بالحكمين، وما رسم الله من طرق الوفاق بين الزوجين، حتى إذا ما استحكم الشقاق وتكرر الجور، وتبين أنه لا سبيل إلى إزالته فللقاضي أن يقطع هذه الزوجية بالتفريق، وهذه الحالة قد كفلتها الشريعة بما سنت من وجوه التعزير. وكفلها القانون حينما أخذ بمذهب الامام مالك في تقرير مبدأ التطليق بالضرر[6].

الأصل إباحة التعدد :

7- وإلى هنا يتضح جليا أن القول والعمل يدلان من عهد التشريع على أن التعدد مباح ما لم يخش المؤمن الجور في الزوجات، فإن خافه، وجب عليه تخليصا لنفسه من إثم ما يخاف أن يقتصر على الواحدة، ويتضح أيضا أن إباحة التعدد لا تتوقف على شيء وراء أمن العدل وعدم الخوف من الجور، فلا يتوقف على عقم المرأة، ولا مرضها مرضا يمنع من تحصن الرجل، ولا على كثرة النساء كثرة ينفرط معها عقد العفاف. نعم، يشترط في الزوجة الثانية ما يشترط في الأولى من القدرة على المهر والنفقة.

هذا وقد وضعت الآية تعدد الزوجات في موضع الأصل في طريق التخلص من عدم القسط في اليتامى. ثم ذكر الاقتصار على الواحدة عند طروء الخوف من عدم العدل بين الزوجات، ومن هذا كان لنا أن نقول : إن الأصل في المؤمن العدل، وبه يكون الأصل إباحة التعدد، وأن الجور شيء يطرأ على المؤمن فيخافه وبه يوجد ما يوجب عليه أن يقتصر على الواحدة.

ويلتقي هذا مع ما قرره الباحثون في تعليل ظاهرة التعدد في الزوجات كما سلف، وأن التعديل في جملته وتفصيله يقضي بتعدد الزوجات، إما بالنظر إلى حاجة الشخص، أو حاجة المرأة.

ولو كان الأمر على عكس هذا لكان أسلوب الآية هكذا : إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا واحدة من غيرهن، فإن كان بها عقم أو مرض، واضطررتم إلى غيرها فمثنى وثلاث ورباع.

ولفات بذلك الغرض الذي ربط به تشريع تعدد الزوجات من قصد التوسعة عليهم في ترك اليتامى حين الخوف من عدم الاقساط فيهن.

ولكان الأسلوب على هذا الوجه هو الأسلوب الذي عهد للقرآن في إباحة المحرم عند الضرورة الطارئة، وذلك كما نراه في مثل قوله تعالى : **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير...﴾** إلى أن قال : **﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾**.

ولدلت الآية بهذا على أن التزام الواحدة هو الأصل والواجب، وأن إباحة التعدد إنما تكون عند الضرورة.

ولكن شيئا من ذلك لم يكن، فإن أسلوب الآية كما ترى، وضع التعدد أولا طريقا للخلاص من التحرج في اليتيمات، ثم علقت الواحدة على طروءحالة هي الخوف من عدم العدل.

وعليه فلا دلالة في الآية على أن المطلوب في الأصل هو التعدد أو الواحدة، وهذا إذا لم نقل إن الأصل والمطلوب هو التعدد، تلبية للعوامل التي طبع عليها الرجل والاجتماع البشري والتي قضت بظاهرة تعدد الزوجات في قديم الزمن وحديثه.

وبعد؛ فلو كان التعدد مقيدا بشيء مما يذكرون وراء الخوف من عدم العدل، والمسألة تتعلق بشأن يهم الجماعة الانسانية وتمس الحاجة إلى بيان شرطها وبيانها لما أهمل هذا التقييد من المصادر

التشريعية الأولى الأصلية، ولكان للنبي صلى الله عليه وسلم مع الذين أسلموا ومعهم فوق الأربع موقف آخر وراء التخيير في إمساك أربع ومفارقة الباقي، وللزم أن يبين لهم ـ والوقت وقت وحي وتشريع ـ أن حق إمساك الأربع أو الزائد عن الواحدة مشروط بالعقم، أو المرض أو القدرة على تربية ما قد يلد الرجل من زوجاته المتعددات، وعلى الانفاق على من تجب عليه نفقته من أصوله وفروعه وسائر أقاربه، ولكن شيئا من ذاك لم يكن، فدل كل هذا على أن التعدد ليس مما يلجأ إليه عند الضرورة، وليس مما يتوقف إباحته على شيء غير أمن العدل بين الزوجات، فيما يدخل تحت قدرة الانسان من النفقة والمسكن والملبس.

كلمة للغزالي :

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر كلمة للامام الغزالي فيما يتصل بتعدد الزوجات، وسبب إباحته بالنظر إلى العامل الجنسي، الذي سبق الكلام عليه في عرض آراء العلماء والباحثين في تعليل ظاهرة التعدد، قال : «ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة، فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع، فإن يسر الله مودة ورحمة، واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال». وعلى هذا عدد الأصحاب وقل فيهم من ليس له اثنتان.

ثم قال الغزالي : «ومهما كان الباعث معلوما فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس فلينظر إليه في الكثرة والقلة»، ويشير الغزالي بهذا إلى أن التعدد لتحصين النفس أمر

مرغوب فيه شرعا، أي مع أخذ النفس بالعدل الواجب بين الزوجات، ويشير أيضا إلى أن الذين يعددون زوجاتهم لمجرد الانتقال من ذوق إلى ذوق، دون حاجة إليه في تحصين النفس، وعفتها عن المحرم يعملون عملا تأباه الشريعة، ويمقته أدب الدين.

ثانيا : التعدد في ظل الحالات الاجتماعية

مشروع تقييد التعدد :

1 ـ يثور بين الحين والحين كلام كثير، بل حملات مدبرة، حول تعدد الزوجات وأضراره الاجتماعية، ولم يقف الأمر عند الكلام، بل قامت حركات تطالب الحكومات بمنع التعدد أو تقييده، وكان من أبرزها الحركة التي قامت بها وزارة الشؤون الاجتماعية المصرية سنة 1945، ووضعت مشروعا يقضي بتقييد تعدد الزوجات بإذن القاضي الشرعي بعد «الفحص والتحقيق من أن سلوك المتزوج الذي يريد أن يتزوج بأخرى، وأحوال معيشته يؤمن معها قيامه بحسن المعاشرة والانفاق على أكثر ممن في عصمته ومن تجب عليه نفقتهم من أصوله وفروعه».

وبالرجوع إلى المذكرات الايضاحية لهذا المشروع في أطواره الثلاثة يتبين أن لاحقها قد اعتمد على ما جاء في سابقها، وأنها كلها تدور حول أن التعدد مضيعة للأسر، مفسدة للنسل، وأنه يحمل الحكومة أعباء ثقيلة بكثرة المتشردين ومن لا عائل لهم، ويقطع أواصر الرحم والقرابة، وأنه لو لم يكن في إطلاقه سوى أنه دافع إلى إهمال تربية النشء، لكان ذلك داعيا إلى وضع نظام يقطع على غير القادرين طريق الإقدام عليه.

أصحاب المشروع أهملوا محاسن التعدد :

2 ـ وبهذا العرض الوجيز لتلك المذكرات يتضح أن أصحابها قد أهملوا النظر إلى مقتضيات التعدد ومحاسنه، وأغفلوها إغفالا تاما، وكان من واجبهم أن يعرضوا لها، وأن يقارنوا خير التعدد بشره، كما هو الشأن في موازنة خير الشيء بشره إذا كان له جانبا خير وشر، ثم يصدرون حكمهم في الجانب الذي تظهر غلبته على الآخر.

ومن القواعد المقررة أن ما ترجح خيره على شره وجب المصير إليه، وأن الشر القليل بجانب الخير الكثير لا يعبأ به في مقام التشريع، وما من تشريع له خيره الكثير ولا يوجد بجانبه شر ولو ضئيلا، وأن الحياة الدنيا بطبيعتها لا يسلم خيرها مهما عظمت مقتضياته من شر تقضي به حالات الشذوذ التي لا تمنع تشريعا لجلب الخير الكثير.

العدل المقصود في الآية :

3 ـ وقد توسع أصحاب المشروع في معنى العدل المذكور في الآية : **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾** فقالوا : إن التعدد لا يباح إلا حيث لا يخشى منه الجور، سواء أكان ذلك الجور يظن وقوعه بالزوجات أم بغيرهن، وبذلك اعتبروا في الإذن بالزوجة الثانية القدرة على الانفاق على من تجب نفقتهم عليه من الأصول والفروع، وعلى تربية الأبناء الذين سينجبهم من الزوجتين أو الثلاث، وهذا نوع غريب من التقييد فإن المفروض عند من يتزوج الثانية أو الثالثة أنه يدفع شرا عن نفسه باعتبار الفترات التي تفقد فيها المرأة

استعداد القابلية، ويدفع شرا عن أمته باعتبار ما تتركه السنة الكونية وضغط الحياة من النساء الكثيرات ولا ريب أن دفع حاجة نفسه المحققة وكذلك حاجة أمته المحققة مقدم في الاعتبار على نفقة أصوله وفروعه، ولا يتوقف على احتمال العجز عن تربية أبناء قد يأتون وقد لا يأتون، وإذا أتوا لا ندري ماذا أضمره المستقبل من سعادة أو شقاء، أو موت أو حياة.

والعدل وإن جاء مطلقا في الآية فالمقصود به خصوص العدل بين النساء كما صرحت به الآية الأخرى : **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾**.

وكما بينته الأحاديث الكثيرة الواردة في شأن القسم بين الزوجات، ولم يقل أحد من الفقهاء أنه يتناول الانفاق على الأصول والفروع، والقدرة على تربية الأبناء. والعدل بهذا المعنى - الذي يشهد به القرآن وتشهد به الأحاديث - مطلوب في ظل الغنى وظل الفقر، فالغني مطالب بالعدل بين زوجاته بما هو متعارف في بيئة الأغنياء، والفقير مطالب بالعدل بين زوجاته فلا يميل كل الميل فيترك الأخرى كالمعلقة، وبهذا يتضح أن تفسير العدل بما فسروه به تحريف للكلام عن مواضعه.

الأسباب الحقيقية للتشرد :

4 - أما ما يذكرون في التشرد فحسبنا في ندرة ارتباطه بتعدد الزوجات، أن نشير إلى ما جاء في إحصائية لمكتب الخدمة الاجتماعية نتيجة لبحث حالات التشرد وبيان الأسباب التي

تحدثه مع النسبة المئوية لكل سبب، فقد جاء فيها أنه ليس لتعدد الزوجات من حالات التشرد أكثر من 3٪. وهي تساوي تماما في هذه الاحصائية نسبة قسوة المنزل على الطفل، وقسوة المخدوم على الخادم، ولا ريب أنها نسبة ضئيلة جدا لا يصح أن يذكر بإزائها أن للتشرد علاقة بتعدد الزوجات، وأن تتخذ تلك العلاقة أساسا للتفكير في وضع حد للتعدد مع ما للتعدد من فوائد إجتماعية تربو بكثير وكثير جدا عن هذه النسبة.

ونحن لا نشك في أن التشرد داء وبيل في المجتمع يجب علاجه، ووضع حد لاستئصاله والقضاء عليه إن أمكن، ويكون ذلك بمحاربة أسبابه الكثيرة الغالبة كالفقر، وسوء تربية الوالدين، وقسوة الصانع، والمخدوم، وزواج أحد الوالدين بعد موت الآخر، والأوساط الفاسدة، وفساد أعصاب الطفل مع الجهل بقواعد الصحة إلى غير ذلك من الأسباب التي لا نحصيها، والتي لها النصيب الوافر في إحداث حالات التشرد، فعلى الحكومات الساهرة على مصالح الأمة أن يشتد ساعدها في محاربة تلك الأسباب، أما تعدد الزوجات فسبب تافه ليس له أثر يذكر في حالات التشرد حتى يقصد بالمنع أو التقييد، ونحن إذا نسبنا حالات التشرد الناشئة عن تعدد الزوجات إلى اللقطاء، والأطفال الموءودة التي يعثر عليها البوليس والناس في الشوارع والأزقة والتي نشأت كثرتها عن الاعراض عن الزواج، وعن تأيم كثير من النساء، لوجدنا أن الحال تدعو إلى إغفال هذه النسبة من التشرد إغفالا تاما، والعناية الكبرى بتطهير المجتمع من كثرة اللقطاء والموءودين، وتعرف أسبابها والقضاء عليها.

عبرة من الغرب :

ولعلنا عندئذ نعرف ونعترف ـ كما عرف واعترف كتاب الافرنج أنفسهم ـ أن منع تعدد الزوجات له دخل كبير في ارتفاع اللقطاء والموءودين، وقد أدركوا ذلك وخطب به خطباؤهم، ونادى به مصلحوهم في أوائل هذا القرن، وذلك في المؤتمر الذي عقدته الحكومة الفرنسية سنة 1910 للبحث عن خير الطرق في مقاومة انتشار الفسق، وكان مما قيل في المؤتمر : إن عدد الأولاد اللقطاء المجموعين في ملاجئ مقاطعة «السين» وحدها، وجار تربيتهم فيها على نفقة المقاطعة بلغ خمسين ألف لقيط، وأن بعض القوام على هذه الملاجيء يفحشون بالبنات اللاتي تحت ولايتهم، وأن نفس اللقطاء يفحشون بعضهم ببعض ولا زاجر يزجرهم.

وكتبت كاتبة إنجليزية في هذا الشأن : لقد كثرت الشاردات من بناتنا، وعم البلاء، وقل الباحثون عن أسباب ذلك، وإذا كنت امرأة تراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزنا، فماذا يفيدهن بثي وحزني وتوجعي وإن شاركني فيه الناس جميعا ؟

لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة التعسة، ولله در العالم الفاضل «تومس» فإنه رأى الداء ووصف الدواء وهو إباحة التزوج بأكثر من واحدة للرجل، وبهذه الواسطة يزول البلاء وتصبح بناتنا ربات بيوت، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأروبي على الاكتفاء بواحدة، وهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شوارد، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال، ولابد من تفاقم الشر إذا لم يبح

للرجل التزوج بأكثر من واحدة، ولو كان تعدد الزوجات مباحا لما نزل بنا هذا البلاء، وهكذا أخذت تندب حظ بنات جنسها اللائي حرم على الرجال أن يتزوجوا منهن على زوجاتهم.

هذه الحالة التي نادت بمعالجتها الحكومة الفرنسية ووصفتها هذه الكاتبة الغربية هي الحالة التي نخشى بحق تفاقمها عندنا. أولا : بإعراض الشباب عن الزواج الذي أصبح ديدنا لكثرتهم الغالبة، وثانيا : بمنع أو تقييد تعدد الزوجات.

هي الحالة التي امتلأت نفوس شبابنا اليوم بمقدماتها وبواعثها.

هي الحالة التي قصد القرآن علاجها حينما وضع الزواج وحث عليه، وحينما شرع التعدد ووسع فيه، بينما يقول في إغراء الرجال بالزواج : **﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾**. يقول إغراء بتزويج النساء : **﴿فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾**.

فالسفاح والمخادنة هما رأسا البلاء الذي حل بالأمم الغربية ولم تجد علاجا في دينها وتشريعها فراحت تلتمس ما وضعه الاسلام من علاج وتشريع.

وما كان ليصح أن ننظر حين التشريع إلى جانب ضيق ضئيل ونترك هذا الجانب الذي تقضي به طبيعة الجنسين، وتقضي به سنة الله في كونه، وبذلك نترك المرأة والرجل تحت ضغط الطبائع

والسن فيضطران إلى مقارفة الاثم مدفوعين بالطبيعة والسن. وما أدق وألطف تنبيه الله إلى هذا الجانب بقوله : **﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا﴾**.

درس من الشرق

وهذه أمة شرقية مسلمة نشأت في أحضان الاسلام، ثم تغلبت عليها نزعات الغرب، ولوت وجهها عن الاسلام، واتخذت قانونا مدنيا صدر بموجبه منع تعدد الزوجات، وكان ذلك سنة 1926 ولكن لم تمض - بعد - ثماني سنوات حتى هال أولياء الأمر فيها عدد الولادات السرية، وعدد الزوجات السرية العرفية وعدد وفيات الأطفال المكتومة. وانظر في معرفة الاحصائية لكل ذلك في مدة الثماني السنوات، عدد 556 من مجلة آخر ساعة في 3 من يونيه سنة 1945 للكاتب المصري المعروف الأستاذ محمد التابعي، وكان مقيما إذ ذاك بتركيا.

الأرقام تتكلم :

5 - هذا وإذا رجعنا مرة أخرى إلى الاحصائيات المتعلقة بعقود الزواج، وبحالات التعدد خاصة لوجدنا أن الحالة بحكم انصراف الشبان عن أصل الزواج، وخفة ميزان الفضيلة في نفوسهم قد أخذت في التخلص من فكرة الزواج فضلا عن فكرة التعدد، ونخشى إذا اضطرد الحال - ولا نخالها إلا مطردة - فتفشو العزوبة وينعدم التعدد، وعندئذ تكثر البلوى وتعظم الشكوى، ونصبح نلتمس أكثر مما التمسته الحكومة الفرنسية في سنة 1901 ونادى به إذ ذاك عقلاء الافرنج فلا يجد نداؤنا سميعا، ولا استغاثتنا مغيثا.

أما أن تعدد الزوجات يسير إلى نقص مطرد فيدل عليه جدول مصلحة الاحصاء المصرية سنة 1943 إذ نزلت نسبة التزويج باثنتين في مدة عشر سنوات من 4,49٪ إلى 2,95٪ والتزوج بالثلاث من 29,٪ إلى 17,٪، والتزوج بأربع من 04,٪ إلى 02,٪.

وهي حالة تنذر قطعا بانقراض التعدد، واتجاه الناس إلى الانصراف عنه بعامل انصرافهم عن أصل الزواج، وهو الاكتفاء بسبيل الصداقة والمخادنة.

حاجتنا إلى تشريع عكسي :

6 ـ وإن مثل هذه الحالة جدير بأن يدفع بالأمة إلى التدهور الأخلاقي، الذي شكا منه الغربيون أنفسهم، وجربته دولة شرقية إسلامية، وهو مما يوجب على عقلاء الأمة ـ اتقاء للانتكاس الخلقي ـ أي يفكروا لا في منع التعدد أو تقييده وإنما في وضع حد أعلى للعزوبة بالنسبة لأصل الزواج ووضع تشريع عكسي في تعدد الزوجات أقل درجاته مساعدة الذين يتزوجون بأكثر من واحدة مساعدة تحفز غيرهم إلى السير في طريقهم، وتساعدهم على الانفاق على زوجاتهم وعلى أولادهم الذين يتسلون من هذه الزوجات إن لم يكونوا أرباب يسار يمكنهم من ذلك وأن التشريع لمنع ما يسير في طريق العدم بمقتضى الظروف والأحوال والأفكار الخاصة لا يتجه إليه في أصول التشريعات الحية، فإن التشريع يقصد أن يعرضهم للوقوع في بؤر الشر، مما تعظم بواعثه في نفوسهم، ولم نسمع أن تشريعا يكون معينا، أو محرضا لاندفاع الناس في تلك المهاوي، ثم يجد من يعمل عليه أو يعمل على حمايته.

ولا ريب أن التشريع الذي يراد لتعدد الزوجات هو في الواقع بملاحظة ما تقدم أكبر معين للناس في التخلص من العلاقات الشريفة ذات الآثار الطيبة في الأخلاق والاجتماع اكتفاء بما يقع في أيديهم من أعراض لم تجد من يغار عليها أو يعمل على صيانتها.

خطأ آخر لأصحاب المشروع :

7 ـ بقي أن هذا المشروع قد اتخذ أصحابه الفقر وعدم القدرة علي تربية الأولاد والانفاق على من تجب على الشخص نفقته أساسا لتقييد التعدد، ومعناه أنهم يبيحون للغني أن يعدد كما يشاء، وليس للفقير أن يتزوج أخرى.

ولو كان يصح اتخاذ الغنى والفقر أساسا لاباحة التعدد ومنعه لكان الواجب عكس القضية بأن يباح للفقير ويمنع عن الغني؛ فإن الفقراء يطمئنون بعضهم إلى بعض ويتعاونون على تحصيل رزقهم، فيسعى الرجل بقدر استطاعته، وتسعى كل زوجة بقدر استطاعتها، وليس عنده ما يمكن أن يحابي به إحدى الزوجات عن الأخرى.

أما الغني فتنظر زوجاته إلى غناه، ويجد من ذات يده ما يحابي به إحداهن، فيقع الشقاق بينهن وتتفكك عرى الأسرة، وما دام الرجل غنيا قادرا فهو عند غير المحبوبة منهن مظنة المحاباة والميل، وأمر الفقير مكشوف لزوجاته يعلمون دخله وخرجه فليس محلا لهذه المظنة.

فمنشؤه غيرة طبيعية لا يمكن سلامة النفوس منها، وقد وجدت هذه الغيرة في أعلى طبقات النساء «أمهات المؤمنين»، ولم تمنع من تعددهن لما في تعددهن من خير يربو على شر هذه الغيرة.

كما وجدت أساليب الكيد في أعلى طبقات أولاد الضرائر «يوسف وإخوته» ،ومثل هذا الشأن الطبيعي لا يمكن وقف التشريع لأجله تحصيلا للفوائد العظيمة المترتبة على التشريع.

والله الذي يعلم أن الغيرة أمر طبيعي في نفوس الزوجات، شرع تعدد الزوجات في قديم الزمن وحديثه، ولم تر الحكمة الالهية أن وقوع الكيد فيما بينهن، وفيما بين أولادهن مانع من إقرار التعدد، فدل ذلك على أن مقاصد التعدد في نظر المشرع الحكيم تسمى بكثير عما يقع من الكيد والتباغض أثرا لهذه الغيرة الطبيعية.

على أن هذا التباغض الذي يقع بين الزوجات، يرى مثله كثيرا بين الزوجة وأحمائها، ومثل ذلك عفو في نظر التشريع، لأنه وإن كان شرا إلا أنه شر قليل لا يترك لأجله الخير الكثير.

الشريعة لم تهمل :

8 ـ والشريعة من وراء ذلك كله لم تهمل جانب المواعظ والارشادات والتعزيرات التي من شأنها تلطيف آثار الغيرة الطبيعية، وتوجب مع هذا على أولياء الأمر تهيئة وسائل العيش والتربية الصحيحة للفقراء وأولادهم، وترى أن التقصير في ذلك يقع أولا بالذات على كاهل الحكومات الاسلامية التي لا تعمل على

إيجاد النسل القوي الصالح بتوسيع طرق العمل والصيانة. وبعد :
فإذا كان الواقع أن الطبيعة تسخو بالنساء أكثر مما تسخو بالرجال، وتقسو على الرجال أكثر مما تقسو على النساء وأن الاتجاه الطبيعي للجماعات في كل العصور إلى القوة لا إلى الضعف، وأن الرجل تطرد قوته الفاعلية إلى حياة أطول مما تستعد له قابلية المرأة، وأن الرجل لا تعتريه فترات يفقد فيها استعداده على نحو ما يعتري المرأة من هذه الفترات، وكان من الرجال من تغلب عليه جنسيته لا تحصنه المرأة الواحدة، وكان الغنى والفقر مرتبطين بأسباب أخرى وراء الزواج ترجع إلى العمل،

إذا كان هذا هو الواقع، كان بلاشك مما يقضي بترك الشريعة كما أرادها الله، لا تقيد إلا بما قيدها به من مراعاة العدل بين الزوجات في الحدود التي رسم صاحب الشريعة.

وبعد مرة أخرى : أي الأمرين أحق بالقبول؟ منع التعدد أو تقييده، فتكثر النساء ويندفعن تحت ضغط هذه الكثرة، وتحت الحرمان إلى الاخلال بالشرف، وإلى ما صارت إليه الأمة الشرقية حينما قلدت الغربيين فيما يختص بالولادات المكتومة، والزواج العرفي السري. هذا أم ترك الأمر على ما هو عليه ولو تزوج الرجل في كل بلدة واحدة، وكان له منهن جميعا أولاد شرعيون، يعرفون نسبتهم إلى أبيهم، ويعرف الناس نسبتهم إلى أبيهم؟ زوجات متفرقات بأولاد شرعيين خير أم أخدان يبعن عرضهن في كل مكان، ولكل شخص وبأولاد غير شرعيين؟ أي الفريقين أحق بالقبول إن كنتم تعلمون؟

(1) الآية 3 من سورة النساء.

(2) الآية 129 من السورة نفسها.

(3) الآية 3 من سورة النساء.

(4) الآية السابقة.

(5) الآية 129 من سورة النساء.

(6) راجع المواد 6-11 من القانون رقم 25 لسنة 1929.

*****

قول في تعدد الزوجات

نص من «تفسير المنار» للشيخ محمد رشيد رضا

قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار، ج 4، ص 350/348 نقلا عن محمد عبده.

الأستاذ الامام : جاء ذكر تعدد الزوجات في سياق الكلام عن اليتامى والنهي عن أكل أموالهن ولو بواسطة الزوجية فقال إن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم أن لا تتزوجوا بها فإن الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن إلى أربع نسوة ولكن إن خفتم أن لا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط. والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه بل يصدق بتوهمه أيضا، ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور، فالذي يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذي يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفا.

قال : ولما قال : ﴿فإن خفتم ألا تعدِلوا فواحدة﴾[1] علله بقوله : ﴿ذلك أدنى ألاَّ تعُولُوا﴾[1] أي أقرب من عدم الجور والظلم فجعل

(1) سورة النساء الآية، 3.

البعد من الجور سببا في التشريع وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريه ومنبه إلى أن العدل عزيز. وقد قال تعالى في آية أخرى من هذه السورة (129)، **﴿ولن تستطيعوا أن تَعْدِلوا بين النساء ولو حَرَصتُم﴾** وقد يحمل هذا على العدل في ميل القلب ولولا ذلك لكان مجموع الآيتين منتجا عدم جواز التعدد بوجه ما، ولما كان يظهر وجه قوله بعدما تقدم من الآية **﴿فلا تميلوا كل الميل فَتَذَرُوهَا كالمعَلَّقَةِ﴾** والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يميل في آخر عهده إلى عائشة أكثر من سائر نسائه ولكنه لا يخصها بشيء دونهن، أي بغير رضاهن وإذنهن وكان يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك» أي من ميل القلب (قال) فمن تأمل الآيتين علم أن إباحة تعدد الزوجات في الاسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور. وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربي أمة فشا فيها تعدد الزوجات فإن البيت الذي فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ثم يجيء الأولاد بعضهم لبعض عدو، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة.

(قال) كان للتعدد في صدر الاسلام فوائد أهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن لأن الدين كان متمكنا في نفوس النساء والرجال وكان أذى

الضرة لا يتجاوز ضرتها. أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها إلى والده إلى سائر أقاربه فهي تغري بينهم العداوة والبغضاء : تغري ولدها بعداوة إخوته وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها وهو بحماقته يطيع أحب نسائه إليه فيدب الفساد في العائلة كلها ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير بل منها القتل حتى قتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والزوج زوجته، كل ذلك واقع ثابت في المحاكم، وناهيك بتربية المرأة التي لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد وهي جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه إلا خرافات وضلالات تلقفتها من أمثالها، يتبرأ منها كل كتاب منزل وكل نبي مرسل، فلو تربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة، لما كان هنالك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات وإنما كان يكون ضرره قاصرا عليهن في الغالب. أما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار، فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله، فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة : يعني على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، قال وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل.

هل للمرأة أو وليها أن تشترط عدم التعدد؟

قال ابن القيم الجوزية في «زاد المعاد» ج : 5 ص : 117 :

واستأذنه بنو هشام بن المغيرة أن يزوجوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابنة أبي جهل، فلم يأذن في ذلك، وقال : «الا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فانما فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها، اني أخاف أن تفتن فاطمة في دينها، واني لست أحرم حلالا، ولا أحل حراما، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في مكان واحد أبدا»[1].

وفي لفظ فذكر صهرا له فأثنى عليه، وقال : حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي. فتضمن هذا الحكم أمورا :

أحدهما : أن الرجل اذا شرط لزوجته أن لا يتزوج عليها، لزمه الوفاء بالشرط، ومتى تزوج عليها فلها الفسخ، ووجه تضمن الحديث لذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن ذلك يؤذي فاطمة ويريبها، وأنه يؤذيه صلى الله عليه وسلم ويريبه، ومعلوم قطعا أنه صلى الله عليه وسلم انما زوجه فاطمة رضي الله عنها على أن لا يؤذيها ولا يريبها، ولا يؤذي أباها صلى الله عليه وسلم ولا يريبه، وان لم يكن هذا مشترطا في صلب العقد، فانه من المعلوم بالضرورة أنه انما دخل عليه، وفي ذكره صلى الله عليه وسلم صهره

الآخر، وثناءه عليه بأنه حدثه فصدقه، ووعده فوفى له تعريض بعلي رضي الله عنه، وتهييج له على الاقتداء به، وهذا يشعر بأنه جرى منه وعد له بأنه لا يريبها ولا يؤذيها، فهيجه على الوفاء له، كما وفى له صهره الآخر.

فيؤخذ من هذا أن المشروط عرفا كالمشروط لفظا، وأن عدمه يملك الفسخ لمشترطه، فلو فرض من عادة قوم أنهم لا يخرجون نساءهم من ديارهم ولا يمكنون أزواجهم من ذلك البتة، واستمرت عادتهم بذلك كان كالمشروط لفظا، وهو مطرد على قواعد أهل المدينة، وقواعد أحمد رحمه الله : أن الشرط العرفي كاللفظي سواء، ولهذا أوجبوا الأجرة على من دفع ثوبه إلى غسال أو قصار، أو عجينة إلى خباز، أو طعامه إلى طباخ يعملون بالأجرة، أو دخل الحمام، أو استخدم من يغسله ممن عادته يغسل بالأجرة ونحو ذلك، ولم يشرط لهم أجرة أنه يلزمه أجرة المثل، وعلى هذا، فلو فرض أن المرأة من بيت لا يتزوج الرجل على نسائهم ضرة، ولا يمكنونه من ذلك، وعادتهم مستمرة بذلك، كان كالمشروط لفظا.

وكذلك لو كانت ممن يعلم أنها لا تمكّن ادخال الضرة عليها عادة لشرفها وحسبها وجلالتها، كان ترك التزوج عليها كالمشروط لفظا سواء.

وعلى هذا فسيدة نساء العالمين، وابنة ولد آدم أجمعين أحق النساء بهذا، فلو شرطه علي في صلب العقد كان تأكيدا لا تأسيسا.

وفي منع علي من الجمع بين فاطمة رضي الله عنها، وبين بنت أبي جهل حكمة بديعة، وهي أن المرأة مع زوجها في درجته تبع له،

فان كانت في نفسها ذات درجة عالية، وزوجها كذلك، كانت في درجة عالية بنفسها وبزوجها، وهذا شأن فاطمة وعلي رضي الله عنهما، ولم يكن الله عز وجل ليجعل ابنة أبي جهل مع فاطمة رضي الله عنها في درجة واحدة لا بنفسها ولا تبعا، وبينهما من الفرق ما بينهما، فلم يكن نكاحها على سيدة نساء العالمين مستحسنا لا شرعا ولا قدرا، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله : «والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في مكان واحد أبدا»، فهذا اما أن يتناول درجة الآخر بلفظه أو اشارته.

وفي ص : 211/209 :

وأما طلاق السكران، فقال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾** ـ النساء : 43 ـ، فجعل سبحانه قول السكران غير معتبر، لأنه لا يعلم ما يقول، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر بالمقر بالزنى أن يستنكه ليعتبر قوله الذي أقر به أو يلغى.

وفي صحيح البخاري في قصة حمزة، لما عقر بعيري علي، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف عليه يلومه، فصعد فيه النظر، وصوبه وهو سكران، ثم قال : هل أنتم الا عبيد لأبي، فنكص النبي صلى الله عليه وسلم على عقبيه، وهذا القول لو قاله غير سكران، لكان ردة وكفرا، ولم يؤاخذ بذلك حمزة.

وصح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال : ليس لمجنون، ولا سكران طلاق، رواه ابن أبي شيب، عن وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبان بن عثمان، عن أبيه.

وقال عطاء : طلاق السكران لا يجوز، وقال ابن طاووس عن أبيه طلاق السكران لا يجوز، وقال القاسم بن محمد : لا يجوز طلاقه.

وصح عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى بسكران طلق، فاستحلفه بالله الذي لا إله إلا هو : لقد طلقها وهو لا يعقل، فحلف، فرد إليه امرأته، وضربه الحد. وهو مذهب يحيى بن سعيد الانصاري، وحميد بن عبد الرحمان، وربيعة، والليث بن سعد، وعبد الله بن الحسن واسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والشافعي في أحد قوليه، واختاره المزني وغيره من الشافعية ومذهب أحمد في احدى الروايات عنه، وهي التي استقر عليها مذهبه، وصرح برجوعه اليها، فقال في رواية أبي طالب : الذي لا يأمر بالطلاق، انما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق، فقد أتى خصلتين حرمها عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا، وأنا أتقى جميعا. وقال في رواية الميموني : قد كنت أقول : ان طلاق السكران يجوز حتى تبينته فغلب علي : أنه لا يجوز طلاقه، لأنه لو أقر، لم يلزمه، ولو باع، لم يجز بيعه قال : وألزمه الجناية، وما كان من غير ذلك، فلا يلزمه، قال أبو بكر عبد العزيز : وبهذا أقول، وهذا مذهب أهل الظاهر كلهم، واختاره من الحنفية أبو جعفر الطحاوي، وأبو الحسن الكرخي.

وقال في ص : 215/214 :

وأما طلاق الاغلاق، فقد قال الامام أحمد في رواية حنبل : وحديث عائشة رضي الله عنها : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا طلاق ولا عتاق في اغلاق »، يعني الغضب، هذا نث أحمد

حكاه عنه الخلال وأبو بكر في «الشافي» و«زاد المسافر»، فهذا تفسير أحمد.

وقال أبو داود في سننه : أظنه الغضب، وترجم عليه : «باب الطلاق على غلـ7»، وفسره أبو عبيد وغيره : بأنه الاكراه، وفسره غيرهما : بالجنون وقيل : هو نهي عن ايقاع الطلقات ا الثلاث دفعة واحدة، فيغلق عليه الطلاق حتى لا يبقى منه شيء، كغلق الرهن، حكاه أبو عبيد الهروي.

قال شيخنا : وحقيقة الاغلاق : أن يغلق على الرجل قلبه، فلا يقصد الكلام، أن لا يعلم به، كأنه انغلق عليه قصده وارادته، قلت : قال أبو العباس المبرد : الغلق : ضيق الصدر، وقلة الصبر بحيث لا يجد مخلصا.

قال شيخنا : ويدخل في ذلك طلاق المكره والمجنون ومن زال عقله بسكر أو غضب، وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال.

والغضب على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يزيل العقل، فلا يشعر صاحبه بما قال، وهذا لا يقع طلاقه بلا نزاع.

الثاني : ما يكون في مباديه بحيث لا يمنع صاحبه من تصور ما يقول وقصده، فهذا يقع طلاقه.

الثالث : أن يستحكم ويشتد به، فلا يزيل عقله بالكلية، ولكن يحول بينه وبين نيته بحيث يندم على ما فرط منه اذا زال، فهذا محل نظر، وعدم الوقوع في هذه الحالة قوي متجه.

*****

(1) هذه رواية البخاري رقم 5230، وسنده :
حدثنا قتيبة : حدثنا الليث، عن ابن أبي مليكة، عن المسور بن مخرمة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وهو على المنبر : الحديث كما أورده ابن القيم.
وللحديث طرق أخرى عند كل من أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان والطبراني، والبيهقي، فمن طريق ابن أبي مليكة :
البخاري «الصحيح» ج : 3، ص 1144، ك : فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ب : مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم.
ح : 3714 :
حدثنا أبو الوليد : حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن ابي مليكة، عن المسور بن مخرمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني».
ومسلم في «الصحيح» ج 4، ص : 1902، ك : فضائل الصحابة ب : فضائل فاطمة بنت النبي عليهما الصلاة والسلام، ح 2449 :
حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس وقتيبة بن سعيد، كلاهما عن الليث بن سعد، قال ابن يونس : حدثنا ليث، حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشي التيمي، أن المسور بن مخرمة حدثه : وساق مثل حديث البخاري المتقدم رقم (5230) سواء.
و ـ ص : 1903، من طريق آخر :
حدثني أبو معمر، اسماعيل بن ابراهيم الهذلي، حدثنا سفيان عن عمرو، عن ابن أبي مليكة، عن المسور بن مخرمة، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها».
والترمذي في «الجامع الصحيح» ـ ج : 5 ص 698، ك : المناقب ب : (61) فضل

فاطمة بنت محمد صلى الله عليهما وسلم ح : 3876 ـ :وساق مثل حديث البخاري المتقدم رقم (5230) بنفس الاسناد واللفظ. وعقب عليه : هذا حديث حسن صحيح، وقد رواه عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة نحو هذا.

و ـ ص : 699/698 ح : 3869، قال :

حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا اسماعيل بن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير أن عليا ذكر بنت أبي جهل، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «انما فاطمة بضعة مني يؤذيني ماآذاها، وينصبني ما أنصبها».

وعقب عليه : حديث حسن صحيح.

هكذا قال أيوب عن ابن أبي مليكة عن الزبير، وقال غير واحد عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة، ويحتمل أن يكون ابن ابي مليكة روى عنهما جميعا.

وأبو داود في «السنن»، ـ ج : 2 ص : 226، ك : النكاح ب : مايكره أن يجمع بينهن من النساء»، ح : 2071 ـ :

حدثنا أحمد بن يونس وقتيبة بن سعيد، قال أحمد :

حدثنا الليث، حدثني عبد الله بن عبيد الله بن ابي مليكة القرشي التيمي وساق مثل حديث البخاري المتقدم رقم (5230) سواءا.

و ـ ص : 226 ح : 2070 ـ :

حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، عن عروة وعن أيوب، عن ابن أبي مليكة بهذا الخبر، قال : فسكت علي عن ذلك النكاح.

والنسائي في «السنن الكبرى» ـ ج : 5 ص : 97 ك : المناقب ب : مناقب فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم (رضي الله عنهما)، ح : 8370 ـ :

أخبرنا قتيبة بن سعيد قال : أنبأنا الليث عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أما فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها».

و ـ ح : 8371 ـ :

حدثنا الحارث بن مسكين قراءة عليه عن سفيان عن عمرو بن أبي مليكة المسور بن مخرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ان فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني».

وابن ماجة في «السنن»، ـ ج : 1 ص : 644/643، ك: النكاح ب : الغيرة، ح : 1998ـ:

حدثنا عيسى بن حماد المصري، أنبأنا الليث بن سعد، عن عبد الله ابن ابي مليكة، عن المسور بن مخرمة، وساق طرفا من مثل حديث البخاري رقم (5230).

وابن حبان في «علاء الدين الفارسي «الاحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ج 15، ص 406/405، ك : (61) مناقب الصحابة ب : ذكر زجر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن ينكح علي على فاطمة، ح : 6955 ـ :

حدثنا الفضل بن الحباب، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا ليث بن سعد، حدثنا ابن أبي مليكة، وساق مثل حديث البخاري المتقدم رقم (5230) سواءا.

والطبراني في «المعجم الكبير»، ـ ج : 22 ص : 404، ح : 1010 ـ :

حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشي أن المسور بن مخرمة أخرجه، وساق طرفا من الحديث.

و– ح : 1011 ـ :

حدثنا موسى بن هارون، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة، وساق طرفا من الحديث.

و– ح : 1012 ـ :

حدثنا أحمد بن محمد الخزاعي الأصبهاني، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة وساق طرفا من الحديث.

والبغوي في «شرح السنة»، ـ ج 14 ص : 158، ب : مناقب فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ح : 3957 ـ :

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن اسماعيل، حدثنا أبو الوليد، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني». وعقب عليه : هذا حديث حسن.

ـ ح : 3958:

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن اسماعيل، حدثنا قتيبة، حدثنا الليث، عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : «إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن الاّ أن يريد ابن أبي طالب أن

يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فانما هي بضعة مني يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها».

وعقب عليه : هذا حديث متفق على صحته، أخرجه مسلم أيضا عن قتيبة عن ليث، عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشي التيمي، وقال : «يريبني ما أرابها».

قال الفراء : راب وأراب بمعنى واحد، ويقال : أرابني، أي شككني وأوهمني فاذا استيقنت قلت : رابني.

ومن طريق علي بن الحسين، أخرجه كل من :

أحمد في «المسند» ـ ج 6 ص : 492، ح 18933 :

حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي قال : سمعت النعمان يحدث الزهري عن علي بن حسين عن المسور بن مخرمة أن عليا خطب ابنة أبي جهل، فوعد بالنكاح، فأتت فاطمة النبي صلى اله عليه وسلم، فقالت : ان قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وان عليا قد خطب ابنة أبي جهل، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه، وقال : «انما فاطمة بضعة مني، واني أكره أن تفتنوها». وذكر أبا العاص بن الربيع فأكثر عليه الثناء، وقال : «لا يجمع بين ابنة نبي الله وبنت عدو الله» فرفض ذلك.

و ـ ح : 18934 ـ :

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني علي بن حسين أن المسور بن مخرمة أخبره أن علي بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل، وعنده فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت له : ان قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل، قال المسور فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فسمعته حين تشهد، ثم قال : «أما بعد فاني انكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني فصدقني وان فاطمة بنت محمد بضعة مني وأنا أكره أن يفتنوها، وانها والله لا تجتمع ابنة رسول الله، وابنة عدو الله عند رجل واحد أبدا» قال فترك علي الخطبة.

و ـ ح : 18935 ـ :

حدثنا يعقوب يعني ابن ابراهيم، حدثنا أبي عن الوليد بن كثير، حدثني محمد بن عمرو، حدثني ـ كذا، وكلمة «حدثني» زائدة، وصوابه محمد بن عمرو بن حلحلة الدؤلي ـ ابن حلحلة الدؤلي أن ابن شهاب حدثه أن علي بن الحسين حدثه أنهم حين قدموا المدينة من عند يزيد بن معاوية مقتل حسين بن علي لقيه المسور بن مخرمة، فقال هل لك اليّ من حاجة تامرني بها؟، قال : فقلت

له : لا قال له، هل أنت معطي سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني أخاف أن يغلبك القوم عليه، وأيم الله لئن أعطيتنيه لا يخلص إليه أبدا حتى تبلغ نفسي ان علي بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل على فاطمة، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس في ذلك على منبره هذا، وأنا يومئذ محتلم، فقال : «ان فاطمة بضعة مني، وأنا أتخوف أن تفتن في دينها»، قال : ثم ذكر صهرا له من بني عبد شمس، فأثنى عليه في مصاهرته اياه فأحسن قال : «حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي، واني لست أحرم حلالا ولا أحل حراما، ولكن والله لا تجتمع ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة عدو الله مكانا واحدا أبدا».

وأخرجه مسلم في «الصحيح»، ج 4 ص : 1903/1904، ك : (44) فضائل الصحابة ب: (15) فضائل فاطمة بنت النبي عليهما الصلاة والسلام، ح : 2449 ـ :

حدثني أحمد بن حنبل، وساق مثل حديث أحمد المتقدم رقم 18935. ومن طريق آخر :

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمان الدارمي، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني علي بن الحسين أن المسور بن مخرمة أخبره أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت له : ان قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحا بنت أبي جهل.

قال المسور : فقام النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته حين تشهد، ثم قال : «أما بعد فاني أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني فصدقني، وان فاطمة بنت محمد بضعة مني وانما أكره أن يفتنوها. وانها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا».

قال، فترك علي الخطبة.

ومن طريق آخر :

وحدثنيه أبو معن الرقاشي، حدثنا وهب (يعني ابن جرير) عن أبيه قال سمعت النعمان (يعني ابن راشد) يحدث عن الزهري، بهذا الاسناد، نحوه. وأبو داود في «السنن» ـ ج 2 ص : 225، ك : النكاح، ب : ما يكره أن يجمع بينهن من النساء، ح : 2069 :

حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا يعقوب ابن ابراهيم بن سعد حدثني أبي، عن الوليد بن كثير، وساق مثل حديث أحمد المتقدم رقم (ح : 19935) سواءا.

والنسائي في «السنن الكبرى» ـ ج 5 ص : 97، ك : المناقب ب : 74، ح : 8372 ـ :

وساق مثل حديث أحمد رقم (18935).

وابن ماجة في «السنن»، ج 1، ص 644، ك : (9) النكاح ب : (56) الغيرة ح :1999:

حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب عن الزهري أخبرني علي بن الحسين أن المسور بن مخرمة أخبره أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل وعنده فاطمة بنت علي صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت : إنّ قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحا ابنة أبي جهل.

وساق مثل حديث مسلم رقم (2449) الطريق الثانية ومن طريق عبد الله ابن الزبير :

الطبراني في «المعجم الكبير»، - ج 22 ص : 405، ح : 1013 - :

حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أحمد بن منيع. وحدثنا محمد بن صالح بن الوليد النرسي، حدثنا مؤمل بن هشام قالا : حدثنا اسماعيل بن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير أن عليا خطب بنت أبي جهل، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «ان فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها ويغضبني ما أغضبها».

ومن طريق عبيد الله بن أبي رافع :

أحمد في «المسند» - ج : 6 ص : 487/486 ح : 18929- :

حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبد الله بن أبي رافع عن المسور أنه بعث إليه حسن بن حسن يخطب ابنته فقال له : قل له فليلقني في العتمة، قال : فلقيه فحمد المسور الله وأثنى عليه، وقال : أما بعد والله ما من نسب ولا سبب ولا صهر أحب إلي من سببكم وصهركم ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : «فاطمة مضغة مني يقبضني ما قبضها، ويبسطني ما بسطها، وان الانساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري» وعندك ابنتها ولو زوجتك لقبضها ذلك، قال : فانطلق عاذرا له.

ومن طريق أم بكر بنت المسور :

الطبراني في «المعجم الكبير»، ج 22 ص : 405 ح : 1014 - :

حدثنا جعفر بن هارون النوفلي المدني، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الاويسي قال : حدثنا عبد الله بن جعفر المخرمي عن أم بكر بنت المسور عن أبيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «فاطمة شجنة مني يغضبني ما أغضبها ويبسطني ما أبسطها».

آراء لعلمائنا في المرأة والزواج(*) أسئلة وأجوبة

الاستاذ الطاهر حداد

حبا في أخذ آراء علمائنا اليوم في الفقه والقضاء، رأينا أن نضع اسئلة عن مقام المرأة والزواج في الإسلام ورغبنا الجواب عليها منهم حتى نعرف موقفنا وأين نحن من الإصلاح الذي يلزم اجراؤه في القضاء لفائدة العدالة ونهوض المرأة. وهذا نص الأسئلة:

1 - هل للمرأة حق اختيار الزوج وهل لوليها ذلك ولمن تكون الكلمة الأخيرة؟.

2 - هل ظهور العيب الموجب للفسخ في أحد الزوجين بعد البناء يعتبر مصيبة نزلت بالآخر لا مناص منها؟

3 - هل الغيبة الطويلة المتلفة لمتعة الزوجية تعطي حق الخيار للمرأة في الطلاق أو أنه ممتنع ما بقي الإنفاق وهل المفقود وغيره في ذلك سواء؟

4 - هل يمضي الطلاق بمجرد التلفظ به الناشئ عن حدة غضب أو تعليق أو أن المعتبر في ذلك تحقق استحالة العشرة بين الزوجين؟

(*) فصل من كتاب: «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» للطاهر حداد ص 86-109.

5 ـ هل للمرأة ضمان فيما أعطى الرجل من حق الطلاق. وهل هذا الحق بيد الرجل يوقعه على المرأة متى شاء وبلا حد؟.

6 ـ هل للمرأة أن تثبت لدى القضاء عدم التناسب بينها وبين زوجها في الروح والأخلاق والرغبات بما ينفي طيب العشرة بينهما فتطلب بموجب ذلك الطلاق؟.

7 ـ هل للمرأة أن تلاعن الرجل في رؤية الزنى أو أن ذلك من خصائصه وإذا كان كذلك فعلى أي نظر بني هذا الامتياز؟

8 ـ هل يجوز ان يضمر الرجل نية الطلاق في نفسه عند عقد النكاح فيصح ذلك ويتم النكاح؟

9 ـ هل المرأة في البيت رفيق مساو للرجل يعملان باشتراك في الرأي والتنفيذ أو أنها قاصرة تحت رعايته كأداة لتنفيذ أوامره وهل إن امتنعت من هذا تجبر عليه أو ماذا يكون؟

10 ـ ما هو مقدار الحرية التي تتصرف بها المرأة في مالها في تجارة أو غيرها متى كانت رشيدة وهل للزوج ولاية عليها في ذلك أو تفويض جبري؟

11 ـ ما هو اعتبار المرأة بوجه أعم وهل من قائل بتقديمها في إمامة الصلاة وفي القضاء وغير ذلك من شؤون خارجة عن دائرة البيت؟

12 ـ ما الذي يجب ستره من بدنها عن الأنظار صونا للأخلاق.

ذهبنا لمقابلة بعض شيوخ العلم بجامع الزيتونة ورجال الشريعة بمحكمة الديوان الشرعي وتقدمنا إليهم بهذه الأسئلة راجين جوابهم عليها بما ينير الحق ويدحض الباطل فقابلونا بما عهد فيهم من اللطف والبشاشة ملبين دعوتنا عن سرور ورغبة شاكرين سعينا في الموضوع. وهؤلاء الشيوخ هم :

سيدي الأستاذ الحطاب بوشناق، مدرس العلوم الإنسانية والمذهب الحنفي، وسيدي الأستاذ عثمان ابن الخوجة مدرس أول للعلوم الإسلامية والمذهب الحنفي، وصاحب الفضيلة سيدي عبد العزيز جعيط المدرس والمفتي المالكي بمحكمة الديوان، وصاحب الفضيلة سيدي الطاهر بن عاشور القاضي كان، وكبير أهل الشورى للمذهب المالكي اليوم، وصاحب الفضيلة سيدي بلحسن النجار المدرس والمفتي المالكي بمحكمة الديوان، وصاحب الفضيلة سيدي أحمد بيرم شيخ الاسلام، وإليك أجوبتهم تباعا بعد حذف الديباجة.

جواب الأستاذ سيدي الحطاب بوشناق

الجواب عن (ا) إذا كانت المرأة حرة مكلفة كان لها أن تتزوج بمن تشاء من الأزواج وتباشر عقد النكاح بنفسها، وليس لوليها أن يمنعها أو يجبرها على الزواج بغيره، قال في الكنز : نفذ نكاح حرة مكلفة بلا ولي ولا تجبر بكر بالغة على النكاح، قال في البحر : والأصل أن كل من يجوز تصرفه في ماله بولاية نفسه يجوز نكاحه على نفسه. والبالغة المكلفة يجوز أن تتصرف في مالها بجميع

وجوه التصرف فكذا لها أن تتصرف في نفسها وإنما يستحب لها تفويض الأمر إلى الولي كي لا تنسب إلى الوقاحة، نعم خول الشارع للولي حق التدخل إذا تزوجت بغير كفء لها فيرجع الأمر إلى القاضي طالبا فسخ النكاح دفعا للعار عنه، وعلى القاضي فسخه إن ثبت عنده عدم الكفاءة ما لم تلد منه أو تحمل لئلا يضيع الولد.

الجواب عن (2) إنه متى كان بأحد الزوجين عيب لا يتخير الآخر لأن المستحق بالعقد الوطء والعيب لا يفوته. وقال الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة إذا ظهر بالزوج الجذام أو البرص أو الجنون خيرت الزوج دون العكس فلا يخير الزوج لقدرته على دفع الضرر عنه بالطلاق.

الجواب عن (3) انه ليس للمرأة حق في الطلاق بإعسار الزوج وعجزه عن النفقة، بل تؤمر بالاستدانة عليه وكذا لو كان غائبا لم يوفها حقها من النفقة ولو موسرا. واستحسن المشائخ أن ينصب القاضي الحنفي نائبا عنه ممن يرى التفريق بينهما إذا كان الزوج حاضرا وأبى عن الطلاق لأن دفع الحاجة الدائمة لا يتيسر بالاستدانة إذ الظاهر أنها لا تجد من يقرضها وعلى الزوج مآلا أمر متوهم، فالتفريق ضروري إذا طلبته وان كان غائبا لا يفرق لأن عجزه غير معلوم حال غيبته، وأما المفقود فإن القاضي ينصب عنه وكيلا ينفق على زوجته وأولاده ومال بعض أصحابنا الى أنها تطلق عليه بعد مضي أربع سنين.

الجواب عن (4) لاشك أن الزوج يملك الانتفاع ببضع زوجته في مقابلة ما دفعه من المهر، وله أن يسقط حقه في هذا الملك وذلك بايقاع الطلاق فيمضي طلاقه بمجرد التلفظ بصيغته إلا إذا كان في حالة غضب وبلغ به إلى ان أخرجه عن دائرة التمييز فلا يقع طلاقه حينئذ لالتحاقه بالمجنون، واختار بعض محققي الفقهاء أن الطلاق محظور لا يباح الإقدام عليه إلا لضرورة. الحديث : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »

الجواب عن (5) ان حق الطلاق للرجل يوقعه متى شاء كما علم من جواب السؤال قبله وإنما للمرأة أن تشترط وقت النكاح أن تكون عصمتها بيدها فيصير الطلاق حينئذ من حقوقها توقعه في أي وقت.

الجواب عن (6) غاية ما للمرأة أن تثبت اعتداءه عليها وإضراره بها ومتى ثبت ذلك لدى القاضي أجبره على الطلاق أو طلق عليه فأما ادعاء مجرد الاختلاف في الآخلاق والرغبات فلا يجبر به الزوج على الطلاق.

الجواب عن (7) هو من خصائص الرجل اذا اتهم زوجته بالزنا ولم يقدر على إثباته بالبينة ووجهه أن الإنتفاع بالبضع ملك الرجل كما تقدم وهو لا وليست الزوجة مالكة للانتفاع بزوجها بدليل ان له التزوج بغيرها فلا لها في اللعان عند اتهامه بالزنا، وأيضا إذا زنت الزوجة فقد تعلق من الزنا وتنسب لزوجها لأنه ولد على فراشه وهو بريء منه فيتضرر بذلك فمكنه الشارع من إزالة هذا الضرر باللعان وهذا المعنى مفقود في حقها كما هو بين.

الجواب عن (8) نعم يجوز ذلك ويتم النكاح وقد قال الفقهاء في المطلقة ثلاثا إذا تزوجها زوج ثان مضمرا طلاقها بعد الدخول بها لقصد إحلالها لزوجها الأول صح ذلك ويكون مأجورا لقصده الإصلاح.

الجواب عن (9) ليست المرأة كأداة في البيت يتخذها الرجل لتنفيذ أوامره بل لها من الحقوق مثل ما عليها ولذا قال ابن عباس أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي وليس للزوج إمرة عليها إلا في الدعاء إلى الفراش ومنعها من الخروج فلو أمرها لغير ذلك لم تجبر على الامتثال.

الجواب عن (10) متى كانت المرأة رشيدة كان لها حق التصرف في مالها بالاتجار ونحوه ولا ولاية للزوج عليها في ذلك وقد تقدم ما يشير إلى هذا في الجواب عن السؤال الأول.

الجواب عن (11) لا تكون المرأة كالرجل تصلح لجميع الوظائف فلا تصلح للإمارة لقصورها عن التدبير الذي يقتضيه الملك ولان ذلك يؤدي إلى اهمال ما هو المقصود منها وهو الولادة والاشتغال بتربية الولد والقيام بشؤون المنزل وغير ذلك. نعم جوز أبو حنيفة لها أن تلي القضاء ولكن لا تقيم الحدود والقصاص لان ضعف فؤادها ربما يبعث فيها عطفا وحنانا على المجرم تؤدي إلى أن تعفو عنه وتعطل الحد وأما تقديمها للامامة في الصلاة فلا يجوز الا على النساء فتؤمهن وتقف وسطهن وأما الشهادة فانها أهل فيقبل قولها وحدها في مسائل كالبكارة والحمل وما لا يطلع عليه إلا النساء ولا يقبل إلا إذا انضم إليها الرجل في مسائل أخرى.

الجواب عن (12) وأما ما يتعلق بالنظر إليها وسماع صوتها فالمحرر أن الوجه ليس بعورة يحل النظر إليه لمن لا يخشى الافتتان، وقال القُهستاني بالاتجار ونحوه ولا ولاية للزوج عليها في ذلك، وقد تقدم ما يشير إلى هذا في تمنع الشابة في عصرنا من كشف وجهها لانتشار الفساد، والحجاب أدعى إلى العفة وآمن عليها أن تنظر إليها العين الفاجرة وأما صوتها فقيل عورة وهو ضعيف وإنما العورة تمطيط الصوت وترقيقه بكيفية تستهوي الرجل.

جواب الأستاذ سيدي عثمان بن الخوجة

الجواب عن (1) المرأة إن كانت غير بالغة لوليها أن يزوجها بمن شاء فإذا بلغت ثبت لها الخيار إن شاءت أقرت فعل الولي، وإن شاءت فسخت هذا إذا لم يكن الولي ابا أو جدا لها. أما في الأب والجد فلا خيار لها وإن كانت بالغة فلا ولاية عليها لأحد ولو كان ابا لها، ولها الحق ان تختار من الأزواج من شاءت. نعم لوليها حق الاعتراض بطلب الفسخ إن تزوجت بغير كفء.

الجواب عن (2) إذا ظهر عيب بأحد الزوجين بعد البناء ليس لأحدهما طلب الفسخ بسبب ذلك العيب.

الجواب عن (3) الغيبة لا تبيح التفريق ولو مع عدم الإنفاق حتى يموت غالب أتراب الزوج.

الجواب عن (4) متى تلفَّظ الزوج بصيغة الطلاق وقع الطلاق من غير نظر إلى الحالة التي عليها الزوج اللهم إلا إذا كان نائما أو صبيا أو مجنونا فلا يعتبر طلاقهم.

الجواب عن (5) ليس للمرأة ضمان فيما أعطيه الزوج من حق الطلاق بل هو حق من حقوقه يوقعه متى شاء

الجواب عن (6) ليس للمرأة أن تقوم بدعوى عدم التناسب بينها وبين الزوج في الروح والأخلاق وتطلب الفرقة بسبب ذلك بعدما علمنا انها مخيرة في اقتناء الأزواج من غير سيطرة لأحد عليها.

الجواب عن (7) ليس للمرأة حق طلب اللعان بل هو من خصائص الرجل، وهذا الامتياز مبني على اختصاص الرجل ببضع زوجته بخلافها فإنها ليست مختصة ببضعه بدليل انه يعدد الازواج إلى الأربع ويتسرى بالإماء بما لاحد له.

الجواب عن (8) إن المتزوج الذي يضمر في نفسه ما ذكر في السؤال لنا فيه جهتان جهة قضائية وجهة أخلاقية. فأما من الجهة القضائية فالعقد صحيح نافذ تنبني عليه أحكامه من ثبوت نسب الأولاد وجريان التوارث بين الزوجين وغير ذلك من أحكام الأنكحة الصحيحة فلا يمنع سوء النية من صحة العقد قضاء. واما الجهة الأخلاقية فإن الانسان متى كان مضمرا للخير بحسب اعتقاده كان مأجورا ومتى كان مضمراً للشر بحسب اعتقاده كان مؤزورا والله يجازي كلا على ما نوى جزاء وفاقا. فالجهة القضائية تنظر إلى ما يجري بين الناس بحسب ظاهره لترتب عليه الأحكام الدنياوية التي ترجع إلى المنع والالزام. والجهة الأخلاقية تنظر إلى ما يجري بين الناس بحسب باطنه لترتب عليه الأحكام الأخروية التي ترجع إلى الثواب والعقاب فمعتمد الجهة القضائية الشروط والأركان وجودا وعدما ومعتمد الجهة الأخلاقية النية خيرا وشرا.

الجواب عن (9) المرأة من الوجهة الأخلاقية شريكة للزوج في الرأي والتدبير والتعاون على إصلاح شؤونها، وأما من الوجهة القضائية فليس لها من حق على الزوج بعد استيفائها لحقوقها من النفقة واللباس والسكنى والمبيت وهي مأمورة له فيما يجب عليها من حقوق الزوجية، وليس له أن يستعملها حسب إرادته في غير ما ذكر.

الجواب عن (10) المرأة معتبرة في المجتمع البشري كسائر أفراده لها ما لسائر الناس وعليها ما عليهم إلا انها لا تتقدم في إمامة الصلاة أصلا لا لنقص في انسانيتها وانما هي بالنظر إلى ان ذلك الموقف مقتض لتفرغ القلب واخلاصه إلى المولى سبحانه وتعالى باظهار العبودية والانقياد، فمنع الشارع المرأة من أن تكون اماما وذلك لما فطرت عليه النفوس البشرية من الالتفات إلى المرأة بوجه خاص يفوت الغرض المقصود من العبادة وهو تفرغ القلب، وليس في وسع الانسان وان بلغ ما بلغ من الكمال أن يعارض فطرته وطبيعته ومن ثم «أي انها كسائر أفراد الناس» جاز لها أن تلي القضاء وينفذ حكمها لأن موقف القاضي اجتماعي محض بمعنى انه راجع إلى نظام الهيئة الاجتماعية لا لخضوع القلب وتوجهه نحو الخالق، واذا جاز لها ان تلي القضاء جاز لها ان تلي غيره من سائر المناصب عند توفر الكفاءة.

الجواب عن (11) المرأة حرة في كسبها تتصرف في مالها كيف شاءت وعلى أي وجه ارادت متى كانت بالغة رشيدة. وليس للزوج عليها سيطرة ما، فهي مساوية له في سائر أنواع التصرف فكما انه لا يتوقف على إرادتها كذلك هي لا تتوقف على إرادته.

الجواب عن (12) إن الذي نص عليه الفقهاء في فصل النظر واللمس من كتاب الكراهة والاستحسان هو ان الرجل لا ينظر إلى غير وجه الحرة وكفيها، ومن خاف الفتنة فما عليه الا أن يغض بصره. قال تعالى : **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾**. الآية. هذا حكم المسألة من الوجهة الفقهية وأما تحليلها من حيث الأخلاق والآداب العامة وبيان المعاني التي أشارت إليها النصوص الواردة في هذا الغرض فإن الأفهام اضطربت في ذلك فمن ثم رأيت أن أجيب عن هذا السؤال من هذه الجهة أيضا بما فيه نوع تفصيل.

لاشك أن المرأة كالرجل لا فرق بينهما من حيث أن كلا منهما مضطر إلى مد البصر واستنشاق الهواء، والتنقل من مكان إلى آخر، والسفر لقضاء المآرب، أو الاطلاع على صفات الكون وتنزيه النفس بشرط أمن التعدي على كرامتها، وهذا القدر متفق عليه بين جميع العقلاء لا فرق بين من يدين الاسلام وغيره وليس لنا دين من الأديان يجعل المرأة دون الرجل في شيء من ذلك.

لكن بما أن الدين الاسلامي جاء مؤيدا ومقررا لما اتفق عليه جميع العقلاء من أهل المدنيات وهو المحافظة على الآداب العامة والتباعد من هتك ستار الحياء أوجب على المرأة حال بروزها بين العموم أن تستر من جسدها ما يستلفت أنظار الرجال إليها بوجه خاص ولا ضرورة تدعو إلى كشفه، وذلك كالصدر والمعصم والساق وبالجملة ما عدا الوجه والكفين والقدمين، حيث لا ضرورة تدعو إلى كشف غير ما ذكر وقد اتفق العقلاء من أهل المدنيات على أن كشف غير ما استثنى مخل بالمحافظة على الآداب العامة ومن لم يكن من أهل

الدين الاسلامي يعترف بأن ما يفعله المتبرجات من نسائهم انما هو من أنواع التهتك وصنوف الخلاعة.

ثم لما كانت مبادئ الدين الاسلامي ما علم آنفا منع المرأة أيضا من أن تظهر بين العموم بادية الزينة متجملة بما تستميل به القلوب مثل تكحيل العينين وتزجيج الحواجب، واستعمال الطيب وما أشبه ذلك من مثيرات الشهوة الطبيعية، ولا يخفى ان ظهور المرأة بين الرجال بهذا المظهر لا يرتضيه أهل العقول السليمة لا فرق في ذلك بين المسلمين وغيرهم فمن ثم كانت تعاليم الدين في هذا الغرض مؤيدة لما اتفق عليه العقلاء من أهل المدنيات.

ان تأييد الدين لما ذكر نزداد به يقينا بأنه ليس مقتصرا على التوحيد والعبادات، بل هو ملتفت نحو النظام الدنيوي الاجتماعي، حاث على المحافظة على الآداب العامة بوجه خاص، سالك مسلك التوسط والاعتدال في جميع اجراءاته، فالمرأة مثلا لم يعطها حرية تبلغ بها حد التهتك والتبرج بين العموم ولم يسلب عنها حقوقها الحيوية بحيث يذرها موؤودة وهي بقيد الحياة، ولاشك أن هذا القدر يقبله جميع العقلاء بسعة صدر وكل اطمئنان.

ان ما ينسبونه إلى الدين الاسلامي من إرهاق المرأة بستر وجهها بين العموم منشؤه اندفاع بعض من المفسرين والفقهاء وراء تأثير القوميات والأوساط التي ينشأون بها حتى اعتقدوا ان ستر المرأة وجهها بين العموم من الواجبات الدينية، واخترعوا لهذه العادة المحضة اسما مفخما سموه بالحجاب ونسبوا بضع آي

الكتاب إليه إذ يقولون كان كذا قبل نزول آية الحجاب، بحيث أن الواقف على هذه الكلمات ينقش في نفسه ان إرهاق المرأة بستر وجهها مما نص عليه القرآن بالصراحة، ولشدة ما انطبعت نفوسهم بتأثير العادات القومية اقتحموا تفسير آي الكتاب العزيز بوجوه طبق ما يزعمون فحرفوا الكلام عن مواضعه وارهقوا فصيح الآيات بما أرهقوا به وجوه الغانيات، فمن مقدر لمضاف لا يقتضيه نظم الكلام إلى مخرج اللفظ عن مدلوله اللغوي وهكذا، فخبطوا خبط عشواء وركبوا متن عمياء والأنكى من هذا أن سموا قتلهم للروح القرآني دينا ولكن سبق الوعديحفظه وما قتلوه يقينا.

ثم لما كان من الأمر ما علم وجب التعرض لبيان معاني الآيات التي ارهقت بما لا تطيقه قال تعالى: **﴿وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمارهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن﴾** الآية، الخمار لغة ثوب تضعه المرأة على رأسها كالعمامة بالنسبة للرجل، والجيب شق في أعلى القميص ينفتح عن النحر، فمعنى الآية حينئذ امرهن وقت البروز بين العموم بستر نحورهن وأعلى صدورهن لأن كشف ما ذكر بين عموم الناس، زيادة على كونه لا تدعو إليه الضرورة، مخل بصون الآداب العامة ومستلفت أنظار الرجال إليهن بوجه خاص. فمن فهم أن الخمار إسم لما يغطى به الوجه فقد أخطأ لأن غطاء الوجه يسمى برقعا فلو أريد ستر الوجه لقيل وليضربن ببراقعهن على وجوههن.

﴿ولا يبدين زينتهن﴾ الآية، الزينة أجلى من أن تعرف والمرأة منهية عن أن تظهرها بين العموم إلا ما كان ظاهرا لا يستلفت

النظر بوجه خاص مثل نعل جديد ورداء حرير، فإن الشرع أرقى من أن يلزم المرأة عند البروز بلبس نعل مرقع ورداء رث، بل منعها من إبداء الزينة الخفية المستميلة للقلوب واستثنى من كان التزين عادة من أجله وهو البعل ومن في إخفاء الزينة عنه تحرير المرأة بسبب ضرورة المساكنة أو ارتباط المصالح وهو من عداه من المذكور في الآية فمن قدر مضافا في نظم الكلام وصير المعنى ولا يبدين محل زينتهن وهو الوجه وما شاكله فقد أبعد لأن تقدير المضاف لا يلتجأ إليه إلا عند الاضطرار لتصحيح المعنى أو قيام قرينة تدل عليه. ولا يخفى انتفاء الأمرين هنا ويا ليت شعري كيف يفعل في الزينة المذكورة في آخر الآية عند قوله تعالى : **﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾** فهل يقدر المضاف مرة أخرى ويقتحم التحريف وإفساد المعنى أو يبقيها على معناها ويمزق الآية حسبما يهواه.

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ الآية، الجلباب القميص وثوب واسع للمرأة دون الملحفة أو ما تغطي به ثيابها من فوق كالملحفة أو هو الخمار وأياما كان فهو ليس اسما لما يغطى به الوجه خاصة وهو في الآية صالح لأن يراد منه كل معانيه إذ سوق للآية الاعلام بأن المرأة مأمورة بإدناء ثيابها من بدنها بحيث لا تنكشف أعطافها، وظاهر ان إرخاء الثياب وتركها متباعدة عن البدن بحيث تبدو من خلالها أعطاف البدن ضرب من التبرج الممقوت عند كل العقلاء. فليس في الآية دلالة على أكثر من الحث على مراعاة الآداب وإظهار العفاف وهو أمر محمود عند العقلاء، ومن المعلوم أن المرأة إذا تظاهرت بالعفة

قل طمع أهل الفساد في اقتفاء أثرها وقصروا من اذايتها بفحش الكلام وهذا صريح بقية الآية **﴿وذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾**.

﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾ سوق الآية للإعلام بأن من أراد سؤال شيء من أزواج النبيء ليس له أن يلج عليهن في بيوتهن، إذ لا يخفى أن المرأة في بيتها قد تكون كاشفة عن شيء من بدنها أو مشتغلة بتزيين وجهها أو ما اشبه ذلك مما تفعله المرأة في خلوتها فيقبح بالرجل ان يلج عليها في حالة لا ترضى ان يراها الأجنبي ملتبسة بها، فأمر الرجل اذا أراد سؤال متاع بان يقف خلف الباب أو الحائط أو ما اشبه ذلك مما يكون حاجبا لها عنه حتى لا يخجلها. فالأمر وان ورد في ازواج النبي غير مختص بهن لاطراد العلة كما لا يخفى فمن أراد أن يأخذ ستر الوجه بين العموم من هذه الآية فقد تكلف شططا، فقد ظهر مما تقدم بسطه أن ما هو جار بين بعض الناس من حمل المرأة على ستر وجهها بين العموم أمر عادي محض وقومي صرف لا علاقة له بالدين اصلا ولا نقصد بهذا ان نحط عن كاهل الدين ما اثقلوه به غلطا واشتباها بسبب الاندفاع وراء التأثيرات القومية. ومن أغرب ما يسمع أن بعض الفقهاء بلغ به التطرف في هذا المقام حتى منع المرأة من الكلام بين العموم وادعى أن صوتها عورة يجب عليها ستره بين الناس ولو نظر في قوله تعالى : **﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا﴾** لقصر من غلوائه وعلم أن النهي عن التليين والخضوع لان ذلك يستميل القلب إليها فنهيت عن ذلك وأمرت بأن تسلك المسلك المتعارف بين الناس بحيث تكون بعيدة عن مظان الشبهات قال تعالى : **﴿وقلن قولا**

معروفا﴾. وظاهر أن الأمر هنا للإباحة فالقرآن مصرح بإباحة القول المعروف لهن فالنص وان ورد في أزواج النبي فالحكم يتناول غيرهن لاطراد العلة كما لا يخفى.

جواب صاحب الفضيلة سيدي عبد العزيز جعيط

الجواب عن (1) متى كانت المرأة غير ذات أب فهي التي لها الحق في اختيار الزوج ويتعين على وليها الاجابة لمن عينته من الاكفاء، واما ذات الأب فالبكر والصغيرة يعتبر فيهما اختيار الأب وغيرهما العبرة فيه باختيارها.

الجواب عن (2) يفرق بين عيب الزوجة وعيب الزوج فحدوث العيب بالزوجة بعد العقد عليها يعتبر مصيبة نزلت بالزوج وان لم يحصل البناء، وحدوث العيب بالزوج يوجب الخيار للزوجة مطلقا اذا كان العيب الجنون أو الجذام أو البرص، واما اذا كان العيب داء الفرج فان حصل قبل الوطء كان للزوجة الخيار وان حصل بعد الوطء ولو مرة كان مصيبة نزلت بالزوجة الا اذا تسبب الزوج في ذلك فيكون لها حق الخيار حينئذ.

الجواب (3) الغيبة الطويلة المتلفة لمتمة الزوجية بأن كانت اكثر من ثلاث سنين تعطي حق الخيار للمرأة في الطلاق بعد الرفع للحاكم ومكاتبة الغائب المعلوم موضعه، ان كانت تبلغه المكاتبة بأن يقدم أو يرحل إليه امرأته أو تطلق عليه كما كتب بذلك عمر بن عبد العزيز لقوم غابوا بخرسان، فان لم تبلغه المكاتبة فالذي

اختاره جمع من المتقدمين والمتأخرين طلاقها عليه اذا اشتكت الضرر بترك الوطء وخوف الزنى لأنه أمر لا يعلم الا منها وهذا كله في الغيب غير المفقودين. اما المفقود المنقطع خبره فحكمه اذا كان فقده بارض الكفر في غير حرب ان تطلق عليه بالفور اذا لم يترك لها نفقة فان ترك لها نفقة لزمها البقاء لمدة التعمير، واذا كان فقده بارض الاسلام في غير حرب فبعد بحث الحاكم عنه وعدم معرفة موضعه يضرب لها اجلا قدره اربع سنين وبعد انقضاء الأجل تعتد الزوجة عدة وفاة وتحل للازواج، وضرب هذا الأجل وضع من الخليفة عمر رضي الله عنه ووافقت الصحابة على ذلك. واما المفقود في الحرب فان كان الحرب بين المسلمين والكفار فقيل لا تتزوج زوجته الا بعد مضي مدة التعمير، وقيل يضرب الحاكم عاما من حين اليأس للمفقود ثم تعتد زوجته عدة وفاة وتحل للأزواج، وان كان الحرب بين المسلمين فقيل يتلوم الحاكم للزوجة باجتهاده فيما قرب من الديار بعد انصراف من انصرف وانهزام من انهزم ثم تعتد وتتزوج وفيما بعد ينتظر سنة، وقيل فيما بعد يتربص أربع سنين، وقيل يضرب لامرأته بقدر ما يستقصي أمره ويستبرأ خبره وليس لذلك حد معلوم.

الجواب عن (4) يمضي الطلاق بمجرد التلفظ به وأن نشأ عن حدة غضب خلافا للحنفية ويمضي الطلاق المعلق على شيء بوقوع المعلق عليه ولا يعتبر في ذلك تحقق استحالة العشرة بين الزوجين.

الجواب عن (5) ليس للمرأة ضمان مادي فيما أعطى الرجل من حق الطلاق وانما لها ضمان معنوي وهو وقايتها من التعاسة التي

تنتشر بإرغام الزوج على إمساكها لها والطلاق بيد الرجل يوقعه على الزوجة متى شاء.

الجواب عن (6) إذا أثبتت الزوجة لدى القضاء عدم التناسب بينها وبين زوجها في الأخلاق والرغبات فلا تجاب إلى طلب الفراق وإنما لها ذلك إذا أثبتت إضراره بها.

الجواب عن (7) ليس للمرأة أن تلاعن الرجل في زناه بخلاف العكس والمدرك في ذلك أن زناها يعود عليه بالمضرة إذ يتوقع منه دخول أجنبي عنه في نسبه أما زنى الزوج فلا يتوقع منه إدخال ذلك الضرر عليها.

الجواب عن (8) يجوز ان يضمر الرجل في نفسه نية الطلاق عند عقد النكاح ويصح ذلك النكاح.

الجواب عن (9) المرأة راعية في بيت زوجها فعليها أن تقوم بهذا الواجب حتى تكفيه مؤونة التدبير في داخل المنزل فيتفرغ لبذل مجهوداته فيما يتعلق بشؤون الحياة خارج المنزل وبهذا تتحقق المشاركة بينهما، والتعاون على إصلاح شؤونها وهو من أعظم المقاصد في النكاح، وإذا أمر الزوج زوجته بشيء مما هو داخل المنزل حكمت العادة فان كانت تقتضي قيام الزوجات به أجبرت عليه وإلا فلا ولاستناد هذا الفصل للعادة يختلف الحكم بين نساء البوادي ونساء الحواضر كما يختلف بالنسبة لأهل الشرف وبالنسبة للسوقة.

الجواب عن (10) للمرأة الحرية التامة في التصرف في مالها بغير التبرع إذا كانت رشيدة وليس للزوج نظر في ذلك وأما التبرع منها فللزوج النظر فيما زاد على الثلث فله أن يرد ما فعلته.

الجواب عن (11) صريح المذهب منع إمامة المرأة وولايتها القضاء.

الجواب عن (12) يجب بالنسبة للأجانب غير المحارم ستر جميع بدنها ماعدا الوجه والكفين ويجب عليها ستر الوجه أيضا إذا خشي منها الفتنة.

جواب صاحب الفضيلة سيدي الطاهر بن عاشور

الجواب عن (1) إن للمرأة حق الرضا بمن تتزوجه، وليس لوليها أن يجبرها على زوج لا ترضى به إلا الأب في خصوص بناته الأبكار فإن له حق الجبر في نظر المذهب المالكي ما لم يكن في جبره إياها ضرر عليها كما هو مفصل في الفقه.

الجواب عن (2) إن العيوب الموجبة للفسخ وهي المذكورة في كتب الفقه إن حلت بالزوج كان للزوجة الخيار بين البقاء في العصمة وبين طلب الطلاق بعد التأجيل فيما يرجى برؤه منه مطلقا سواء كان العيب قديما أو حادثا، وأما إن حل العيب بالزوجة وكان العيب قديما قبل العقد فهو يوجب للزوج الخيار بين الرضا وبين الطلاق مع الرجوع بالصداق على ولي المرأة الأقرب إذا كان عالما بعيبها

وكتمه، أو على المرأة إن لم يكن وليها قريبا بحيث يعلم حالها ولا يكون للمرأة حينئذ إلا ربع دينار إن بنى بها.

الجواب عن (3) ان الغائب في سفر لا تطلق عليه امرأته إذا كان معلوم المكان مادام مجريا عليها النفقة إلا إذا شرط لها أنه إن غاب عنها فقد جعل لها طلاق نفسها، فحينئذ يكون لها حق تطليق نفسها وكذلك إذا طالت غيبته وتضررت منها المرأة وقدر ذلك بسنة على ظاهر المدونة، فإن تضررت من ذلك كتب إليه الحاكم بأن يقدم أو يرحل زوجه ويتلوم له بالاجتهاد ثم يطلق عليه وكذلك إذا تعذرت مكاتبته ولم يكن له عذر في التأخر عن القدوم من مرض أو اعتقال فإن كان الزوج غير معلوم المكان وهو المفقود فإن كان له مال تجري منه نفقة زوجة فلا تطبق عليه بعد أربع سنين في المفقود ببلاد الإسلام، وإلى أن يمضي عليه أمد التعمير وهو ما لا يعيش إلى مثله ذلك المفقود في مفقود أرض الحرب وإلى أن يمضي عليه عام في مفقود أرض الفتن الواقعة بين ا لمسلمين.

الجواب عن (4) إن الطلاق يمضي بصدور صيغته بتنجيز أو تعليق ان حصل المعلق عليه ولو في حال غضب ولا يلزم طلاق المجنون ولا الذي يهذي بحمى أو أمراض الصرع ومن بلغ إلى حد ذهب معه تمييزه.

الجواب عن (5) أنه لا ضمان على الرجل في إيقاعه الطلاق على إمرأته لأن عصمة الزوجية مظنة الرغبة في دوام المعاشرة فالزوج محمول على أنه ما طلق إلا حين لم يجد سبيلا للمعاشرة والأحكام

في مثل هذا منوطة بالمظنة ومشروعية الطلاق روعي فيها استراحة الزوجين من معاشرة غير هنيئة، قال تعالى : **﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾**، وقال : **﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾**.

الجواب عن (6) إن عدم التناسب إذا أدى إلى سوء المعاشرة بين الزوجين ولم يقع الوفاق بينهما وخيف تجدد الشقاق فقد شرع الله التحكيم بينهما، فقال : **﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾**. واستحسن الفقهاء أن يقدم بين يدي ذلك وضعهما بين قوم صالحين أمناء لينظروا الظالم منهما ثم يقع التحكيم بعد ذلك إن وقع اليأس من الاصلاح.

الجواب عن (7) إن المرأة ليس لها حق اللعان اذا رأت زنى زوجها لأن علة مشروعية اللعان لنفي النسب اللاحق بالزوج الذي رأى زنى زوجته، وهي العلة مفقودة في رؤية المرأة زوجها يزني إذ لا يلحقها شيء من ذلك ولكن حكمها في القيام لذلك حكم المحتسب من المسلمين، وأما حلف المرأة فلدرء الحد عنها الثابت بحلف الزوج وقد أشار القرآن إلى ذلك وجعل صيغة إيمان المرأة في اللعان عن تكذيب من اتهمها.

الجواب عن (8) يظهر أن السائل عني بسؤاله أن يتزوج الرجل المرأة مضمرا تطليقها إلى أجل فهذا إن وقع مضمرا في النفس دون شرط بين الزوجين كان صحيحا. قال مالك رحمه الله : وليس

من أخلاق الناس وإن كان شرطا فهو نكاح المتعة وهو باطل ويفسخ ولو بعد البناء باتفاق علماء السنة.

الجواب عن (9) إن المرأة رفيقة للرجل ولذلك سمي كلاهما زوجا لأنه شفع للآخر، وهي حليلته في البيت وكلاهما مأمور بحسن معاشرة الآخر، وبينهما حقوق مشتركة. فللرجل على المرأة حقوق وللمرأة عليه حقوق وقد أشار إلى ذلك القرآن المجيد في قوله تعالى : **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾**، وبيان هذين الحقين مفصل في كتب الفقه فمن امتنع منهما بما عليه من الحقوق أجبر على ذلك سواء في ذلك الرجل والمرأة.

الجواب عن (10) إن تصرف المرأة في مالها كتصرف الرجل، فإن كانت رشيدة فلها التصرف في مالها بالبيع والشراء بما شاءت إلا أنها إذا تبرعت بما زاد على ثلث مالها كان لزوجها الرد، وليس للزوج ولاية عليها في مالها غير ذلك.

الجواب عن (11) إن اعتبار المرأة في المجتمع الإسلامي كاعتبار الرجل على الوجه الذي لا يخرجها عن أحكام الاسلام وآدابه الخاصة بالنساء دون الأحكام الخاصة بالرجال، قال تعالى : **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾**، وتتعلم وتعلم ويؤخذ عنها الحديث إذا اتصفت بالعدالة وتشهد في الأموال مع امرأة أخرى فتكون شهادة المرأتين كشهادة رجل في الأموال، وتشهد فيما لا يطلع عليه الرجال من أحوال النساء فتكون شهادتها في ذلك كشهادة الرجل ويوجهها

الحاكم في عيوب النساء وفي الحمل والرضاع ونحو ذلك، وتقوم بتمريض المرضى ومداواة الجرحى في الحرب، وتتولى من الولايات الحسبة ونحوها مما ليس فيه حكم بين الناس، وقد أولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أم الشفاء الحسبة ولا تولى الخلافة ولا الملك ولا الامارة ولا قيادة الجيش عند جمهور علماء الإسلام خلافا للشيعة، ولا تولى القضاء عند الجمهور. وقال أبو حنيفة تقضي المرأة فيما تشهد فيه، ولا تولى إمامة الصلاة في مشهور مذهب مالك خلافا لرواية ابن ايمن أنها تؤم النساء خاصة وهو أيضا قول الشافعي وجمهور فقهاء الاسلام.

الجواب عن (12) إن الذي يجب ستره من المرأة الحرة هو ما بين السرة والركبة عن غير الزوج وما عدا الوجه والأطراف عن المحارم والمراد بالأطراف الذراع والشعر وما فوق النحر، ويجوز لها أن تظهر لأبيها مالا تظهره لغيره مما عدا العورة المغلظة، وكذلك لابنها، ولا يجب عليها ستر وجهها ولا كفيها عن أحد من الناس. ففي الموطأ قال مالك : لا بأس أن تأكل المرأة مع غير ذي محرم على الوجه الذي يعرف للمرأة أن تأكل به وهذا يقتضي إبداء وجهها ويديها للأجنبي، فوجه المرأة عند مالك وغيره من العلماء ليس بعورة واستدلوا على هذا بقوله تعالى : **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾**، وقوله : **﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾**، وإنما يستحب للمرأة ستر وجهها كما قاله عياض ويحرم على الرجل النظر لوجه المرأة لريبة أو قصد فاسد واختلف في ستر قدميها على قولين.

هذا وقد تفاوتت عصور المسلمين وأقطارهم في كيفية ما أبيح لهم من احتجاب المرأة تفاوتا له مزيد مناسبة لأحوال الآداب والمعارف الغالبة في عامتهم وفي نسائهم، وله مزيد تأثر بالحوادث الحادثة من اعتداء أهل الدعارة والوقاحة على الحرمات، فيجب أن يكون حال الآداب والتربية في بلاد الإسلام هو مقياس هذه الأحكام.

جواب صاحب الفضيلة سيدي بلحسن النجار

الجواب عن (1) الحق للمرأة في اختيار الزوج إذا رغبت في كفء وقال مالك والشافعي إلا إذا كانت ذات أب وهي بكر أو دون البلوغ فإن الاختيار لأبيها ويندب له استيمارها، فان رغبت في شخص ورغب أبوها في غيره فالكلمة الأخيرة لأبيها. ففي صحيح مسلم : الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر وإذنها سكوتها. وفي سنن ابن ماجة أن فتاة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، قال، فجعل الأمر إليها فقالت قد اجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء.

الجواب عن (2) ظهور العيب السابق على العقد بأحد الزوجين يوجب للآخر حق الخيار في التمادي على الزوجية أو الرد. أما طروء الجنون والبرص والجذام بعد العقد فيوجب للزوجة وحدها طلب الفراق على التفصيل للفقهاء فإن كان الطارئ بالزوج يمنع الاستمتاع فهو مصيبة حلت.

الجواب عن (3) الغائب إما مفقود وإما أسير وإما غيرهما، والمفقود إما مفقود في غير أرض الإسلام في حرب أو غيره، وحكمه

أن امرأته لا تتزوج إلا بعد انقضاء أمد التعمير والحكم بموته، وإما مفقود في أرض الاسلام في غير فتنة وحكمه أن يضرب لزوجته أجل أربع سنين بعد العجز عن خبره. وإن كان في فتنة فإن لم تبعد اماكن الملحمة فحكمه من مات حاضرا بعد التلوم له بقدر انصراف من انصرف وانهزام من انهزم ثم تعتد زوجته وتتزوج، وإن بعدت أماكن الملحمة انتظرت زوجته سنة وهذا رآه في المعركة من تقبل شهادته وأما الأسير فتنتظر زوجته قدومه إلى أن يموت حقيقة أو حكما. وأما الغائب المعلوم الموضع فمشهور مذهب مالك أنه إن تبين قصده الاضرار بها بترك الإستمتاع فإنه يكتب إليه إما أن يقدم وينقل زوجته إليه أو يطلق فإن أبى ضرب له أجل أربعة أشهر ثم تطلق عليه، وإن لم يتبين قصد الإضرار فلا طلاق. وأفتى بعضهم بأن مجرد حصول التضرر لها بالترك يجعل لها حق الفراق فيكاتب إن علم موضعه ثم يتلوم له بالاجتهاد ثم تطلق نفسها.

الجواب عن (4) يمضي الطلاق بمجرد تلفظه بصيغة الطلاق الدالة عليه وعلى قصده لغة أو عرفا أو نواه بأي لفظ على تفصيل للفقهاء ولو تلفظ به في حالة غضبه. وخالف في ذلك إبن القيم الجوزية وقال بعدم لزومه للغضبان ولا فرق في ذلك بين إنشاء الطلاق تنجيزا أو تعليقه خلافا لابن تيمية وإبن القيم الجوزية حيث فرقا بين أن يعلق الطلاق على الشرط لا يقصد بذلك إلا الحظر والمنع فإنه يجزيه فيه كفارة يمين إن حنث وبين أن يريد الجزاء بتعليقه فتطلق كره الشرط أم لا.

الجواب عن (5) حق الطلاق بيد الرجل وهو مكفول بما دلت عليه نصوص الشريعة من بغض الطلاق في حديث «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» وإن اللائق أن يوقعه بحكمه فيما يستحسن من مواقعه قال تعالى : **﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾** وقال سبحانه : **﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾** مع ما شرع من تمتيع الزوجة عن فراقها بجبر خاطرها قال تعالى : **﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾** كل ذلك يرشدنا إلى طلب لزوم الاعتدال في الطلاق والتصرف فيه بحكمه.

الجواب عن (6) إن كان المقصود من هذا السؤال هو قيام الزوجية بدعوى سوء المعاشرة فقد تكفل الشارع ببيان حكمه وهو ينظر لهما بالتوفيق والإصلاح فإن اشتد النزاع بينهما واشتبه الظالم بالمظلوم يصار إلى بعث الحكمين، قال تعالى : **﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما﴾**.

الجواب عن (7) ليس لها أن تلاعن لأن اللعان شرع لنفي نسب الحمل الظاهر أو المتوقع، فإذا خشي الزوج ذلك لاعن لنفيه عن نسبه وهذا منتف من جانب المرأة لأنه إذا ظهر حمل بالتي زنى بها زوجها لا يلتحق بها.

الجواب عن (8) لو أضمر الزوج نية الطلاق عند العقد لم يفسد لكن قال مالك : ليس من أخلاق الناس.

الجواب عن (9) المرأة في بيت زوجها رفيق يعمل معه ففي صحيح البخاري «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». وللمرأة من الحقوق بقدر ما عليها نعم إن الرجل له في بيته الزعامة بما أعطيه من القوة الخلقية واستنباط الحيلة فيذود عن أهله ويحمي حقيقته، قال تعالى : **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾** تلك هي درجة الحفظ والدفاع والسعي والإنفاق من ذات يده. قال تعالى : **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾** وبهذا التعاضد والتشارك في العمل : كل يقوم بدوره على حسب ما هيأته له الطبيعة والميراث الخلقية، كانت صلة الزوجية أمتن صلة اجتماعية تتكون منها صلة البنوة فهي حرية بالرعاية والاحترام، قال تعالى : **﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾**، وورد في نصوص الشريعة أمر المرأة وتحريضها على طاعة زوجها لكن في دائرة الحقوق من غير أن تطلق يده عليها ويستبد بها كيف شاء ففي سنن ابن ماجة «لو كنت آمرا احدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها». وقد أرشد الله تعالى الآباء إلى مشاورة الأمهات في مدة رضاع إبنها، قال تعالى : **﴿فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾** فلم يجعل الرجل مستبدا على المرأة في ذلك، بل لا يصدر إلا عن اتفاق بينهما بعد الشورى ونظائره مثله، وفي صحيح مسلم أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه

فقالت بأبي وأمي أنت يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبالهك، إنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم، وانكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل وأن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفنشاركم في هذا الأجر والخير فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه فقالوا يا رسول الله ما ظننا ان امرأة تهتدي إلى مثل هذا فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها فقال افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل كل ذلك كله.

الجواب عن (10) للمرأة الحرية المطلقة في التصرف في مالها فلها الملك والبيع والشراء والوصية والوكالة والتجارة مستقلة في كسبها وموردها وسائر عقود المعارضات من غير إشراف لزوجها عليها ولا تأثير لعقد الزوجية على مالها بحيث لا تكون بحال مكفولة لتصرفات زوجها المالية ولها الهبة والتحبيس والصدقة وسائر التبرعات المعتدلة التي لا تخرج عن حد الاقتصاد وحسن التصرف إلى جانب الإسراف والتبذير بحيث لا تتجاوز في ذلك الثلث، والثلث كما في الحديث الصحيح كثير فإن تجاوزت الثلث فلا يمضي ذلك إلا بموافقة زوجها التي هي في الحقيقة نظر لها

بالمصلحة وتشاور على قاعدة حفظ مالها وصونه عن التبذير، وليس للزوج ولاية عليها في غير ذلك ولا تفوض في مالها ولا يمضي فعله في حقها إلا بتوكيل منها تسنده إليه عن رضاها واختيارها، ولها أن توكل غيره من تختاره ولا مقال له في ذلك.

الجواب عن (11) المرأة نصف الانسان يتوقف ظهور مميزاته على وجودها توقفه على وجود الرجل، وهي في الإعتبار ذات احساس تام وشعور لطيف وأنفة وحنان وشفقة شديدة التأثر سريعة التنفيذ لإرادتها لها في الهيئة الاجتماعية سائر الحقوق التي لا تنافي ميزاتها وقد قال الأئمة الثلاث أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل بصحة إمامتها للنساء في الفرض والنفل، وأجاز أبو حنيفة أن تكون قاضيا في الأموال قياسا على شهادتها فيها وقال أبو جعفر الطبري يجوز أن تكون حاكما على الإطلاق في كل شيء لأن الأصل هو أن كل ما يتأتى منه الفصل بين الناس فحكمه جائز إلا ما خصه الإجماع من الإمامة الكبرى (الخلافة)، أما شهادتها فمقبولة بنص الكتاب على تفصيل للفقهاء مبنى على شدة الاحتياط في الحقوق نظرا لسرعة تأثرها ولطف عواطفها أما شأنهن في الفتوى فعظيم وقد اشتهر كثير منهن بالاجتهاد والإجادة في الرواية حتى قال الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال بعد أن خرج فيه أربعة آلاف منهم من المحدثين : وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها. وذكر الحافظ ابن عساكر ان من بين شيوخه بضعا وثمانين من النساء ولان النساء في عهد النبوة وبعدها يشهدن الخير ومجامع المسلمين ويحضرن الحروب لإسعاف الجرحى وتضميد جراحهم كما نقل ذلك عن أمية بنت قيس الغفارية وأم أيمن مولاة

رسول الله صلى الله عليه وسلم والربيع بنت معوذ إلى غيرهن كما حدثنا بذلك صحاح الأخبار وثقات المؤرخين.

الجواب عن (12) يجب على المرأة ستر وجهها وسائر بدنها عن الأجانب منها بحيث لا تظهر منها إلا عيناها قال تعالى: **﴿يا أيها النبيء قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما﴾**، والجلباب ثوب أوسع من الخمار وقيل هو الرداء وأدناؤه هو أن تلويه على وجهها حتى لا تظهر منها إلا عين واحدة تبصر منها، وقيل لا تظهر إلا عيناها. وقوله: **﴿أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾** أي حتى يميزن عن الإماء اللاتي يمشين حاسرات.

جواب صاحب الفضيلة سيدي أحمد بيرم

الجواب عن (1) لكل منهما حق اختياره في جهة ففيما يرجع للخلق والخالق ونحوهما لها الخيار، وفيما يرجع لحفظ مميزاتها وكفاءة الزوج لها يكون للولي الخيار.

الجواب عن (2) لا ترد حرة بعيب مطلقا.

الجواب عن (3) لا طلاق للمرأة غير المجعول لها ذلك، بل الطلاق لمن أخذ بالساق.

الجواب عن (4) يمضي بمجرد التلفظ به في غير ما ألغاه الشارع كطلاق الفار.

الجواب عن (5) لها حق الامتاع المنصوص عليه بآية : **﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف﴾**، الآية.

الجواب عن (6) تطلب ما شاءت أن تطلب وتستند لما شاءت أن تستند والله يحكم ما يريد.

الجواب عن (7) إنما يلاعن الرجل لحماية نسبه بخلافها وهو ظاهر.

الجواب عن (8) التوقيت يبطل العقد عندنا. قال في الكنز : «وبطل نكاح المتعه والموقت».

الجواب عن (9) الرجال قوامون على النساء فيما يرجع لصحة النظر وحماية الحق وأشباه ذلك وأما فيما عداها فهي رفيق مراعى الجانب ولا ولاية للزوج عليها فيما عدى حقوق الزوجية.

الجواب عن (10) الرشيدة مطلقة التصرف في مالها كالزوج من كل وجه.

الجواب عن (11) أن لها المقام الثاني بعد الرجل حيث التعمير منه ومنها الحضن والرعاية ولا اجتماع للنساء في الصلاة حتى تكون الواحدة منهن إمامة. قال الهامدي :

ولا يصلين معا فان جرى توسطت امامة فقررا

وكذا لا قضاء لها.

الجواب عن (12) يجب سترها كلها في وقت انتشر فيه الفساد حتى الوجه والكفين وتحديد العورة للحرة بكذا وللأمة بكذا منظور فيه لصحة الصلاة وبطلانها حال الانكشاف.

*****